الآن نفتح الصندوق 2

د. أحمد خالد توفيق

قبل أن نفتح الصندوق...

لم تنته الأوراق التي امتلأ بها صندوق الدكتور محفوظ، فالرجل كما هو واضح لم يجمع مالاً وإنما جمع ذكريات ، ولو وقع هذا الصندوق في يد واحد لا يعشق الخيال فلسوف يكون مصيره سلة المهملات. لكننا بالطبع نختلف...

الصندوق المغلق له سحر خاص في كل الثقافات، وله كذلك رهبة خاصة.. قد يحوي كل شيء أو لا شيء.. قد نزداد ثراء أو قوة أو خبرة.. قد نزداد رعبًا أو توجسًا.. قد نفهم الحقيقة المريعة التي كنا غافلين عنها، وهي أن الحياة ليست مكانًا آمنًا كما كنا نتصور، وأن الغفلة التي ننعم بها نعمة حقيقية.. غفلة الأطفال الذين يلعبون جوار الخرائب غير عالمين بما يتحرك هناك..

ربما نحصل على هذا كله، وربما لا نحصل على شيء سوى لذة الترقب..

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد.. كنز من الياقوت والعقيق.. أسرار القنبلة الذرية.. جثة متحللة.. يد مومياء.. قلادة (فلاد).. صور مصفرة حال لونها.. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة.. صرصور.. عنكبوت.. لا شيء..

لقد أحب القراء الكتاب الأول، لهذا نقدم لهم الكتاب الثاني وكلنا أمل في أن يظفر بذات الإعجاب أو يزيد عليه قليلاً...

من جديد سوف نجد الكثير من الأسئلة ومعظمها بلا إجابة، لكن التساؤل نفسه هو المتعة التي نجنيها من قصص كهذه.. أو كما يقولون: الرحلة هي الهدف..

تعال نشعل شمعة.. انظر خلفك لتتأكد من أنك وحيد في هذا القبو.. لا أحد يحب أن يقرأ هذه الأمور بينما كيان مجهول متسربل بالظلام يقف خلفه.. لا شك أنك توافقني على ذلك.. ابحث عن صندوق آخر لتجلس إليه.. مد يدك.. تأكد من أن ما تمسك به أناملك ورقة وليست شيئًا آخر.. انتزع الورقة الأولى واقرأ ما فيها...

إنها تقول التالي ....

المقبرة رقم ٣٤

هناك على الضفة الغربية لنهر النيل في الأقصر ـ نحو ستة كيلومترات للغرب ـ يمكنك أن ترى وادي الملوك..

صحراء مترامية وشمس حارقة وهضاب على الجانبين تنضج ببطء في لهب شمس الظهيرة، بينما يتفرق السياح هنا وهناك يلتقطون الصور في نهم..

ولد وادي الملوك مع الأسرة الثامنة عشرة، وظل الملوك يدفنون فيه حتى الأسرة العشرين..

لا تتساءل كثيرًا عن الحال منذ أربعة آلاف سنة عندما لم تكن هناك وسائل مواصلات ولا حافلات مكيفة، وكان العمال يأتون إلى هذا المكان حفاة عراة على أقدامهم من معسكراتهم في منطقة (دير المدينة) حاملين مومياء هذا الملك أو ذاك، ثم يغيبون في أعماق الجبل لينجزوا تلك النقوش الرائعة.. الحر والعرق والافتقار للأكسجين وبرغم ذلك يصنعون هذا السحر. هل كان هؤلاء القوم يتحملون أكثر منا بكثير أم هم كانوا سحرة فعلاً؟

يقال إن هذا الوادي قد اختير بسبب سهولة الوصول من النيل له، كما تسهل حراسته حيث تحيط به التلال العالية، بالإضافة إلى جودة الحجر الجيري الذي تتكون منه جباله.. لا تنس أن الفراعنة كانوا ذواقة صخور حقيقيين، وعلى الأرجح كانوا شعبًا من علماء الجيولوجيا.. وكذلك بسبب وجود الجبل الذي يرتفع جهة الجنوب على شكل القرن والذي يمثل هرما طبيعيًا..

وادي الملوك!..

يا له من مكان يثير الخيال!.. اللورد البريطاني (كارنافون) بقبعته العالية وعصاه وتحذلقه، والمغامر الأمريكي (كارتر) بقميصه مفتوح الكمين يبحثان في الصخور ليجدا قبر (توت عنخ آمون). القبر الذي بدأ

كل هذا الكلام عن لعنة الفراعنة التي فشل الجميع في البرهنة عليها، لكن – وهذا رأيي – لم ينجح أحد في نفيها بالكامل.. دعك من اللغز الغامض المخيف الذي يحيط بالمقبرة رقم 55 والتي سوف نتحدث عنها في قصة أخرى..

أنا قد زرت وادي الملوك مرارًا.. لا أحد يزور الأقصر من دون أن يزور وادي الملوك، ويمكن القول إنني أعرف عم (هريدي) جيدًا ومن الغريب أنه يعرفني..

لا يوجد شيء خاص يميزه.. إنه خفير صعيدي أسمر اللون كأنه جاء لتوه من طمي النيل، له سنة ذهبية جميلة، وهو يحمل بندقية حكومية كتب عليها رقمها بالطلاء الأبيض، ويضع تلفيعة سميكة ولا يكف عن التدخين..

شخصية جاءت من أعماق الأدب العالمي، فلو رآها نجيب محفوظ أو ماركيز أو جوركي لما تركوها، ومن المؤسف أنني لا أفهم أكثر كلامه لأنه يتحدث بلهجة صعيدية قحة، أما تلك اللهجة المضحكة التي يستعملونها في المسلسلات التلفزيونية على طريقة (مليح جوي يا بوي) و(ماخابرش) فهي لهجة لا وجود لها اصطنعها الممثلون اصطناعًا...

يراني عم (هريدي) فيصافحني.. بعد أعوام صارت المصافحة عناقًا.. لا أعرف كيف يتذكرني وسط كل من يراهم يوميًا... (الطفطف) يصل ليفرغ حمولته من كل الجنسيات.. ترى يابانيين صفرًا ضيقي الأعين، وأوروبيين لهم لون الكابوريا المسلوقة، وطلبة جامعات مصريين ، لكنه يتذكرني أنا بالذات..

-"لك وحشة يا أستاذ.."

ثم يجلس على تلك الدكة الخشبية بجوار مدخل مقبرة أحد (الرمسيسات) الذين يعج بهم وادي الملوك، وينفث دخان لفافة التبغ حالمًا..



هكذا أتركه وأدخل المقبرة الأولى أو الثانية..

كيف لي أن أعرف أن لعم (هريدي) سرًا لا يبوح به؟.. وكيف لي أن أعرف أنه سيصارحني به يومًا ما؟

عندما يقترب اليوم من نهايته يعلنون عن قرب غلق وادي الملوك أمام الزيارات. يبدأ السياح يركبون (الطفطف) متجهين إلى الخارج. الشمس الحارقة على الدوام تتثاءب وتعلن أنها مرهقة.. تتثاءب..

الموجودات تتلون باللون الأزرق.. كل شيء يبرد..

من بعيد وراء الجبال تتلون السماء بلون أرجواني، ويبدأ البرد.. برد الصحراء الذي يخترق العظام..

إنه الآن وحيد تمامًا... هناك زملاء له في عدة مواضع لكنهم متفرقون، وعمله هو أن يمضي ليلته هنا.. ليس كل ليلة..

تجربة كهذه تميت القلب تمامًا، لهذا كف عم (هريدي) عن أن يشعر بالذعر منذ دهور.. لم يعد يقلقه شيء، وعندما يزداد الظلام كثافة ويصير الأزرق أسود، فإنه يشعل النار ويخرج عدة الشاي..عشرات الأكواب حتى الصباح وهو جالس هنا قرب المقبرة رقم 34...

الآن صار الظلام دامسًا فلا شيء يؤنسه سوى النار المتراقصة وصوت مذياع صغير أعطاه إياه سائح ياباني منذ أعوام. الجبل.. مقابر الفراعنة..

من بعيد يسمع صوت ابن آوى يضحك.. يسمع صوت كلب يعوي. ربما هو ذئب لأن الصوت موحش عميق، لكن من هو الصعيدي الذي يخاف صوت ذئب؟..

يرفع صوت المذياع ويشعل لفافة تبغ أخرى..

ينظر لساعته.. إنها الحادية عشرة مساء..



ليس اسم المقبرة 34 كذلك بالطبع.. هذا هو رقمها بالنسبة لوزارة الثقافة، فمقبرة توت عنخ آمون مثلاً هي المقبرة رقم 62. لكن المقبرة 34 تخص (تحتمس الثالث). ليست سهلة قريبة مثل باقي المقابر لكنها تحتاج إلى مشقة تسلق الجبل وارتقاء درجات ونزول درجات.. مغامرة لم تعد سنه تسمح له بالمرور بها..

هو لا يعرف شيئًا عن (تحتمس الثالث).. ما يعرفه من المرشدين الذين يمشون مع وفود عربية هو أنه كان قائدًا كبيرًا وكان يمت بصلة قرابة لـ (حتشبسوت).

الآن منتصف الليل..

يراه من بعيد وسط الظلام يهبط فوق الصخور بتؤدة.. لقد رآه عشرات المرات من قبل..

القامة الفارعة والصمت.. يقترب في بطء.. في بطء.. حتى يصير في ضوء النار. يمكنك أن ترى ملامحه القسيمة السمراء ووجهه الصلب كأنما قد من صخر..

منذ أعوام كان هذا المشهد يجمد الدم في عروقه، وفي المرة الأولى صرخ وراح يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. من أنت وكيف دخلت هنا؟.. الجبانة كلها مغلقة.. لا أحد يستطيع الدخول..

لكن الغريب الذي جاء من بين التلال جلس... قال له بصوت عميق:

-"لا تسأل أسئلة كثيرة.."

ثم مد يده يمسك بكوب الشاي الفارغ، فراح الخفير يصب له بيد ترتجف..

يجلس الغريب صامتًا ينظر للجبل المظلم.. يسأل الخفير عن قريته.. عن أبنائه..

هكذا تمضي الساعات وهما جالسان حول النار.. ثم يقترب الفجر

فينهض الغريب بلا كلمة ويتجه إلى الجبل، ويرقى الصخور من دون كلمة واحدة.. يبتعد حتى يختفي..

ويظل الخفير جالسًا وحده مفعمًا بالحيرة والأسئلة..

لماذا لم يسأل أكثر؟.. لماذا لم يصوب بندقيته على رأس هذا الغريب؟.. بكل المقاييس هو متسلل إلى الجبانة ويجب أن يقتاده إلى الشرطة أو يطلق عليه الرصاص..

لكنه كان يعرف أكثر.. لماذا لم يصف أي واحد من زملائه الخفراء تجربة مماثلة؟.. من هذا الغريب الذي يظهر في الجبل فجأة؟.. لماذا لا يتكلم؟.. لماذا لا يظهر بانتظام بل ليلة واحدة أو ليلتين في الشهر؟

أدرك عم (هريدي) بلا أسئلة أن هذا الغريب ينتمي بشكل ما إلى... إلى... هو لا يجرؤ على أن يقولها..

كل هذا غريب، والاغرب أنه بدأ مع مرور الاعوام يأنس إلى هذا الغريب القادم من المقبرة رقم 34. هو يمضي الليل وحيدًا في عزلة مخيفة، لهذا لم ير بأسًا في أن يجد بعض الصحبة الآدمية.. من قال إنها آدمية؟

صحبة وخلاص.. المهم أن هناك من يجلس معه جوار النار ويشرب الشاي معه، والاهم أنه يبعد عنه الكلاب المسعورة.. لقد رأى كلبًا يدنو من النار ذات ليلة، وكان يزأر بشكل مخيف.. صوب (هريدي) بندقيته نحوه مستعدًا لقتله لو تمادى، لكن الكلب تصلب إذ نظر له الغريب.. تراجع وهو يزوم بشكل مثير للشفقة ثم فر مبتعدًا..

مع الغريب أنت في مأمن من الكلاب والذئاب والثعابين...

عرفت هذه القصة من عم (هريدي) لما توطدت صداقتنا أكثر، وقد اعتبرتها هلاوس من عجوز قضى حياته كلها ساهرًا في جبل مظلم وسط مقابر.. لكن حماسه للقصة جعلني أزداد فضولاً..

إن لي صلات مع أناس مهمين جدًا، وقد رتبوا لي أن أقوم بجولة في وادي الملوك ليلاً مع أحدهم.. اسمه (صبري) وهو رجل نحيل عصبي ملول يريد الانتهاء سريعًا من هذا السخف..

هكذا مشينا في الظلام وسط الجبل متجهين إلى الموضع الذي اعتاد عم (هريدي) أن يسهر فيه، ودعوت الله أن تكون هذه من الليالي التي يرى فيها ذلك الغريب..

عواء ابن آوى يتردد...الحق أن المكان مخيف فعلاً.. لو إنني قضيت ليلة هنا لرأيت آمون وست وحورس أنفسهم يمضون الليل معي. مشينا في طريق طويل ترابي نلهث وكان القمر ساطعًا فلم نحتج لإضاءة وهذا من حسن حظي، وأخيرًا قال لي (صبري):

-"لو اقتربنا أكثر لرآنا الخفير.. يجب أن نتوارى في مكان قريب.."

كانت هناك مقبرة لها مدخل غائص في الجبل، هكذا تسللنا إلى هناك لنبتعد عن العيون، ومن هذا الموضع استطعنا أن نرى على بعد خمسين مترًا (راكية) النار والخفير جالسًا أمامها...

هنا تصلبت..

كان يكلم شخصًا غير مرئي أمامه.. يصب الشاي له ثم يناوله الكوب... يتكلم بلا انقطاع..

نظرت لصبري ونظر لي ثم ابتسم وقال:

-"كما توقعت أنا بالضبط.. الرجل قد جن واخترع رفيقًا وهميًا يمضي معه الليل.."

هززت رأسي.. القصة أبسط وأسخف مما توقعت ولم تكن تستحق هذا المشوار الليلي.. تمنيت أن تكون كذلك وقد كان..

قلت لصبري إنني سأدور حول الخفير من الخلف لألقي نظرة أخيرة.. نظرة واحدة بعدها نرحل بالسيارة التي تنتظرنا خارج الجبانة.

هزّ رأسه في ملل، فانطلقت أركض منخفض الرأس خلف اللافتات التي تشرح تخطيط كل مقبرة.. تسلقت بعض الصخور لأتمكن من رؤية المشهد بشكل أفضل.. بالفعل كان الخفير العجوز جالسًا يكلم الهواء بلا انقطاع.. يشرح أشياء.. يشير نحو الجبل.. مشهد مخيف لكنه غير خارق للطبيعة.. الخوف من الجنون يختلف عن الخوف الذي يسببه شخص غامض يخرج من مقبرة (تحتمس الثالث) ليلاً..

كان عواء ابن آوى يتردد من بعيد.. طبعًا.. هذه مقابر..

زحفت أكثر.. وهنا شعرت بشعور غريب بأن هناك من يقف قربي.. التفتت في توتر فرأيت في الظلام الدامس مشهدًا غريبًا بعض الشيء.. لو أطلقت لخيالي العنان لقلت إنه إنسان عملاق له رأس ابن آوى.. كان يقف هناك بين الصخور وظهره لي ناظرًا نحو القمر، وكان يصدر خوارًا مكتومًا.. ربما بعد لحظات يطلق عواء عاليًا آخر..

(أنوبيس)... سيد المقابر.. المشرف على التحنيط..

لقد رسموه إنسانًا له رأس ابن آوى لأنهم رأوا بنات آوى تملأ المقابر... صوت العواء الذي كان الخفير يسمعه كل ليلة لم يكن من حنجرة ابن آوى لو أردنا الدقة....

لا أعرف كيف ولا متى انطلقت ساقاي تحلقان فوق الرمال والصخور، ولا أعرف كيف اصطدمت بصبري في الظلام فهتف في حنق:

ـ"ماذا دهاك؟"

قلت وأنا أجره من يده:

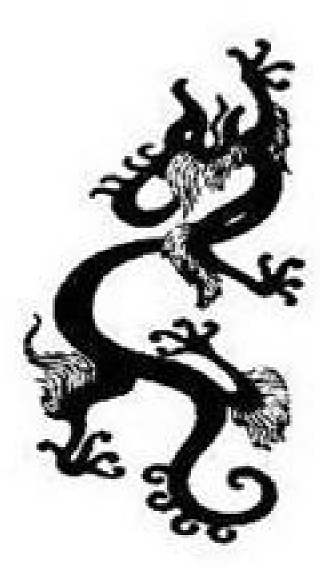
ـ"هذه المقابر مسكونة فعلاً.. مسكونة بالخوف.. مسكونة بالرؤى والظلال.. إما إنني رأيت ما رأيته فعلاً وإما أن هذا الخفير كان على حق عندما اخترع لنفسه رفيقًا.. من المستحيل أن تمضي هنا بضعة ليال من دون أن تجن.. فقط علينا أن نرحل.. الآن.."

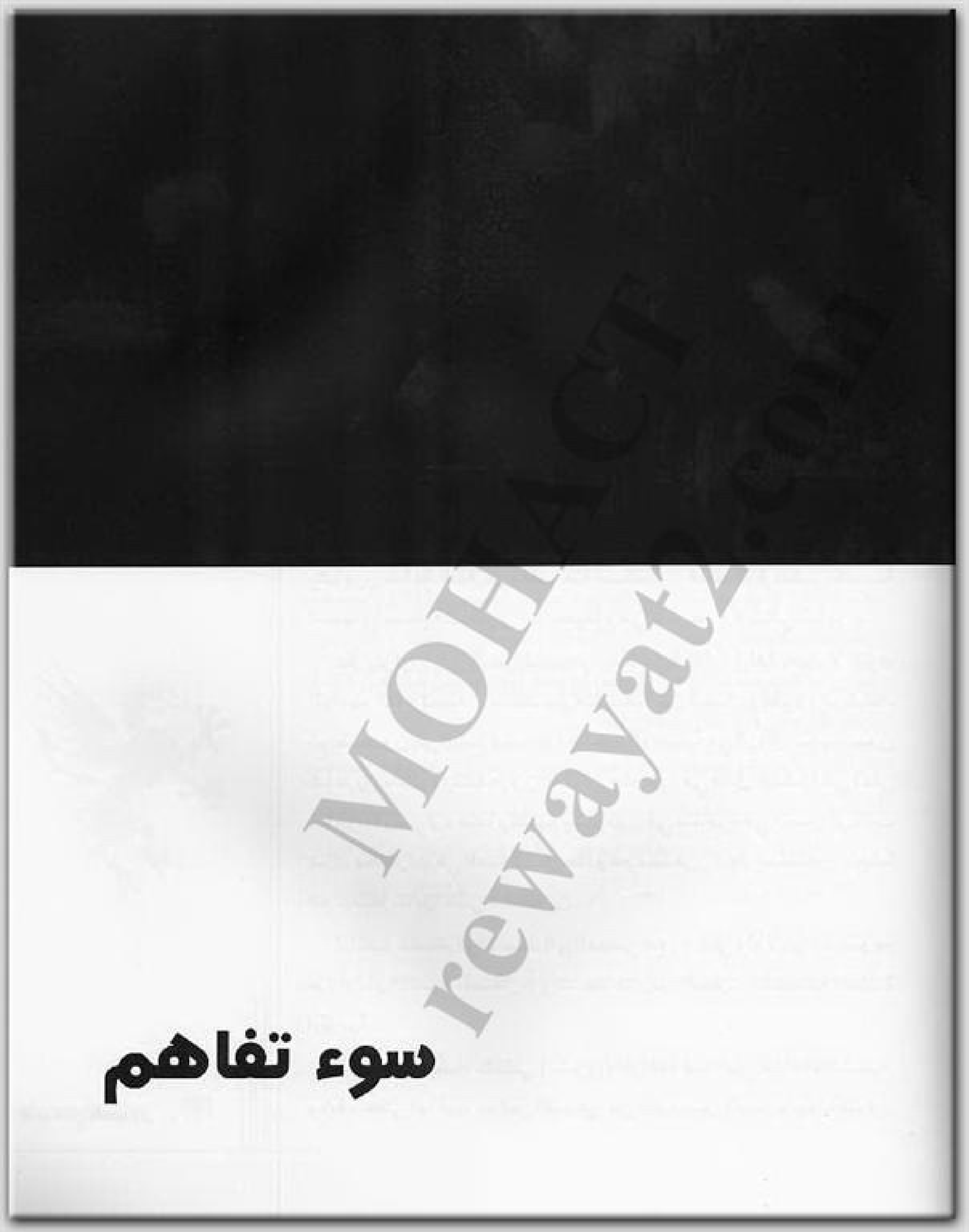
لم يفهم شيئًا وأنا لم أفهم..

فقط اذكر أننا كنا نركض نحو السيارة بينما عواء ابن آوى يتردد من جديد وسط الجبال..

وكان عم (هريدي) يحكي لضيفه الغريب قصة أخرى على وهج النيران.

***





سوء تفاهم

يقع الشاليه المذكور في العجمي.. لا لن أعطي أية تفاصيل أخرى، لكن يمكنك أن تعرف لماذا هو مهجور، ولماذا لا يتحدث عنه السماسرة، ولماذا لا يقيم فيه أحد على الإطلاق ويتحاشون المرور جواره ليلاً..

الحق إنني كنت أرى في كلامهم المليء بالهذيان شيئًا من المنطق، عندما تمر بقربه في الليل وترى الرمال المظلمة بلون الفحم، وترى موج البحر يرتفع لعنان السماء كجبال سود أو عمالقة غضبى.. تسمع الصوت الرهيب لغضبة الطبيعة، وتبصر الشاطئ المظلم الخالي.. ثم الشاليه الكئيب يقف وحده هناك منبوذًا ملعونًا . عندها يمكنك أن تصدق أن هناك شيئًا ما..

كانت الإجازة قد بدأت، وأنا من الناس الذين يمقتون الاصطياف بشدة.. أشعر بأنه عادة بشرية سخيفة يمارسها الناس لأن الناس يمارسونها.. أنظر لعيون الناس الواقفين في الشرفات ساعة العصر خاوية حائرة مليئة بالملل، فأدرك انهم يتوقون للعودة إلى بيوتهم وأنهم يشتهون ساعة الخلاص، لكن هذا مستحيل.. هناك قوة عظمى كاسحة اسمها الاصطياف.. أقوى منا جميعًا وهي لا ترحم ولا تبالي بما نريد..

هم ينزلون إلى البحر ليسبحوا سباحة الكلاب إياها حيث لا تترك أقدامهم القاع لحظة.. أجساد مترهلة خالية من الجمال والقوة والرشاقة، ثم يصعدون إلى الشط ليتمرغوا كالحمر الوحشية في الرمال، ثم يجلسون شاعرين بالملل ويتشاجرون، قبل أن يخرجوا في الليل ليمشوا في أعتى مناطق الأرض ازدحامًا وكأنهم يشاركون في مظاهرة في الصين لو كانت هناك مظاهرات في الصين.. كل هذا وهم مقتنعون أنهم يستمتعون، بينما هم جميعًا جاءوا مثلي مضطرين..

أنا كنت مضطرًا وقد جئت إلى العجمي مع زوجتي وأولادي ومجموعة من أوغاد الأسرة الصغار ، وشرعنا نمارس الطقوس الصيفية المعتادة الكريهة..

عندما جاء المساء كلمتني (نشوى) المراهقة ابنة أخي عن ذلك الشاليه، وكيف حكى لها أحد حراس الشاطئ عن العروسين اللذين وجدا مقتولين

في الصباح.. منذ ذلك الحين لم يسكن أحد ذلك الشاليه، ولم يطلب أحد ذلك..هناك أشياء غريبة تحدث..

الشابان (مراد) و(مصطفى) اللذان يقيمان مع أبويهما في الشاليه المجاور حكيا لي ذات القصة تقريبًا.. إنهما شابان صغيران مهذبان من الطراز الذي يقول (عمو) وأعتقد أنني أرتاح لهما...

عندما جاء مساء اليوم التالي أدركت أن الأمور ليست على ما يرام لأن (نشوى) راحت ترتجف كورقة وأصرت ألا ترى ذلك الشاليه المخيف بأي ثمن، وفي الصباح قالت لي زوجتي إنها لم تنم وإنها نقلت العدوى لأطفال الأسرة كلهم لهذا لم ينم أحد..

قلت لهم في غيظ:

-"الخرافة مهمة في حياتنا وممتعة.. الخرافة تسلينا وتشحذ خيالنا، لكن لا يجب أن تتضخم حتى تحيل حياتنا جحيمًا.. أنتم تعرفون أن هذا كلام فارغ.. لا يوجد مكان في العالم مات فيه شخص ما إلا وراحت هذه الإشاعات تلاحقه، وأنتم تعرفون أنه - بعد ملايين السنين التي مرت بالكون - لا يوجد مكان في الأرض لم يمت فيه شخص ما.. إذن لابد أن يوجد شبح في كل مكان نمشي فيه"

لكن كلامي لم يضف لهم اطمئنانًا، ولم يبد أن (نشوى) سمعتني أصلاً..

جاء المساء ومن جديد بدأت هستيريا الخوف والتوتر.. هكذا اتخذت قرارًا جريئًا ثوريًا.. لقد بحثت في حقيبتي عن الكشاف وطلبت من (نشوى) أن تلحق بي..

حافية القدمين على الرمال الندية راحت تركض ورائي وهي تسأل في قلق:

-"ماذا هنالك يا عمو (محفوظ)؟"

قلت في حزم:



ـ"أسوأ أنواع الخوف هو الخوف الذي لا نعرف سببه ولا مصدره.. لهذا سأدخل الشاليه الذي يفزعك.. لم أقل إنني سأدخل بل سندخل معًا!.. سوف تدركين أنك مخرفة.."

قالت وهي موشكة على الفرار:

ـ"لابد أنك تمزح.. لن أفعل هذا أبدًا..."

قبضت على معصمها بقوة وقلت:

ـ"بل ندخل الآن... إن إصرارك على عدم مواجهة هذا الرعب سوف يفسد إجازتك وإجازتنا.. ستجدين أن هذا مجرد شاليه مهجور.. لا أكثر ولا أقل"

كنا تقريبًا نقف على الباب الآن.. رأيت القفل في مكانه كما توقعت، لكني لم أنس النافذة.. مصراع النافذة رأيته يتراقص مع الريح منذ يومين، وخطر لي أن الحمقى نسوا النافذة مفتوحة.. هذا مدخل لا بأس به لأن الشاليه من طابق واحد..

قلت لها محذرًا:

ـ"هذه النافذة مفتوحة.. هذا يعني أننا يمكن أن نقابل فأرًا أو قطًا أو كلبًا ضالاً أو متسكعًا.. امسكي أعصابك ولا تملئي الدنيا صراخًا، ثم تحكين في كل مكان عن الشبح الذي وجدناه.."

وبشيء من الصعوبة تسلقت على قطع القرميد البارزة، وحشرت جسدي من الفتحة، ثم نظرت لها اطلب منها أن تتسلق ومددت لها يدي.. كانت خفيفة الوزن طبعًا..

كنا الآن نقف في مكان أعتقد أنه غرفة من غرف الشاليه.. خالية تمامًا فلم يتركوا فيها شيئًا من الأثاث، والرائحة كريهة مما يدل على أن نظرية الكلب الضال لا بأس بها..

كانت تقف جواري متلاحقة الأنفاس، ثم هتفت وهي تشهق:

ـ"هناك من يتحرك بالخارج!.. صوت ضحك مكتوم!"



هذا صحيح.. سددت بكفي الكشاف بحيث صار الضوء يتألق بين أناملي كجوهرة حمراء، ورحنا نزحف ببطء خارجين من الغرفة.. اصطدمت في الظلام بمنضدة خشبية تحركت فشعرت أن العالم كله قد انهار...

وهناك وقفنا في الظلام نلهث.. لا صوت.. يبدو أننا كنا واهمين.. ثم أشرت إلى نافذة أخرى تتراقص لتظهر الشاطئ الخالي بالخارج.. هذا هو مصدر الصوت على الأرجح..

فجأة شعرت بها تعتصر ذراعي من جديد.. هذه المرة رأيت بوضوح بقعة نور واهنة شبه فسفورية كأنها عين قط تتحرك في الغرفة المجاورة.. لا شك في هذا..

فجأة دوى صوت ارتطام قوي لا أعرف مصدره وسمعت صوت خشب يتهشم وصرخة مكتومة..

هذه المرة لم أعد أستطيع مواصلة المنطق البارد.. تعالي نغادر هذا المكان المخيف....

الأرض مبتلة هنا ولا أعرف السبب.. لهذا انزلقت قدمي فأصدرت صوت أنين، ثم نهضت وهرعت أجذبها من ساعدها نحو النافذة التي دخلنا منها...

ساعدتها على التسلق للخروج وهي تشهق لكن الذعر أنساها أن تبكي أو تصرخ وسرعان ما سمعتها تسقط في الخارج على الرمال.. تسلقت الحافة بدوري ووثبت..

وسرعان ما كنت أجري خلفها نحو الشاليه الآمن المزدحم الخاص بنا..

لقد كانت ليلة الاثنين ليلة سوداء فعلاً، ويبدو أنني سأبحث عن تفسير لما رأيناه زمنًا طويلاً..

لم ينم أحد.. حتى إن زوجتي بدأت تتكلم عن ضرورة قطع الإجازة

والعودة.. قلت لها إنها جنت كالجميع. يجب أن ننسى الأمر ونمارس حياة طبيعية.. أتوق للعودة فعلاً لكن ليس بسبب أصوات في شاليه مهجور..

مع الصباح اتجهت إلى البحر لابسًا المايوه الخاص بي، وهو يذكرك بمايوهات إسماعيل يس في الأفلام القديمة. هناك بدأت أبلل قدمي توطئة للتوغل بضعة أمتار كالعادة، هنا سمعت الشابين (مراد) و(مصطفى) يناديانني.. كانا قد لبسا المايوه بدورهما وتأهبا لسباحة صباحية قصيرة..

سألني (مراد) وهو يتوغل في الماء أكثر:

- "تبدو مرهقًا يا عمو..."

- "لا أحد ينام جيدًا في المصيف يا بني لو أردت رأيي"

ووثبت مع موجة عالية أولى توشك على أن تعلو حتى تبلغ صدري.

قال (مراد) في شيء من الفخر والخبث الطفولي:

- "إن فكرة هذا الشاليه لم تفارقنا، ولقد قمت مع أخي بمغامرة صغيرة في الظلام... اتجهنا هناك وبحثنا عن مدخل فوجدنا نافذة نسوا أن يغلقوها.. هكذا تسلقنا إلى الداخل.."

هنا تصلبت.. هذا الكلام مهم جدًا.. وماذا حدث؟

أردف الفتى وهو يثب فوق موجة جديدة:

- "دخلنا في الظلام وكان معي كشاف فسفوري صغير.. كشاف من الطراز الذي يثبت في القداحات.. الصين تصنع هذه الأشياء كثيرًا.. كان أخي يحمل زجاجة ماء سقطت منه على الأرض وفرغت.. أفزعنا هذا كثيرًا لأن الأصوات تبدو مجسمة في الظلام. لكننا رأينا في هذه اللحظة شيئًا مرعبًا.. رأينا ضوءًا أحمر كجمرة مشتعلة يتحرك في الظلام..!..."

بدأت ابتسامة تغزو قسمات وجهي، لكني سألته في اهتمام:

- "وماذا بعد؟"

- "كانت هناك منضدة خشبية سمعنا من يرتطم بها.. هنا داس أخي

على لوح سرير خشبي موضوع على الأرض فأن وصرخ لأنه كاد يهشم ساقه.. بعد قليل سمعنا من يقلدنا - على ما يبدو - ويصرخ ألمًا.. كأن هناك من انزلق على الأرض.. "

- "وماذا بعد؟"

- "لا شيء.. لم نتحمل أكثر فبادرنا بالفرار.. هذا الشاليه مسكون ولا شك في ذلك.."

كنت أضحك بلا توقف وهما ينظران لي في دهشة..

لقد لعب كل منا دور الشبح بالنسبة للآخر.. كنت أنا و(نشوى) شبحهما المخيف، وكانا هما شبحنا المرعب.. الماء الذي انسكب على الأرض هما صاحباه.. المنضدة التي تحركت كنت أنا محركها..

الحق أن كلاً منا أثار هلع الآخر لأقصى حد، ولسوف تضحك نشوى كثيرًا عندما أخبرها بهذه القـ... بلوب بلوب بلوب!... لقد نسيت الموج فجاءت موجة عاتية ألقت بي إلى القاع.. احتجت إلى ربع دقيقة حتى أتمكن من الوقوف على قدمي والتنفس ثانية..

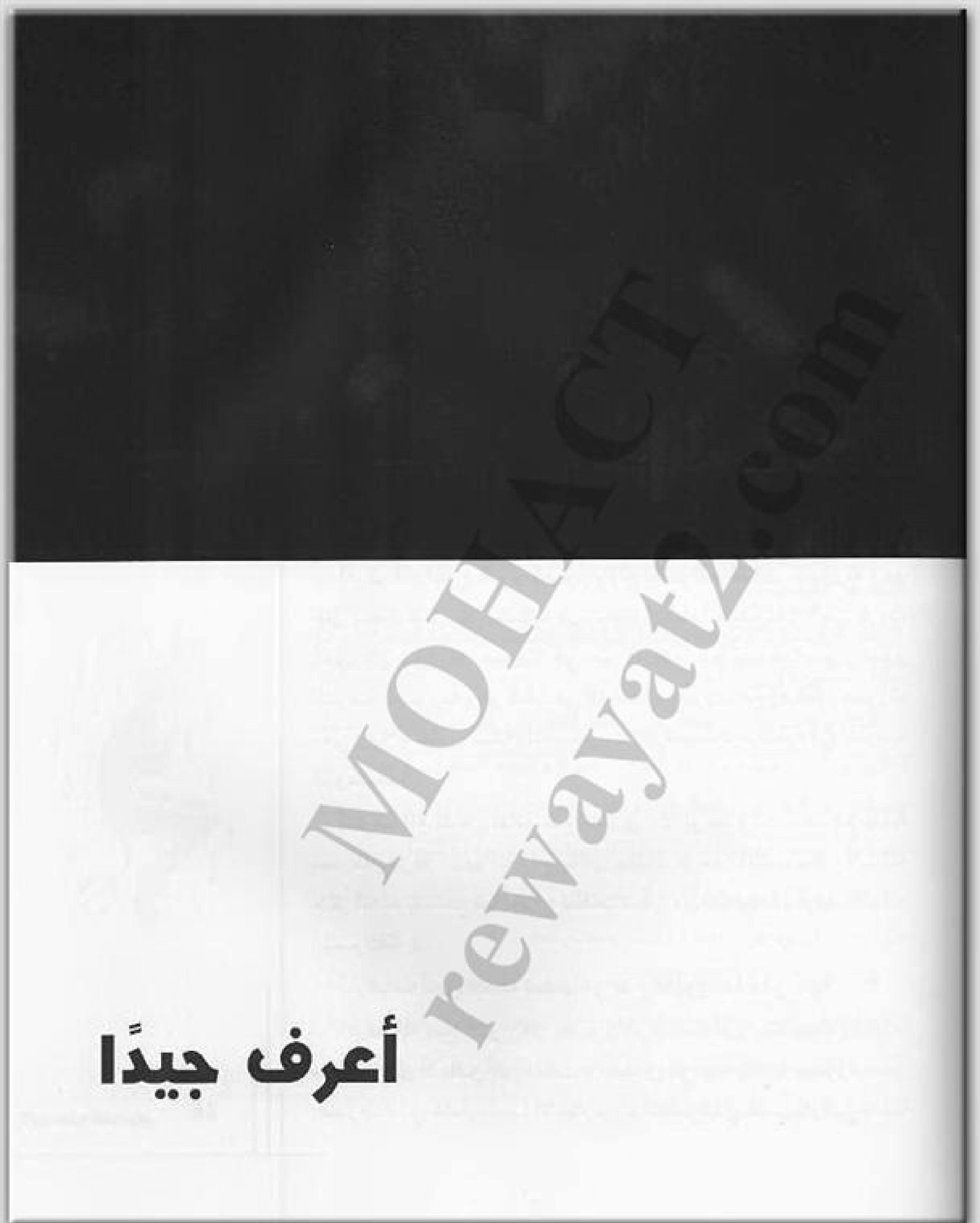
رحت ابصق الماء المالح من فمي وأنفي وقلت لهما:

- "الحقيقة هي أنني دخلت الشاليه في ذات اللحظات.. كنت مع نشوى ابنة أخي، ولم نعرف أنكما موجودان.. كل فريق كان يسمع الضوضاء التي يحدثها الفريق الآخر ويرتجف!.. ليلة أمس الاثنين كانت نموذجًا عبقريًا لكوميديا الموقف.. كوميديا سوء التفاهم المولييرية الأصيلة!"

هنا تبادل الشابان النظرات ثم قال (مصطفى) في تهذيب:

- "عمو.. نحن لم نقل قط إن هذا حدث ليلة أمس الاثنين.. ما نحكي لك عنه حدث منذ ثلاثة أيام!.. خذ الحذر!... إن الموج يوشك على أن يقذف بك ثانية!... ماذا دهاك؟"

***


أعرف جيدًا

أعرف جيدًا أنه أشعل لفافة تبغ وراح ينظر لليل الصامت خارج الشرفة..

أعرف أن ملايين الخواطر تزاحمت في ذهنه وهو يتأمل لفافة التبغ.. الطرف الذي يتوهج ثم يخبو.. يتوهج ثم يخبو.. هذا تأثير قريب من التنويم المغناطيسي..

على الأرجح عاد إلى الغرفة هنا.. أعرف أنه جلس إلى مكتبه وفتح الدرج.. بحث في مجموعة الأوراق حتى وجد واحدة لم يخط عليها.. أعرف أنه بحث بين الأقلام عن واحد يصلح.. هذا جف حبره . هذا تقيأ حبره.. هذا مكسور.. أخيرًا وجد واحدًا وخط على الورقة أول خط..

لابد أنه توقف هنا.. لابد أنه نظر للشرفة.. وجد أنه من السخف أن يكتب كل شيء، والرسالة المعتادة بدت له سخيفة مبتذلة..

لهذا كوم الورقة وألقاها على الأرض..

أعرف أنه أخرج ألبوم الصور وراح يقلب الصفحات.. صورته وهو طفل سعيد غافل، كل مشكلته في الحياة أن أباه لم يبتع له (الآيس كريم) الذي كان يتوق له. صورته في سن المراهقة مع أصدقائه جوار سور المدرسة.. صورته وهو شاب في الجامعة.. صورته مع (هالة).. صورته معي وهو يناقش رسالة الماجستير عن إرهاصات الواقعية في المدرسة الرومانسية..

أعرف أنه أشعل لفافة تبغ أخرى.. لا يوجد وقت كاف للإصابة بسرطان الرئة. لابد أنه راح يتأمل حلقات الدخان المتصاعدة.. لابد أنه تذكر أنه لم يستطع قط إخراج حلقات دخان من فمه مهما حاول.. لابد انه ابتسم للفكرة..

أعرف أنه أنهى اللفافة فدفنها في قدح القهوة.. ما تبقى منها..

أعرف أنه فتح الدرج من جديد وأخرج المسدس، وتحسسه بأنامله. منظر الرجل الجالس إلى المكتب ومسدس في يده يذكره بصورة مدير المصرف الذي أفلس بسبب الاختلاس أو المقامر الذي خسر كل شيء، كما

نراهما في القصص الغربية.. لابد أنه ابتسم للفكرة مرة أخرى..

أعرف يقينًا أنه ألصق الفوهة بصدغه وأنه شعر بالمعدن البارد القاسي هناك يضغط على شريانه.. أعرف أنه تحسس الزناد.. انه أغمض عينه ... انه ضغط الزناد القاسي..

أعرف أنه لا يعرف أي شيء عما حدث بعدها..

أعرف أن الجزء المجهول من رحلته قد بدأ.. هو ليس رحالة من الرواد يبحر إلى بلاد التوابل، بل هو يبحر إلى الأرض التي رحل لها كل بشري من قبل، لكن أحدًا لم يعد ليحكي، وفي هذه اللحظة تفوق علينا في أنه عرف.. فقط لم يعد من حقه أن يعود بمعرفته تلك لعالمنا..

أعرف أنهم اتصلوا بزوجته (هالة) التي اتصلت بي.. كانت تولول في الهاتف فانتزعت منها الكلمات بكثير من العسر.. قالت إن (فوزي) مات.. من المهين لكبرياء الزوجة أن ينتحر زوجها.. لابد من أن يظل حيًا إلى أن تقتله هي بالضغط..

كان أول سؤال قلته هو : (لماذا؟)، لكنها كانت قد وضعت السماعة.. هو سؤال سخيف على كل حال..



هكذا وجدت نفسي هناك في مكتبه أنظر إلى الفوضى التي سببها.. انظر إلى قدح القهوة ولفافة التبغ الأخيرة والبوم الصور.. لابد أن الكل يتساءل عن السبب.. بالفعل لم يترك أي شيء.. لا خطابات ولا تسجيلات صوتية.. ليست زوجته من الطراز الذي يدفع أزواجه للانتحار..

(فوزي) تلميذي وهو أديب لا بأس به ورجل قوي الشخصية.. وليس من الطراز الذي يفر أو هذا ما كنت احسبه عنه..

هناك في المشرحة كانت الجثة ممددة على مائدة من رخام. وكان الفم مفتوحًا وفي العين نظرة خاوية.. الصدغ قد نسف بالكامل. انا رأيت موتى كثيرين لكني لم أتعود المشهد بعد وخاصة لو كنت أعرف القتيل جيدًا .

أسأل الطبيب الذي وقف هناك ينظر لي:

- "هل مات في الحال؟"

- "ماذا تظن؟"

- "ولماذا انتحر؟.. هل يعرف أحد؟"

نظر لي في عدم فهم وقال:

- "تقصد لماذا قتل؟.. هذا ما تريد قوله.. هذه جريمة قتل.. من تحدث عن انتحار هنا؟"

ثم شرح لي السبب.. لم يكن الرجل قابضًا على مسدس.. لم يكن المسدس موجودًا.. لقد تسلل القاتل إلى مكتبه وأرغمه على أن يفتح له الأدراج بحثًا عن شيء ما ثم ثبت فوهة المسدس إلى صدغه وأطلق الرصاص..المنتحرون لا يتخلصون من المسدس بعد انتحارهم .

كنت أنا أنظر إلى الجثة في غباء.. تذكرت أن أحدًا لم يقل حرفًا عن الانتحار.

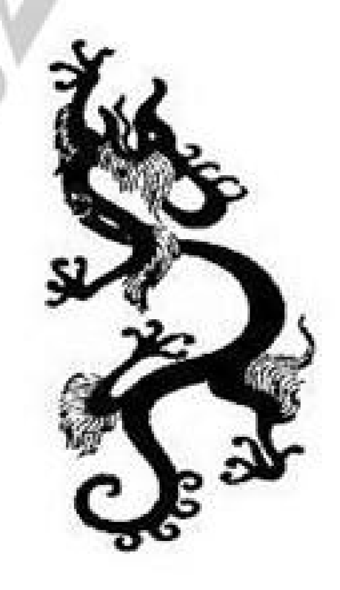
لكني أعرف جيدًا ما حدث..

كأنني كنت هناك.. لقد رأيت كل شيء كاملاً وأنا جالس في منزلي، ولا أملك تفسيرًا سوى العلاقة الروحية القوية بيني وبين (فوزي). ربما هو التخاطر.. ربما هو نوع من إحساس الروح بروح مماثلة . لا أعرف بالضبط..

أعرف جيدًا حالة الاكتئاب التي دهمته مؤخرًا.. أعرف خلافه مع زوجته.. أعرف أن شيئًا لم يعد يثير اهتمامه ولو أنه وجد مليون جنيه لما كلف نفسه بأن يأخذها.. أعرف أنه كف عن القراءة ولم يعد يكتب حرفًا.. لم يعد يمارس عمله وأخذ إجازة لمدة شهرين..

أعرف أنه لم يعد يأكل تقريبًا ، وأن شقته خالية من الطعام باستثناء كيس بلاستيكي فيه بقايا فول ونصف رغيف بال على الموقد..

أعرف أنه يتعاطى علاج الاكتئاب سرًا بلا جدوى تقريبًا.. أعرف أن التلفزيون تالف منذ أشهر فلم يكلف خاطره بإصلاحه..



أعرف أن لديه مسدسًا مرخصًا يملكه منذ الفترة التي تلقى فيها تهديدات بالقتل بسبب خلاف عائلي.. أعرف أن فكرة الموت تروق له بشدة..

أعرف أنه أعطاني مفتاح بيته كي أعمل له اللازم لو حدث له شيء، وأنا سخرت منه وقلت له أن يكف عن هذا السخف..

لكني كنت جالسًا في داري وسط صخب العيال وأمهم، عندما شعرت بذلك الخاطر يتردد في ذهني: "تخلص من المسدس.. لا أريد أن تتلوث سمعتي".. هكذا يتردد بلا انقطاع.. دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب لكن الصوت ظل يتردد : "تخلص من المسدس . أرجوك"

ومع الخاطر كانت مشاهد مما يسميه السينمائيون (فوتومونتاج).. أراه يجلس إلى المكتب.. يحاول كتابة شيء.. يشعل لفافة تبغ...

هكذا عرفت ما حدث..

كانت الحادية عشرة مساء لكني غادرت البيت مسرعًا، وانطلقت بسيارتي إلى بيته.. فتحت الشقة بالمفتاح الذي معي ودخلت متوجسًا.. كان المشهد الذي رأيته فظيعًا.. الدم يلوث كل شيء . من المدهش أن رأسنا يحوي كل هذا الدم.. فرغت من الرجفة والهستيريا وصار علي أن أكون عمليًا.

"تخلص من المسدس.. لا أريد أن تتلوث سمعتي".. هذه هي الرسالة التي تلقيتها . أنا أعرف أنها منه فلا تقنعني بالعكس من فضلك..

هو لا يريد أن يعرف الناس أنه انتحر. هناك غباء في هذا على كل حال، فلو أراد لابتلع بعض أقراص الدواء تاركًا هامشًا من الشك في حدوث خطأ في الجرعة، أو سقط من الشرفة.. كل الساقطين من الشرفات يتركون علامات استفهام تتراوح بين الحادث والانتحار والقتل..

على كل حال انتزعت المسدس من يده ودسسته في جيبي.. فتحت كل الأدراج في مكتبه بعد ما لففت يدي في منديل.. لا أعتقد إنني لمست أشياء كثيرة، لكن من المتوقع أن تكون بصماتي هنا على كل حال.. أنا الوحيد الذي يزوره...

هل يجرون اختبار (المولاج) هنا في مصر؟.. هذا الاختبار يمكنه أن يعرف إن كان هو الذي أطلق الرصاص أم لا، من أثر النترات على أصابعه.. لو فعلوا لكان ما أقوم به بلا جدوى، لكن لا يوجد حل آخر..

غادرت الشقة مستريح النفس نوعًا. الانتحار يلقي أسئلة كثيرة ويلوث سمعة الشخص ومن حوله، وهو لم يرد ذلك . بينما القتل يجعلك ضحية يتعاطف معها الجميع.

ما فعلته سوف يحير الشرطة بعض الوقت، ورجالها يبحثون عن القاتل الذي تسلل إلى شقة الأديب الوحيد ليقتله ويفر، لكن هل كان بوسعي أن أرفض آخر طلب من (فوزي)؟

ابتعدت بضعة كيلومترات بسيارتي، ثم غادرتها وتخلصت من المسدس في مقلب قمامة..

هكذا صرت في داري عندما جاءت مكالمة (هالة) الباكية..

أعرف جيدًا أن (فوزي) راض عني... أنا قمت بتبرئته من جريمة قتل.. قتل النفس.. لا أعتقد أنه من المفيد أن يعرف الناس أنه انتحر..

"شكرًا".. العبارة تتردد في ذهني طيلة الوقت.. من الذي يشكرني سواه؟

عندما دق جرس الباب بعد يومين فتحته لأجد النقيب (فلان) والرائد (فلان) يقفان واجمي الوجه.. نريدك بعض الوقت عندنا يا دكتور (محفوظ)..

ماذا هنالك؟.. هل من شيء جديد؟

هناك في مديرية الأمن يخرج لي أحد رجال الشرطة مسدسًا في كيس بلاستيكي ويقول لي:

- "هل تعرف هذا؟"

ويقول آخر:

- "أحد جيران (فوزي) رآك تدخل البناية في وقت يتناسب تمامًا مع

وقت الجريمة.. كان هو في بئر السلم في الظلام فلم تره.. المدام تقول إنك خرجت في ذلك الوقت تقريبًا ولا تعرف إلى أين.. بعد هذا رأى أحد المخبرين أثناء عودته لداره سيارة فيات بيضاء تتوقف قرب مقلب قمامة وسائقها يتخلص من شيء ما.. الحقيقة أن سيارتك فيات بيضاء.. لقد تأكدنا من هذا.. دعك من أن وصفه لراكب السيارة ينطبق عليك بدقة.. الشيء الذي تخلص منه راكب السيارة هو هذا المسدس.."

ويقول ثالث:

-"أنت الوحيد الذي يملك مفتاح شقة (فوزي) وكان بوسعك الدخول والخروج متى شئت..سوف نفحص البصمات على هذا المسدس وإن كنت أعتقد أنها بصماتك.."

ويقول رابع:

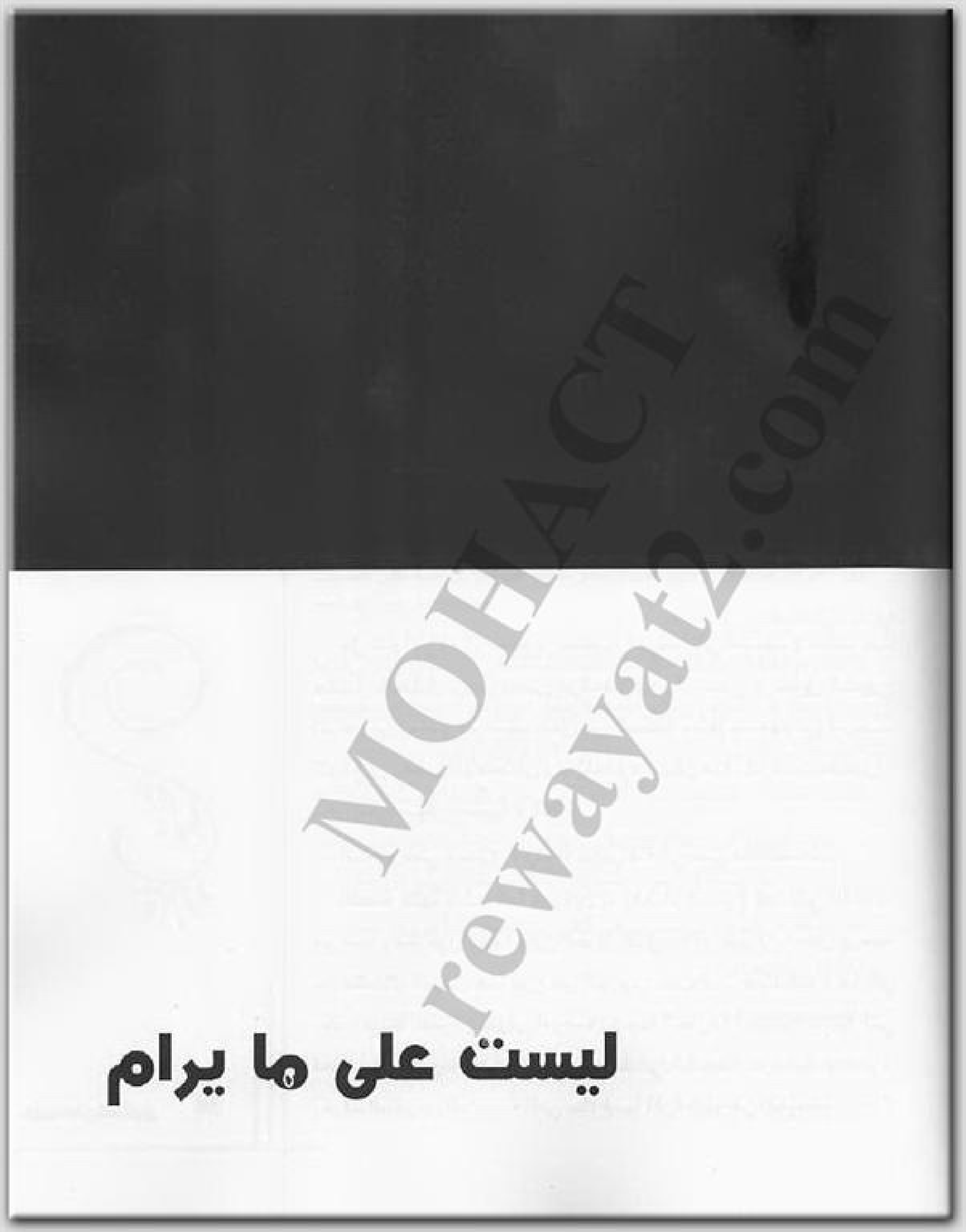
-"فقط نريد أن نعرف لماذا فعلت ذلك يا دكتور؟.. كان الفقيد يحبك ويعتبرك أباه!"

أعرف جيدًا..

أعرف أن الموقف عسير.. سوف أحتاج إلى وقت طويل لأقنع هؤلاء السادة أنني قمت بتحويل الانتحار إلى جريمة قتل من أجل ذكرى تلميذي . سوف أحتاج إلى وقت طويل حتى أقنعهم بموضوع التخاطر والعبارات التي تتردد في الذهن.

أعرف جيدًا أنني في أمس الحاجة إلى اختبار المولاج الآن.. هو الاختبار الوحيد الذي يمكنه أن يثبت أن (فوزي) هو الذي أطلق النار لا أنا.. وحياة والدك.. هل تعرف إن كان هذا الاختبار يجرى في مصر أم لا؟

***



ليست على ما يرام

لا تلوميني من فضلك..

أنا لست ساحرًا ولا عرافًا ولم يتهمني أحد بالعبقرية من قبل. أنا رجل مسن رأى الكثير من الأمور الغريبة، لكنه لم يتعلم قط كيف يتنبأ بما هو آت..

هل هذه أقراص مهدئة؟.. إذن أعطيني قرصًا.. لا.. فليكن قرصين.. إن يدي ترتجف.. أعرف هذا لكني لست من الطراز الهستيري الذي تتبدل حياته بالكامل من أجل حادث مروع كهذا.. أنا أعرف نفسي.. سوف أستعيد السيطرة بعد أيام.. لا لن أعاقر الخمر و أتعاطى المخدرات لو كنت تخشين هذا، فأنا لم أجرب هذه الأشياء طيلة حياتي ولن أجربها وأنا أعبث بمفتاح باب مقبرتي..

ربما أنا لست أحمق لهذا الحد.. على الأقل أنا اقترحت عليه العكس. كنت أتكلم بالطبع من الناحية الاجتماعية.. من ناحية العرف.. لكن لا تنكري أنني نصحت..

هل نام الأولاد؟.. جميل.. جميل.. أعرف أنني أضيف لأعبائك عبئًا جديدًا بالعناية برجل مسن يرتجف ذعرًا.. نحن لا نطيق الشيوخ المذعورين، ونفترض أنهم بلغوا من الحكمة مبلغًا يمنعهم من الرعب.. نتوقع أن يعطونا الاطمئنان ولا يأخذوه.. ليكن هذا.. أنا لست مذعورًا.. لنقل إنني منهار عصبيًا لا أكثر..

أنت زوجتي وسري ورفيقة دربي فاقبلي مني هذا الضعف..

القصة كلها بدأت كما تعرفين بـ (هشام الديب) صديقي القديم.. هو محام مشغول دومًا ومن الطراز الذي اعتاد على أن العمل يرحمه من مشاكل البيت.. هذا نوع من الهروب معروف.. طيلة اليوم هو في مكتبه بينما الفتاتان تتولى أمرهما زوجته الحازمة النشطة الذكية التي تعرف كل شيء.. لا أعتقد أنه يعرف في أية سنة دراسية هما، ولا يعرف الطقوس الغامضة التي يبتاع بها المرء كيلو من الطماطم..

توفيت الزوجة أخيرًا لتضعه أمام مسئولياته.. هذا مأزق عسير.. الفتاتان في سن المراهقة ولا يمكن أن يتركهما للعناية بنفسيهما . البيت كبير فعلاً عبارة عن فيلا ذات طابقين يحسده عليها كثيرون، لكنه اليوم لا يشعر بأي فخر بها.. يشعر أنها ورطة ذات طابقين..

هنا جاء أولاد الحلال باقتراح.. (عواطف) سيدة بيت محترمة في الخامسة والأربعين من عمرها لم تتزوج قط، ولسوف يكون دورها مناسبًا.. الفتاتان تحتاجان إلى أم فقط، أما هو فآلة ضخ أموال.. يمكن الاستغناء عنه بسهولة لو كانت آلات طبع العملة متاحة للبيع..

كان رأيي الخاص أن لا.. زوجة الأب هي زوجة الأب.. يا أخي لماذا لا تتحمل؟.. يمكن أن تأتي لهما بمربية أو مديرة بيت..

لكن الرجل لم يجد حلاً آخر.. وسرعان ما تزوج..

هل الغرفة مغلقة؟.. إذن لماذا أشعر بتيار هواء؟.. ربما كان السبب هو توتر أعصابي.. لا عليك..

كانت (عواطف) طيبة فعلاً.. ليست جميلة على الإطلاق وليس فيها أي شيء يحرك مشاعر رجل، لكنها بالفعل من أسرة محترمة، وخطر لي أنها يمكن بالفعل أن تلعب دور الأم.. لا زوجة الأم..

كانت نشطة.. صحيح أنها تفتقر إلى حزم الأم الأصلية لكن لا بأس.. وقد قدرت أن حياة صديقي (هشام) استقرت نوعًا.. يمكنه العودة للهرب من مشاكل البيت متظاهرًا بأنه منهمك إلى هذا الحد..

نعم.. بالفعل أشعر بتحسن.. هل القرص المهدئ بدأ يؤدي عمله؟... ربما أنا أقرب للنعاس..

ماذا كنت أقول؟..

آه.. بدأت المشكلة مع الزينوجلوسيا.. نحن نعرف هذه الظاهرة لكننا لا نعرف أنها زينوجلوسيا..



في البدء كانت الفتاة الكبرى (مروة) تقف مع زوجة أبيها في المطبخ.. (مروة) في السنة الثالثة الإعدادية وجميلة كالحوريات في الصور. كانت السيدة تعلمها كيف تطهو حساء الخضر.. كانت تشرح لها:

ـ "عندما ينفصل السمن عن الصلصة فهذا معناه (التسبيك).. عندها فقط يمكنك أن تضيفي الخـ.. رادتسك كولين ها.. راسكونا شفا..."

على الأقل هذا ما نقلته (مروة) لأبيها.. تقول إن زوجته ظلت لخمس دقائق تقول كلمات لا معنى لها على الإطلاق... والغريب أنها كانت تومئ بيدها وتكلم الفتاة وتشير للطعام كأن الفتاة يجب أن تفهم هذا. وعندما انتهت عادت تتكلم بالعربية..

ـ "لم كنت تتكلمين هكذا يا طانط (عواطف)؟"

قالت السيدة:

ـ "أولاً طلبت منك ألا تناديني إلا بلقب (ماما).. ثانيًا من قال إنني قلت أي شيء غريب؟.. كنت أشرح لك أننا سنضيف الخضر الآن.."

مر الحادث بلا تعليق . لكنه تكرر بعد يومين عندما كانت المرأة جالسة مع زوجها تحكي له عن مشاكل مع خالتها.. هنا بدأت تتكلم لعشر دقائق بتلك اللغة الغريبة. الزوج ظل يرمقها في دهشة ثم راح يهزها كي تتوقف لكنها ظلت تتكلم كأنها تشرح له أشياء..

أنت تعرفين ما حدث بعدها.. الدائرة التقليدية من الأطباء النفسيين والمشعوذين والمعالجين الروحانيين.. لا تفسير لهذا سوى المس الشيطاني.. لابد أن جنيًا أجنبيًا مسها وجعلها تتكلم بلغته..

لابد أن الرجل قضى أسود ساعات حياته وهو يعالجها، ولابد أنه سأل نفسه مرارًا عما جعله يأتي بهذه المصيبة لبيته وهو الذي لم يكن يطيق اصطحاب زوجته الأولى لطبيب الأسنان..



لكن المرأة لم تشف..

ازدادت الحالة تعقيدًا، والغريب أن نوبات الكلام بتلك اللغة الغريبة كانت تقترن بشيء من العنف والشراسة بدا واضحًا في أكثر من مرة، حتى أنها لطمت ابنته على خدها مرة.. كانت تتنمر وتبدو كأنها ملكة تصدر أوامرها للعبيد..

أنت سمعت هذا وضحكت وقلت لي:

ـ "لابد أن عفريت كليوباترا قد تقمصها!"

على أن صديقي الطبيب النفسي د. (مصطفى) لم يضحك.. قال إنها حالة هستيريا واضحة وهي ذات الحالات التي يتهمون مس الجان بها. على أنه زارها عدة مرات وأصغى لكلامها فكان رأيه أنها تتكلم لغة واضحة متماسكة التركيب والكلمات.. لكن كيف؟؟.. المرأة لم تترك بيت أهلها قط.. لم تسافر ولم تتعلم جيدًا، وهي لا تعرف من الإنجليزية سوى عشر كلمات..

قال د. مصطفى:

ـ "الأمر غريب.. هناك حالات موثقة في التاريخ وتشبه هذه الحالة.. لم يتم توثيقها علميًا إلا بمعرفة البروفسور (أيان ستيفنسون) العالم النفسي لكن تم هذا بمعرفة مؤرخين.. الحالة اسمها (زينوجلوسيا) وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفًا منها من قبل.. فجأة تفاجأ بابنك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة.. هناك أمثلة دينية لهذا والغربيون يطلقون عليها اسم (الكلام بالألسنة).."

قلت في دهشة:

ـ "لكن هذا بالضبط ما يقوله المشعوذون عن مس الجان.."

ـ "وما يقوله الهندوس عن التناسخ.. يقولون إن هذا دليل على أنك كنت برتغاليًا مثلاً في حياة أخرى وما زلت تذكر اللغة.."

ـ "لكن التناسخ كلام فارغ.."

ـ "طبعًا.. لكن ما أقل ما نعرفه عن العقل البشري.. رأيي أن زوجة صديقك هذه تمر بحالة زينوجلوسيا واضحة.. والمطلوب أن تحضر لي أي شريط يحوي تسجيلا من كلامها.."

وعدته بأن أحضر له هذا الشريط، وكان الأمر سهلاً لأن الفتاتين بنتي (هشام) قامتا بتسجيل إحدى هذه النوبات على شريط فيديو. عدت بهذا الشريط لد. (مصطفى) فقام بتحويل الفيلم إلى صيغة مناسبة للكمبيوتر. لا أفهم هذه الأمور لكنه يتعامل مع الكمبيوتر ببراعة تامة.. لقد وضع هذا الفيلم على شبكة الإنترنت ثم أرسل سيلاً من الخطابات لعشرات الدول يطلب فيها من يعرف هذه اللغة.. في الماضي كنت تحتاجين لأن تزوري هيئة الأمم المتحدة أو برج بابل لتعرفي الإجابة .

هل هناك من يتحرك؟.. لا.. إنه الباب ينغلق.. لا مشكلة . . .

في هذا الوقت قرر (هشام) السفر للإسكندرية وحده لمدة أسبوع فطلب مني أن أعنى بالبنتين.. قال لي بصراحة إنه يفكر في الطلاق جديًا لأن زوجته تزداد سوءًا.. عصبية.. لا تكف عن وضع المساحيق والكريم على وجهها لأن هاجس التقدم في السن يطاردها.. أحيانًا تضرب البنات.. لقد شاء الحظ أن يختار لبنتيه زوجة أب مجنونة وعليه أن يصحح الخطأ..

قال إن علي أن أتصل بالبنتين وأمر على البيت يوميًا وسوف ينهي كل شيء لدى العودة..

هكذا رحت أتردد على الفيلا فأدق الجرس.. تفتح لي الخادمة الشابة وتنادي البنتين لأطمئن عليهما من على الباب ثم أنصرف.. أحيانًا أبتاع لهما بعض الحلوى أو المجلات.. مسكينتان.. ليس أسوأ من زوجة الأب القاسية سوى زوجة الأب المجنونة..

كنت في داري في ذلك الصباح عندما اتصل بي د. مصطفى.. قال إنه يرغب في أن يأتي لي بعض الوقت..

عندما جاء كان يفكر بعمق.. جلس وأخرج مفكرة من جيبه وقال وهو يقلب صفحاتها:

-"جاءني الرد من صديق أوروبي.. هذه اللغة رومانية.. لا شك في هذا.. لغة رومانية من وسط البلاد (منطقة الكاربات) لا غبار عليها.. طبعًا هذا يؤكد كلامي عن الزينوجلوسيا.."

-"جميل.. وماذا تقول؟"

-"تتكلم عن أنها من أسرة عريقة وأنها ولدت عام 1560.. جدها كان يحارب الأتراك!"

-"يبدو إننا دخلنا في خانة تقمص الأرواح فعلاً.."

-"لا أعرف لماذا تختار الأرواح الرومانية زوجة مصرية هدفًا لكن السؤال كان يتكرر في كل حالة زينوجلوسيا.. تذكر المرأة كذلك اسمي (نادسادي) و(دوركا) بلا سبب.."

-"ومعنى هذا؟"

-"الروماني الذي رد علي لا يذكر . . . أما أنا فأجريت بحثًا مدققًا عبر شبكة الإنترنت عن هذين الاسمين.. وجدتهما فأضفت للبحث ألفاظ (كاربات) و(1560) و(حرب الأتراك).. فوجدت اسم (باثوري) يتكرر بكثرة.."

-"ومن هو؟"

راح يتصفح الأوراق ثم قال:

-"هي لا هو.. الكونتيسة الرومانية (اليزابث باثوري).. فتاة من أسرة عريقة حارب جدها الأتراك مع (فلاد الوالاشي).. ولدت عام 1560 وتزوجت من الكونت (نادسادي) وأقامت في قلعة بالكاربات. زوجها كان يسافر كثيرًا



جدًا لذا قررت هي أن تتسلى بتعلم السحر من خادمة عجوز اسمها (دوركا). كانت سادية مريضة نفسيا تهوى تعذيب الخادمات وجلدهن، وزادت قسوتها بعد وفاة زوجها.. وكانت فكرة الشيخوخة تؤرقها لأن جمالها كان صارخًا.. ثم وجدت الحل عندما صفعت خادمة شابة لديها فسال الدم ليغرق يدها هي.. بدا لها أن بشرتها استعادت شبابها بفعل دم الخادمة، وهكذا قامت مع الخادمة العجوز بتعليق الخادمة الشابة وقطع وريد عنقها، ثم استصفت دمها واستحمت فيه.. منذ ذلك الحين صارت تعلق الخادمات من أقدامهن وتستصفي دمهن لتكرر الشيء ذاته، وكان فرسانها يخطفون الريفيات من القرى المجاورة، ثم بدأت تفعل الشيء ذاته مع النبيلات.. سرعان ما بلغت سمعتها مسمع ملك رومانيا الذي أرسل جيشًا لاقتحام القلعة وتفتيشها.. حسن.. كان ما رآه هو مشهد من فيلم رعب شنيع.. لقد ثبت أنها قتلت نحو 560 فتاة . حوكمت لكنها لم تعدم لنبل أسرتها وسجنت لعدة أعوام ثم ماتت في الخامسة والأربعين تقريبًا ميتة طبيعية.. إنها مصدر معظم قصص مصاصي الدماء التي نعرفها، ربما أكثر من (فلاد الوالاشي) نفسه الذي اشتهر باسم (دراكيولا)..”

قلت له مشمئزًا:

- ”قصة فظيعة.. لكن ماذا تحاول قوله؟“

قال وهو ينهض :

- ”لا شـيء.. فقط أعرض بعض الحقائق.. زوجة صديقك تجيد الرومانية فجأة وتتكلم كملكة وتقلق على بشرتها وتردد كلمات غريبة.. فقط كن حذرًا..“

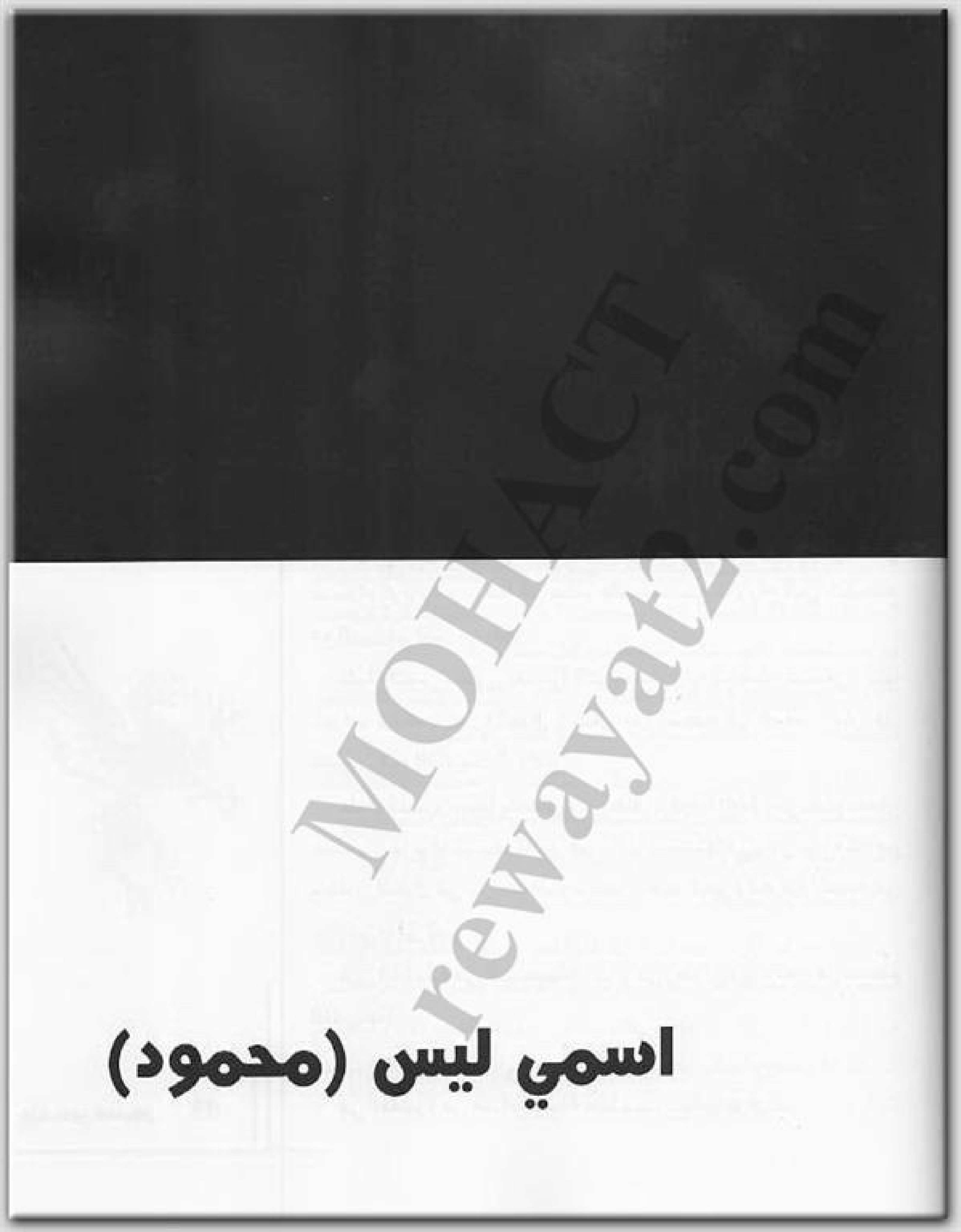
بالفعل قررت أن أكون حذرًا..

عندما ذهبت إلى فيلا هشام في موعدي اليومي كنت حذرًا.. عندما لم تفتح لي الخادمة الباب كنت حذرًا.. عندما اتصلت بالهاتف عدة مرات كنت حذرًا..

حتى عندما عدت مع رجال الشرطة كنت حذرًا.. لكننا أدركنا أن الفيلا خالية.. أخيرًا نزلنا إلى القبو.. (عواطف) كانت جالسة على الأرض ذاهلة.. لا تعرف كيف حدث هذا ولا من فعله وكانت تتكلم بالرومانية بلا توقف.. رأينا الخطاطيف المعلقة في السقف.. ورأينا ذلك البانيو القديم الذي تم وضعه هناك ليتم ملؤه.. وعندما رأينا ما يتدلى من الخطاطيف عرفت لماذا لم أر الخادمة ولا الفتاتين في ذلك اليوم، وعرفت أن د. مصطفى عبقري..

ناولني قرصًا مهدئًا آخر . أعرف أن ثلاثة أقراص جرعة عالية لمن كان في سني، لكن من يبالي بجرعات الأدوية اليوم؟!





اسمي ليس (محمود)

هناك ذكريات معينة تمتاز بشيء مهم هو أنك لم تعشها قط!

من ينكر هذا؟..

لكم من لحن سمعته وشعرت بأنك سمعته من قبل في مكان ما في زمن ما.. هاتان العينان العميقتان اللتان تخترقان أعماقك.. ألم تعشقهما في زمن ما في مكان ما؟.. ألم تمنحاك شيئًا رائعًا أجمل ما فيه أنك لا تذكر حرفًا عنه ؟... وتلك الرائحة؟.. شممتها في بستان ما في زمن ما وأنت تمشي مع شخص ما.. والأجمل هو أنك لا تعرف أي شيء عن هذا الشخص ولا الزمن..

ثمة كيمياء غامضة تلهو بنا طيلة الوقت..

البعض قال إن هذا دليل على أننا وجدنا في شخصيات أخرى في زمن آخر.. ربما كنت أنت بالأمس راهبًا يحرق البخور في معبد من معابد (الماهايانا) على قمم التبت، أو كنت هنديًا أحمر يرقص حول النار في صحراء كولورادو.. هذا هو صلب عقيدة تناسخ الأرواح التي تصطدم مع الدين في أكثر من نقطة..

علماء النفس يعطون تفسيرًا أكثر تعقيدًا.. إنه الوجدان الجمعي.. إنها خبرات تراكمت عبر الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف.. لكن هل تتضمن هذه الذكريات الروائح؟

علماء الفسيولوجيا يتحدثون عن ظاهرة Déjà vu التي تقنع نصف عقلك بأن ما يراه النصف الآخر هو ذكريات عشتها في زمن ما.. هكذا هم يدفنون الخيال في بئر عميقة، ويرجعون هذه الحيرة الكونية المحببة إلى خلل في تدفق الدم..

ترى أية إجابة هي الصحيحة؟.. ترى من يعلم؟.. ويوم نعلم هل سنعلم أننا علمنا؟..

***

في العاشرة من مساء الجمعة تشاجرت مع أم العيال..

أنت تعرفني جيدًا فلا يجب ان تثير هذه الأمور قلقك.. قالوا إن هذه الأمور هي الملح الذي يعطي للزواج نكهة وأنا أؤمن بهذا.. فقط لا أعرف سبب كون زواجي مالحًا لهذه الدرجة التي تجعل رأسي على وشك الانفجار من فرط ارتفاع ضغط الدم..

دخلت غرفة مكتبي وأغلقتها على نفسي.. أشعلت لفافة تبغ وبدأت أضع المشاريع المتحمسة التي أعرف - قبل أي واحد آخر - أنها خيالية طفولية.. في العاشرة والربع قررت أن أقتل زوجتي.. سأحضر السكين من المطبخ وأطعنها عدة طعنات، وككل القتلة أضعها في طشت تحت الفراش - لا أعرف لماذا يفعلون ذلك لكنه شيء إجباري - واجلس على المقهى بانتظار قدوم الرائد (فلان) والعقيد (علان)... ولسوف أظهر على صفحة الحوادث في الأهرام زائغ العينين أقول للصحفي: اصل الشيطان وَزّني يابيه..

في العاشرة والنصف فكرت في الطلاق وبدأت أحسب النفقة ومؤخر الصداق، والعقد النفسية التي ستصيب العيال.. فتحت المفكرة لأحسب فوجدتها مليئة بالحسابات السابقة من ألف مشاجرة..

في الحادية عشرة إلا الثلث استقر رأيي على أن أغادر البيت على سبيل الاحتجاج.. بضع ساعات ثم أعود.. هذا هو القرار الأصوب...

هكذا غادرت البيت من دون سلام ولا كلام.. وتعمدت أن أغلق الباب بعنف، لكني سمعت صوت (سعاد حسني) الرخيم قادمًا من التلفزيون يغني كلمات (صلاح جاهين) اللاذعة: بابا زمانه راجع.. يعني حيروح فين؟

مصادفة غريبة فعلاً!

الليلة سوف أثور.. سوف أرتاد المواخير وأرافق أبناء الليل وأعاقر الخمور.. سوف تعرفني شوارع المدينة المنهكة، وسوف يحفر اسمي في ذاكرة كل امرأة قابلتها في تلك الليلة.. سوف ينصح الآباء أطفالهم ألا يكبروا ليصيروا مثلي.. الكلاب المسعورة التي تنبح في الأزقة سوف تتوارى رعبًا عندما ترى ظلي.. سوف..



وبالطبع لم أفعل شيئًا من هذا، لأني لا أعرف مكان ماخور واحد، ولم أذق قطرة خمر في حياتي..

هكذا حملتني قدماي إلى المكان الوحيد الذي يصلح كمغامرة لي: محطة السكة الحديد.. سوف أقضي الليل على مقعد هنا وألعن نفسي على أنني لم أذبح القط لزوجتي ليلة الزفاف..

جلست على المحطة وسط أشباح القطارات التي نامت أخيرًا بعد عناء يوم طويل من الركض بين القاهرة والإسكندرية والمنصورة و.. و.... كان الطقس باردًا بحق وبدت لي فكرة قضاء الليل هنا عسيرة فعلاً.. لكني كنت أواجه آخر تحد مع نفسي الناعسة الخاملة.. أقصى انتقام استطعت تنفيذه هو أن أجلس على محطة القطار بضع ساعات، فإن لم أفعل هذا فأي نفع لي؟

في الواحدة صباحًا رأيتها..

كانت تمشي في تؤدة على رصيف القطار.. ترتدي معطفًا جلديًا طويلاً سابغًا وتضع يديها في جيبيها، كأنها تقلد مصاصي الدماء (البانك) في أفلام الرعب الحديثة.. تمشي مطرقة.. لا صوت سوى صوت كعبي حذاءيها.. الحق إن شيئًا في مظهرها ومشيتها كان خلابًا بشكل لا يصدق، لكنه في الآن ذاته رهيب يبعث نوعًا من التوجس.. فتاة وحيدة على محطة القطار بعد منتصف الليل لا تبعث الراحة في النفس.. لو لم تخرج لفافة تبغ وتعرض علي ليلة مقابل مائتي جنيه (يا ادلعدي)، فإنها ستكشر عن أنيابها ويبرز لها جناحا وطواط، وأكتشف أن عينيها مشقوقتان بالطول أو أن لها حافر ماعز..

فجأة دنت مني فتوترت.. كنت على وشك الصراخ..

رأيتها تحملق في وجهي بعض الوقت.. توترت كثيرًا . لكنها قالتْ في حماس:

ـ "(محمود)..!.."

نظرت لها في عدم فهم، فقالت:



- "ألا تذكرني؟.. مستحيل أن يكون الزمن قد غيرك إلى هذا الحد.. أنا (داليا)"

هززت رأسي في غباء، فقالت:

- "تذكر.. المنيل.. منذ عشر سنوات.. (وليد الخضري).. إنه أخي.."

ثم جلست في بساطة جواري.. أنيقة جدًا فاخرة جدًا.. لا يمكن أن تكون لصًا أو ما هو أسوأ.. لكن يجب ألا ننسى الحقيقة: أنا لم أرها من قبل قط..

- "معذرة.. أنا لا أذكر فعلاً.. ثم إن اسمي ليس...."

- "فكر.. فكر قليلاً.."

ثم تذكرتُ السؤال المهم الذي يفسر كل شيء:

- "ماذا تفعلين هنا؟... لا توجد قطارات.. أنا موجود هنا لأنني مجنون فماذا عنك؟"

قالت باسمة:

- "الأمر شبيه بهذا.. لا توجد قطارات، لكني كذلك لا أنوي أن أجازف بركوب (ميكروباص) أو سيارة (بيجو) في هذه الساعة.. أعتقد أنني سأبقى هنا في المحطة حتى موعد أول قطار"

لم تطلب نقودًا للعودة لبلدتها على الأقل.. هذه نقطة مهمة.. ثم أردفتْ وهي ترى غبائي:

- "قلت لي يومها إنك تجرب للمرة الأولى أن تتجرأ.. قلت إنه لا وقت للألعاب السخيفة والتظاهر بعدم الاهتمام لأن هذه آخر فرصة لك للسعادة.. عرضت علي أن أخرج معك في نزهة نيلية.. هل نسيت هذا كله؟"

هززت رأسي.. مستحيل أن تخرج هذه الكلمات من شخص متحفظ مثلي.. الأمر مؤكد.. إما إنها مخبولة أو هي قاعدة (يخلق من الشبه اربعين).. ثم إن اسمي ليس (محمود)..

قالت كالحالمة:

- "هناك والنيل يهز القارب لمست يدي وبحث لي بسرك.. سرك الذي سأظل أذكره للأبد.. هل ما زلت لا تذكر؟.. الهرم ونزلة السمان.. حديقة الأورمان عندما كانت آدمية.. ثم الإسكندرية و...."

كنت أشعر بحيرة لا مثيل لها، وهززت رأسي من جديد وهمست في ضعف:

- " إن اسمي ليس (محـ...."

قالت وعيناها تلمعان في حماس:

- "صه.. لا تفسد اللحظة.. هل تفهم معنى هذا؟.. مكان ناء كهذا وفي ساعات الفجر الأولى يلتقي حبيبان بعد كل هذه الأعوام.. هل يمكنك تفسير هذا بقوانين الصدفة؟.. لقد أراد الله أن تعود قصتنا.. أراد الله أن يجمعنا بعد كل هذه السنين.. وقد يجمع الله الشتيتين بعدما . يظنان كل الظن ألا تلاقيا.."

ثم صمتت وراح صدرها يعلو ويهبط..

كنت أنقب في سجلات ذكرياتي ومخازنها...

بالفعل أذكر أنه في زمن ما في مكان ما كانت لي قصة مع فتاة كهذه.. بل هي نفسها.. هاتان العينان الثاقبتان الصريحتان الدافئتان.. تلك الأنامل الطويلة التي تشي بحساسية غير مسبوقة..

لم يكن اسمها (داليا) بل (ليلى).. أعتقد هذا.. لعل الذاكرة خانتني فعلاً...

فقط لو يذوب كل هذا الثلج من على تضاريس ذاكرتي.. لو يسقط هذا الصدأ..

يا لها من ليلة تلك التي تبدأ بالشجار مع زوجتي، وتنتهي في محطة القطار مع فتاة تذكرك بشخص ما.. !!

(ليلى).. هناك ذكرى عن محطة مترو الأنفاق.. يبدو أن المترو تعطل

بين محطتين.. كانت هناك وسط الزحام تنظر لي بلا انقطاع.. لماذا أنا بالذات؟.. منذ عشر سنوات لم أكن شابًا أو جميلاً. بعد سن الثلاثين لا يعود هناك فارق واضح بين الأربعين والخمسين والستين.. رجل في منتصف العمر أو آخره.. لا يهم..

تنظر لي بلا انقطاع.. ترفع رأسها كأنها تختنق.. بجعة تخرج رأسها من بركة العرق التي تسبح فيها.. لا أعرف كيف دنوت منها.. كيف ظللت أنظر لعينيها عشر دقائق كاملة، ثم همست لها إنني أشعر بأنني أعرفها منذ زمن.. فقط لو تمنحني لحظات أتكلم فيها بلا مقاطعة.. كيف واتتني هذه الجرأة؟.. لا أعرف..

نعم.. أنا أتذكر (ليلى).. جولاتنا في شوارع العاصمة الخالية... شوارع حلوان قبل الغروب.. لماذا حلوان؟.. لأنه لا يوجد بعدها شيء لراكب المترو.. إنها ما بعد البعد.. لو ابتعدنا قليلاً لسقطنا من على حافة العالم كما خشي بحارة كولومبوس يومًا ما..

نعم.. ليلى.. اسمها (ليلى) وليس (داليا).. اعتقد هذا.. لا بأس بالخطأ الذي تحدثه الأيام.. هي كذلك دعتني بـ (محمود)... أنا (محفوظ) ولست (محمود)..

هكذا رفعت رأسي للفتاة الجالسة جواري..

كانت شاردة الذهن تضع يدها على جبهتها كأنما هي مصابة بالصداع..

قلت لها:

-"الآن أتذكر كل شيء.. أتذكر مترو الأنفاق عندما تعطل.. أتذكر ضواحي حلوان وجولاتنا هناك لمجرد أنها مكان ناء بعيد عن عالمنا.. أتذكر السينما وحفلات الثالثة مساء لأنك يجب أن تكوني في بيتك في السابعة.. أتذكر.. وإنني لأعتذر بشدة.."

كانت صامتة تتحسس جبهتها بلا انقطاع فهتفت في قلق:

- "(ليلى).. هل هناك شيء؟"

قالت وهي تنظر لي نظرة غريبة جدًا:

- "اسمي (داليا)... وأنت.. قلت إن اسمك.."

- "(محفوظ).. أنت تصرين على أنه (محمود)... لا مشكلة.. مهما تغير الاسم فأنا الشخص ذاته.."

فجأة نهضت وجذبت حقيبتها وقالت:

- "ثمة خطأ.. خطأ مريع.."

- "ما هو؟"

قالت وهي تتراجع بظهرها:

- "الآن أتذكر بوضوح.. لا.. لست أنت.. أنا آسفة.. أنا أتحدث عن (محمود) فعلاً.. اسمه كذلك.. من المستحيل أن أنساه.. يبدو مثلك لكنه مختلف.. أنت تفهم.."

وتراجعت أكثر ثم هتفت:

- "أرجو أن تسامحني. أنا حمقاء.."

وسرعان ما كانت تركض على رصيف المحطة لتغيب عن بقعة النور الواهنة التي يبعثها عمود نور..

وجلست أنا أنظر على القطارات الغافية في حيرة..

لم أكن أنا لكنني متأكد من أنها هي!..

كيف يكون ذلك؟

وشعرت برجفة.. إذن نحن لم نلتق قط.. من يدري؟.. لربما التقى اثنان آخران هما (محمود) و(ليلى).. لو كنت أنا قد قابلت (ليلى) وهي قابلت (محمود) فكيف عرفتني وكيف عرفتها؟

في زمن ما التقى اثنان يشبهاننا.. وافترقا.. فلماذا عرفت أنا و(داليا) بعضنا؟

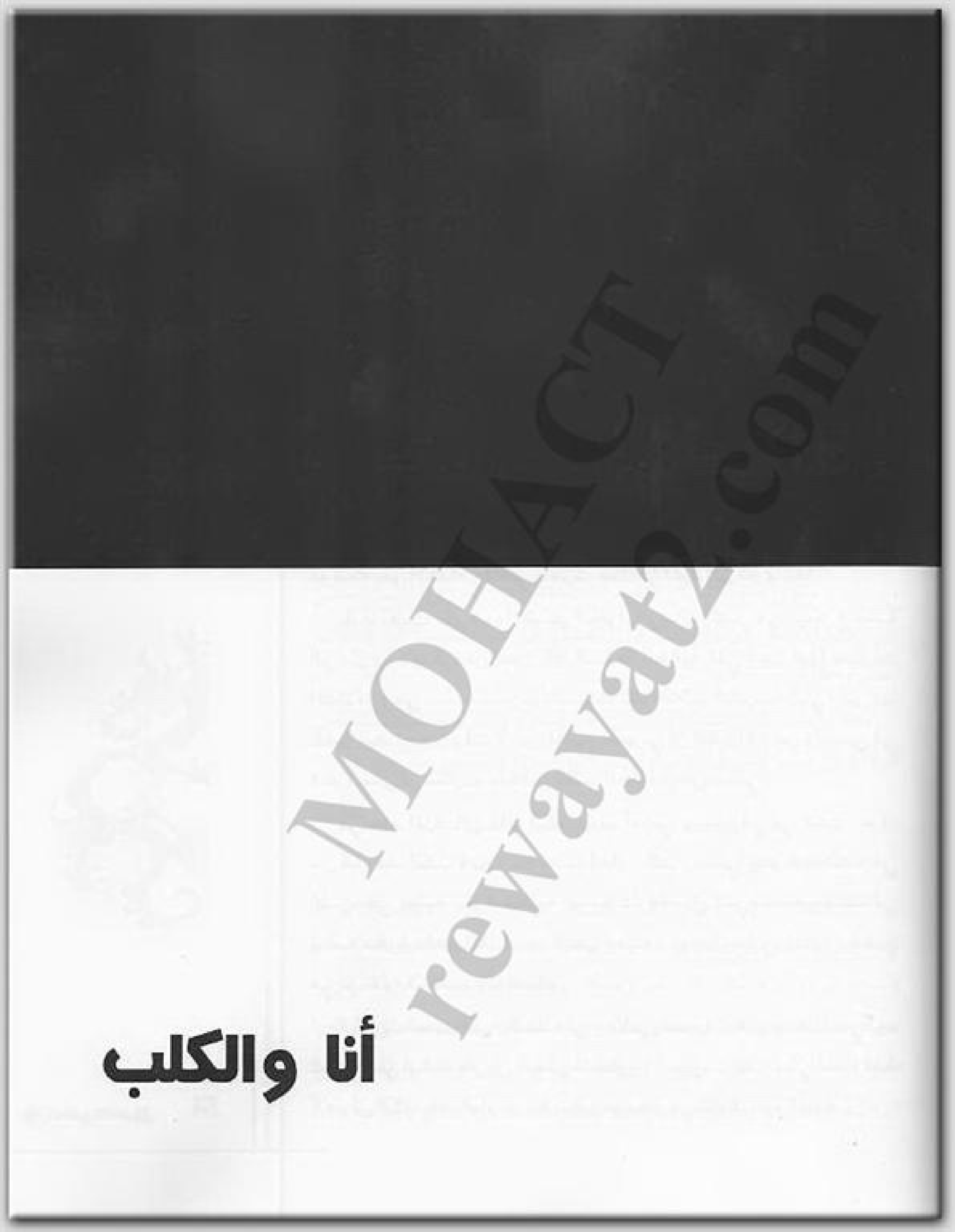
أسئلة لا تنتهي.. وأنا أرمق مملكة الظل الرابض كوحش خارج دائرة الأضواء الخافتة..

ونظرت في ساعتي..

وتنهدت.. لم اعد قادرًا على أن أظل غاضبًا على زوجتي أكثر من هذا..

لقد حان وقت العودة إلى البيت والنوم.. ربما أرى (داليا) في الحلم.. ربما....

***



أنا والكلب

عزيزتي هالة:

أعرف أنني لم أكتب لك منذ فترة طويلة، لكن الأفكار تصطرع في ذهني إلى درجة أنه لابد من أن أجلس وأكتب. هناك لحظة ما في حياة المرء يراجع فيها كل مسلماته ويعرف أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. أنت تعرفين أن بيتي قريب من الكلية، وأنا في هذا من المحظوظات القليلات في العالم اللاتي لا يضطررن إلى البحث عن وسيلة مواصلات. لا أعرف معنى كلمة (زحام) ولم أجربها، ويقال على سبيل السخرية إنني سأبقى في الكلية للأبد، لأن التخرج معناه فقدان هذا الحظ الحسن.

كانت محاضراتي متصلة في ذلك اليوم واضطررت إلى البقاء حتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغرب. لا أخفي عليك أني منذ الطفولة أشعر بتقلص في معدتي عندما تغيب الشمس وأنا ما زلت في الدراسة. خاصة عندما يغلقون النوافذ ويضيئون النور الكهربي في قاعات الدرس، فهذا يشعرني بأنني موشكة على الإغماء.. كأنني تأخرت جدًا ولن أعود إلى داري أبدًا.

طبعًا تغلبت على هذه المشاعر الطفولية وبدأت المشي في الشارع عائدة إلى داري. لابد لي من عبور تلك الساحة الخالية التي تبيت فيها سيارات المنطقة، وهي ساحة مأمونة باستثناء تلك الكلاب الشرسة التي يأتي بها خفير الجراج من وقت لآخر. لكنهم علموني أن أنظر للأرض وأمشي في هدوء حتى لو شعرت بأنفاس الكلب الحارقة على ساقي.

في هذه المرة كان ذلك الكلب يقف أمامي وينظر لي في ثبات. لم أر من قبل هذا الكلب فهو وجه جديد فعلاً . كلب رمادي يبدو أنه متقدم في السن، في عينيه نظرة حكيمة غريبة عارفة بكل شيء.. يقف هناك في وضع مألوف لدى الكلاب ويتابعني بعينه.. ثم بدأ يمشي خلفي.. يمشي في تؤدة وبلا عصبية أو حماس.

لا أعرف السبب لكن ملاحقته لي جعلتني عصبية. وقد وجدت نفسي أجد السير حتى أوشك على أن أقع في المحظور وأجري. وبلغت بيتي أخيرًا فقط لأجد أن الكلب يقف أمام باب البناية وهو ينظر لي تلك النظرة الغامضة!

لم أستطع فهم الطريقة التي سبقني بها.. لكني على كل حال مررت جواره في حذر، وسرعان ما رحت أركض على الدرج خائفة من أن يلحق بي قبل أن يفتحوا الباب. لا لم يحدث شيء كهذا..

في الأيام التالية كنت أراه باستمرار.. تقريبًا لم يمر يوم دون أن أراه وتصدمني عيناه الغريبتان.. أغرب عيني كلب رأيتهما في حياتي. فيهما شيء بشري لا شك فيه.

اليوم فقط أفكر في موضوع تناسخ الأرواح الذي قرأت عنه كثيرًا. أعرف أنه مرفوض وغير وارد لكنه يلاحقني فعلاً. حسب مفهوم تناسخ الأرواح فإن أرواحنا تخرج من أجسادنا لتولد في جسد آخر قد يكون بشريًا وقد لا يكون.. دورات حياة لا تنتهي..

للمرة الأولى أفكر في أن هذه القصة قد لا تكون خيالية تمامًا. هذا الكلب يحمل شيئًا بشريًا فلماذا لا يكون كذلك؟

لماذا لا يكون هذا الكلب ذو العينين الناطقتين تناسخ روح إنسان مشى على هذه الأرض يومًا؟.. هذا هو التفسير الوحيد بالنسبة لي لنظراته المعبرة الغريبة.

نعم يا صديقتي الحبيبة.. الأمر بهذا السوء والعن. صديقتك تمضي الوقت في بيتها تفكر في كلب!. إن غرائب الحياة لا تنتهي عند حد.



غادة

عزيزتي هالة:

تتذكرين الكلب الذي حكيت لك عنه في خطابي السابق. نعم.. لا تندهشي فالموضوع يهمني فعلاً. كنت أعبر تلك الساحة ووجدته كما يحدث في كل يوم، لكنه كان يعرج قليلاً.. دققت النظر فاكتشفت أنه ينزف من قدمه.. المسكين قد داس شيء على قدمه الخلفية، ولعلها سيارة يركبها غبي ما حاول أن يركنها في الجراج، غير مبال بوجود كلب نائم خلف الإطار. انفطر قلبي للمنظر ومشيت لبيتي فوجدته يتبعني كالعادة وهو

يعرج.. هذه المرة صعد معي إلى الشقة، ولما لم يكن هناك أحد في البيت فقد أدخلته.. كانت هناك دجاجة في الثلاجة فاقتطعت ربعها ووضعته على جريدة أمامه. رحت أراقبه للمرة الأولى في حياتي عن كثب وهو يأكل في نهم. من الواضح أن حياة كلاب الجراج ليست سعيدة جدًا.. ما أغرب منظره، وما أعجب تعبيرات وجهه ونظراته لي!.. على كل حال أحضرت بعض المطهرات والبلاستر والشاش وقمت بتضميد قدمه كما اتفق، ثم أخرجته على باب الشقة وطلبت منه أن ينصرف لكنه ظل واقفًا.. هكذا عدت إلى الجراج معه وهو يركض خلفي.. هناك لوحت له مودعة وطلبت منه أن يعنى بنفسه وألا يجلس في الشمس كثيرًا.. هذه المرة يبدو أنه فهم لأنه أقعى على الأرض وراح ينظر لي في ثبات..

هـذه النظرة تثير جنوني!... أحيانًا أعتقد أنني في قصة حب.. مع.. مع كلب؟!

لو كانت نظريات التناسخ هذه صحيحة فعلي أن أقبل أنه كان رجلاً في السابق. هذا خير من أن أقبل أنني كنت كلبه!

سامحيني على هذا الهذيان. لابد من شخص يمكن للمرء أن يهذي معه وهو آمن، بينما يهذي المرء مع خطيبه فيفسخ الخطبة . يهذي مع أبويه فيأخذانه للطبيب النفسي.. يهذي مع أستاذه فيفصله من المدرسة.. لهذا تحمليني قليلاً!



غادة

عزيزي فوزي:

سامحني على ما سأقوله في هذا الخطاب.. لابد للمرء من أن يجد حرية الهذيان من وقت لآخر وإلا انهار. عندما كنت في لندن عرفت حديقة هايد بارك التي يقف فيها الخطباء. هناك من يرى أنه أجدر بعرش بريطانيا ومن يرى ضرورة خنق الأطفال الرضع.. كل هؤلاء يهذون في حراسة رجال الشرطة، وهو تصرف حكيم من حكومة تعرف أنه ما لم يسمح للمرء بالهذيان العلني فإنه ينفجر.

أكتب لك لأشكو تلك الكوابيس الغريبة التي تجتاح عالمي من وقت لآخر في الآونة الأخيرة . أولاً أنا أحب.. لا تخف.. هذا الحب لن يتبعه أي شيء من طلاق وزواج وكل هذا السخف، لأن الفتاة التي أحبها في عمر بناتي. لكني متعلق بها بشدة فعلاً.. ثمة شيء في عينيها يذكرني بشيء آخر حميم عزيز. هذه الفتاة طالبة في كلية ما وهي تمر أمامي كثيرًا جدًا وتنظر لي نظرة تقول بوضوح: أنا أعرفك كما تعرفني.. لكن متى؟

كل هذا جميل ومفهوم، لكن تلك الأحلام لا تفارقني.. في كل مرة أتخيل أنني كلب تعس الحال.. كلب ضال يمشي بلا صاحب في ساحة خالية ثم تمر هي أمامي فأتبعها..

أتبعها في شارعها..

أتبعها على درجات سلم دارها..

هذا الكابوس يتكرر مرارًا..

أحيانًا أراه ليلاً وأحيانًا في نوم القيلولة . مؤخرًا حلمت بأن سيارة شاب عابث داست على قدمي فرحت أنزف، وأنبح ذلك النباح الممزق للأفئدة المميز للكلاب الجريحة، ثم جاءت هي كأنها الملاك ونظرت لي في شفقة ثم اصطحبتني إلى دارها حيث قدمت لي دجاجًا على جريدة وربتت على رأسي، بعدها ضمدت قدمي بيدها الرقيقة وأنا أنظر لوجهها غير قادر على إبعاد عيني. كانت تقول لي كلامًا رقيقًا مثل (يا لك من بائس!.. لماذا لا تهتم بنفسك أكثر؟.. اصمد يا صغيري)... ثم إنها اصطحبتني إلى تلك الساحة وهي تطلب مني أن أعنى بنفسي وألا اجلس طويلاً في الشمس.. الخ.. ثم صحوت من نومي.

لن أحكي لك عن الباقي ولا عن الجرح الذي وجدته في ساقي عندما كنت أتوضأ للصلاة.. من أين جاء؟.. من ضمده لي؟.. رأيت هذا الجرح من قبل في الساق الخلفية لكلب.. وقد ضمدته يد رقيقة طويلة الأنامل.

أنا موشك على الجنون. أين عرفت هذه الفتاة ومتى؟.. لماذا أرى هذه الكوابيس الغريبة؟.. لو كانت نظريات التناسخ حقيقية فأنا قد عرفتها

في مكان ما في موضع ما من قبل.. لكن أين؟.. هل على ضفاف النيل بينما جند تحتمس الثالث ينقلون أسراهم؟.. أم في قرية صينية ما في عهد المنج؟.. أم كانت من قبيلة الشيين وعرفتها عندما ذهبت لأبتاع بعض الفراء منهم؟.. أم كانت ترقص البولكا في زفاف صديقي في تلك القرية الأوكرانية ودعوتها إلى شرب الفودكا معي؟

لا أعرف.. لكن الإجابة عن تلك الأسئلة موجودة في ذات الكهف الذي تجد فيه سر الحياة وسر الخلود وسر هجرة أسماك التونة وانتحار الحيتان في أغسطس..

محفوظ

عزيزي فوزي:

حدث شيء غريب اليوم. كنت عائدًا إلى داري عندما خطر لي أن أجتاز تلك الساحة الخالية التي يوجد فيها ذلك الجراج. كثيرًا ما أرى تلك الفتاة التي أجهل اسمها هناك. كنت أمر تحت شرفة بيت، عندما رفعت رأسي فجأة لأجد ربة بيت فظة بدينة تحمل دلوًا من الماء وتسكبه فوق رأسي . لم يكن الوقت كافيًا إلا لأرفع يدي في شبه استغاثة ثم هوى الماء البارد القذر فوقي.

هل تعرف ما حدث؟

وجدت نفسي من جديد في كابوس الكلب.. كلب مبتل يركض مذعورًا مبتعدًا.. يركض في الساحة وسط السيارات الواقفة. رأيت الفتاة الرقيقة تنظر لي في اهتمام. على قدر علمي هذه أول مرة أدخل فيها ذلك الكابوس من دون نوم .

وفي هذه المرة طال الحلم كثيرًا جدًا.. طال.. قضيت يومًا كاملاً ككلب وصارعت الكلاب الغريبة، وحككت الكثير من البراغيث عن جلدي، وعرقت عظامًا ملقاة أمام متجر قصاب..

فقط عندما جاء الليل نمت.. هكذا أفقت من ذلك الكابوس لأجد نفسي في فراشي، من ثم قمت لأكتب لك هذا الخطاب.

هل تعرف الفكرة المرعبة التي تلح علي؟.. أعتقد أنني لم أحلم بنفسي وأنا كلب.. الكلب هو الذي يحلم بنفسه ككائن بشري!.. د. محفوظ وحياته وأسرته وتجاربه ليسوا سوى أحلام كلب نائم في الظل!.. لقد كنت أحلم عندما مشيت في تلك الساحة وجاء دلو الماء البارد ليوقظني من الحلم، فرحت أركض مذعورًا كأي كلب سكبوا عليه دلو ماء بارد وهو نائم.

هي فكرة مخيفة: كل مغامراتي وحتى هذا الخطاب الذي أكتبه.. كل هذا وهم.. الكلب جرح في ساقه واعتنت به فتاة رقيقة. هكذا حلم بنفسه في صورة محفوظ الذي يكتشف جرحًا في ساقه. لماذا بدأت فترات الواقع الكلبي تطول هذه الأيام، وبدأت أجد نفسي كلبًا أكثر من السابق؟.. في الماضي كانت حياتي كلها حلمًا طويلاً لا أكاد أفيق منه.. ربما لأن النهاية اقتربت وربما لأن تلك الفتاة ظهرت في حياة الكلب.. الكلب وقع في الحب وبدأ يفيق على الحقيقة..

حتى لو رددت على خطابي يا فوزي فهذا لا يدل على شيء . ربما أنت مجرد حلم آخر ابتكرته خلايا مخ الكلب. واستجابة الحلم ليست من الواقع في شيء..

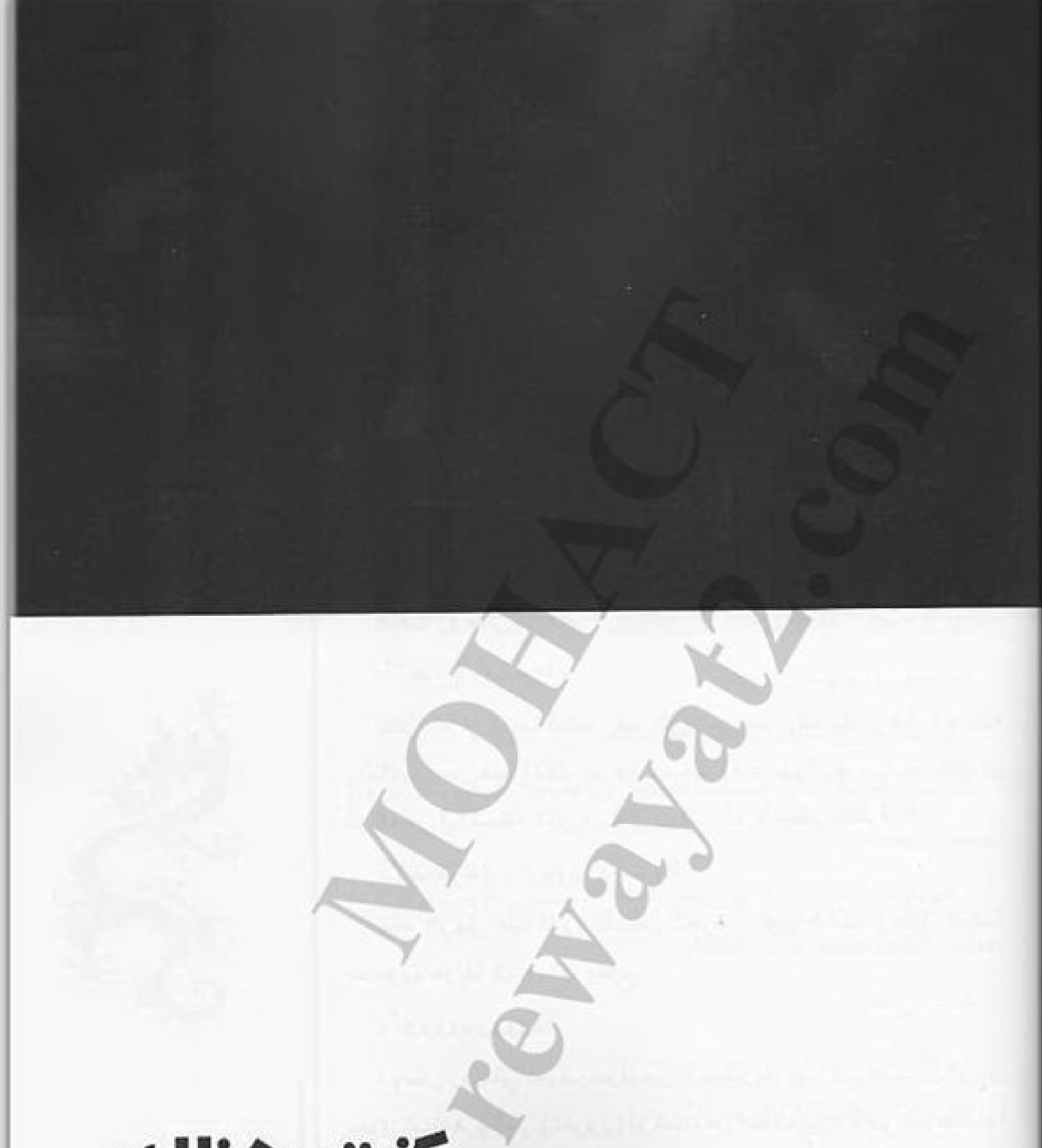
هل تعرف ما سأفعله؟.. سوف أذهب إلى د. مصطفى مساء اليوم – الثلاثاء – وأقنعه بأن أمضي بضعة أيام في مصحته النفسية . ربما كان الضغط العصبي قد ازداد علي في الفترة الأخيرة. أحمد الله على أنني مثقف لدرجة تجعلني لا أخجل من قرار كهذا.

محفوظ

عزيزتي هالة:

لا أعرف أين ذهب.. الكلب الذي تذيبني نظراته والذي حكيت لك عنه اختفى تمامًا منذ يوم الثلاثاء . أرجو ألا تكون سيارة قد دهمته في مكان ما. أعرف أنني أقول هذيانًا لكنني بالفعل أفتقده . أفتقده بشدة...!

غادة



كنت هناك

نحيل البنيان، أسمر اللون، له شعر أشعث شاب معظمه، وإن غطى أكثره بقلنسوة صوفية متسخة... يلبس سترة جلدية حال لونها يدس يديه في جيبيها، وعلى وجهه نظرة حائرة غائبة عن الوعي....

قدرت انه في الستين من العمر، وأن حاله في منتهى السوء من النواحي الصحية والعائلية والمادية.. هذه سن يجب أن يستريح فيها المرء، لا أن يجد نفسه تائهًا تتقاذفه الطرقات والأزقة..

كانت هذه زيارتي الثالثة للولايات المتحدة.. هذه المرة زوجتي معي في تلك الكافتيريا الصغيرة النظيفة المطلة على الطريق السريع في (بنسلفانيا).. لم يكن هناك كثيرون في المكان، لذا قدرت أن هذا القادم سوف يتبادل معي عبارة ما...

رأيته بالفعل يتجه إلى المنضدة التي أجلس عليها..

هتفت زوجتي في ذعر:

ـ "ابعده يا (محفوظ)!"

لكني لم ار داعيًا لذلك.. قد يكون مزعجًا.. قد يكون قذرًا.. لكنه بالتأكيد ليس خطرًا أكثر من فأر صغير يعبث جوار قدميك.. يمكنك أن تركله في أية لحظة، لكن من قال إن النساء لا يخفن الفئران؟

ـ "(محفوظ)... أرجوك ابعده عنا!"

فتح الرجل فمه الملئ بأسنان نخرة، وكور شفتيه وأطلق الكلمة ممدودة طويلة كأنه ذئب يعوي:

ـ "بووووووووووز!"

لم تكن زوجتي تعرف حرفًا من الانجليزية، لهذا افترضت أن الرجل يقول شيئًا قريبًا من (عاووو) أو شيئًا من هذا القبيل.. لكني شرحت لها بالعربية أن هذا الرجل هو الذي يلقاه المرء لو دخل أي بار في العالم.. السكير الذي يتسول كأسًا من الخمر booze..

ضحك الرجل ذو العوينات الجالس قربنا ضحكة من يعرف هذا الموقف...

جاءت الفتاة النادلة الضخمة قوية العضلات، وصاحت في غيظ:

-"قلت لك الا تضايق الزبائن!"

كان اسمها على صدر اليونيفورم، فقلت لها في تهذيب:

-"دعيه يا (لندا).. أرجو أن تحضري له ما يريد على حسابي.."

-"هل أحضر له بيرة؟"

-"أي شيء..."

قيدت ما طلبته في المفكرة ودستها في جيب التنورة، ثم هزت اصبعها منذرة في وجه الرجل وابتعدت.. يبدو أن هذه كانت غلطة عمري لأنه جذب مقعدًا وجلس إلى مائدتي!

صاحت زوجتي في رعب:

-"أرأيت؟.. كان عليك أن تكون فظًا معه.."

هنا مال الرجل على المنضدة ليصير وجهه غير الحليق قريبًا من وجهي.. وهمس:

-"الحكومة الأمريكية لا تريد من يتكلم.. يحسبون أنهم يعرفون ما يفعلون لكنهم مجموعة من الحمقى."

قلت في ذهول:

-"حقًا؟"

قال وعيناه الثملتان تتسعان:

-"حاولوا أن يخرسوني.. لكن هيهات.. أنا كنت هناك.. أؤكد لك ذلك... لقد حكى (فنسنت جاديس) القصة في كتابه الذي نسيت



اسمه.. لقد صدر عام 1965.. لن أنسى هذا التاريخ لأنه تاريخ طلاقي من (كلارا)..''

هنا جاءت الساقية بزجاجة جعة صغيرة وضعتها أمامه، ثم قالت لي:

-''سوف يحكي لك القصة ذاتها كالعادة.. لو أردت التخلص منه فلتعتمد علي''

هنا قال السكير وهو يصب السائل الأصفر الرغوي بيد ترتجف:

-'' د. (فرانكلين رينو) كان هناك.. أنا رأيته ولم أكلمه.. كنت مجرد بحار صغير قليل الشأن.. قالوا لي إنه عبقري وإنه يفهم نظريات (أينشتاين).. لم أفهم.. فقط قال لنا القبطان إن ما سيحدث سوف يغير التاريخ..''

ثم نظر خارج النافذة متأملاً وقال:

-''كان هذا أكتوبر.. أكتوبر عام 1943.. الطقس بارد لأنه شتاء مبكر.. والحرب مستعرة في كل مكان.. لكن (هتلر) العجوز كان على وشك الانتهاء.. نحن عرفنا هذا.. كان معي (كارلوس ألندس) و(ديك بريدجز) و.. نسيت أسماء الباقين..''

ثم جرع جرعة كبيرة وتجشأ وقال:

-''لقد مررنا بشيء مشابه في الصيف.. لكننا لم نشعر إلا بغثيان بسيط.. لكن الحكومة لم ترض عن نتائج تلك التجربة.. لقد تحولت المدمرة إلى ضباب أخضر، ولك أن تتصور ما حدث لي.. لقد أفرغت كل معدتي وظللت مريضًا شهرين.. لم أعرف أنهم ينوون إعادة التجربة في ظروف أقوى.. على أننا في ذلك الصباح البارد خرجنا بالمدمرة (ألدردج) الشابة الحسناء التي دشنت في أول الصيف.. كنا عائدين من مهمة في البهاما.. ثم قالوا لنا إن علينا التواجد في فيلادلفيا...

وفي اليوم السابق جاء (الونش) ليرفع مولدات هائلة الحجم إلى ظهر المدمرة..

"كنت أنا أعمل مع (المكنجية) في القاع.. لم أكن أعرف شيئًا.. لكن (ديك) نزل لنا وقال إن المشهد مثير فوق ويجب أن نراه..

"خرجت إلى السطح لأجد أن ضبابًا أزرق يحيط بالسفينة.. ضبابًا مخيفًا يزداد كثافة من لحظة لأخرى.."

هنا صاحت زوجتي:

- "ماذا تقولون؟"

أشـرت لها أن تلـزم الصمت.. بينما تجشـأ الرجل وصب لنفسه المزيد وقال:

- "لم تعد صحتي تتحمل الكثير من البيرة.. البروستاتا والمثانة.. لا أستطيع التخلص من كل كميات البول هذه.. ما علينا.. أين توقفت؟"

- "الضباب على السطح.."

- "نعم.. نعم... الضباب.. يتزايد.. يتزايد.. وفجأة فطنت إلى أننا لا نقف على ظهر السفينة.. لم أعد أرى أي شيء من السفينة.. تحتي ماء.. أمامي ماء.. لكني لا ألمسه.. وشعرت بغثيان مرعب.. غثيان يوشك على أن يمزق أحشائي فأفرغت كل شيء..

"هنا ظهر (ديك) وكان يقول لي وهو يمسك برأسه: أنا أشعر بأنني.. أنني.. سأنفجر يا (ويلي).. ثم سقط على الأرض... الأرض التي لا أراها.. كانت هناك عارضة في هذا المكان تتصل بها حبال المرساة، ورأيته يسقط في ذلك الموضع بالضبط..

"رفعت عيني فرأيت الرجال يتساقطون الواحد تلو الآخر.. كلهم يصرخ.. ثم سمعت القبطان يصيح: أوقفوا المولدات!.. أوقفوها.. هنا بدأت أرى السفينة.. أرى الجدران وأرى المرساة وأرى الحواجز المعدنية

المحيطة بوحدة المدفعية.. لقد كان (ديك) ملتحمًا بالمعدن التحامًا كاملاً بحيث صارا عجينة واحدة.. فقط كان رأسه حرًا وما زالت الصرخة على وجهه.. ورأيت بحارًا يخرج نصفه العلوي بينما ذاب نصفه السفلي في الأرضية تمامًا.. هذه الموجات اللعينة كانت تذيبك وتدمجك بأي معدن تكون ملامسًا له... هذا آخر شيء أذكره لأنني غبت عن الوعي..»

وصب لنفسه بعض الشراب ويده ترتجف..

رفعت عيني لأرى ذلك الرجل القصير ذا العوينات يبتسم ابتسامته المزعجة الفاهمة..

واصل السكير سرد قصته:

-«في المستشفى جاءتنا لجنة من العسكريين.. قالوا لنا إننا لم نر ما حسبنا أننا رأيناه.. قالوا لنا إننا كنا نخرف.. قالوا لنا إن أي كلام عن الموضوع سوف يقابل بعقاب شديد.. وهكذا وجدت نفسي وقد سرحت من الجيش.. وكانت الحرب قريبة من نهايتها على كل حال..»

وكما يحدث مع السكارى غالبًا بدا يبكي ويولول:

-«انتهى (ديك)... أما (كارلوس) فقد استطاع أن يصل للصحافة ويحكي القصة.. هذه القصة كتبها (فنسنت جاديس) في كتاب شهير.. صدر عام 1965.. أؤكد لك هذا لأنه تاريخ طلاقي..»

ثم واصل البكاء :

-«الحكومة الأمريكية تنفي أن أي شيء من هذا حدث.. تقول إننا كنا نخرف.. وأنا أقول: لماذا لم يطلبوا رأينا قبل التجربة؟.. كان مكتوبًا علينا أن نذوب ونتلاشى... نجوت بمعجزة ما، لكني أتساءل اليوم إن لم يكن الأفضل لي أن أذوب مع من ذابوا..»

ثم ألقى برأسه على المنضدة وراح في سبات عميق...



كانت يده على بعد نصف متر من زوجتي، فحملتها من الكم في اشمئزاز كأنها تمسك بفأر، ووضعتها بعيدًا عنها..

هنا تدخل الرجل ذو العوينات الجالس خلفي وقال:

- "لا تندهش.. هؤلاء المجانين كثيرون هنا.. إنه يحكي المعتقد الشعبي الشائع عن تجربة (فيلادلفيا).. التجربة التي يزعمون أن الحكومة الأمريكية أجرتها وجعلت بها مدمرة كاملة غير مرئية.."

قلت في دهشة:

- "هل هناك شيء كهذا؟"

قال ضاحكًا:

- "العالم الذي ذكر اسمه هو د. (فرانكلين رينو).. الذي طبق نظريات أينشتاين الخاصة بالحقل الموحد، وطبقًا لهذه النظريات فإنه باستعمال جهاز خاص يتعامل مع الجاذبية الأرضية والموجات الكهرومغناطيسية فإن الضوء يمكن أن يتقوس حول جسم بحيث يجعله غير مرئي.. هذه النظرية حقيقية وقد سال لها لعاب الحكومة الأمريكية.. تخيل جيشًا غير مرئي يدمر وينسف وأنت لا تراه!"

قلت له:

- "ولماذا تكذبها إذن؟"

قال في ثقة:

- " الحقيقة أنك تحتاج إلى مولد بحجم الشمس كي تتمكن من تقويس الضوء حول جسم بحيث يصير غير مرئي.. الحقيقة أن المولدات سخنت الماء فتصاعد البخار وحدثت ظاهرة السراب.. إن السراب يمكن أن يخدع أي واحد، لهذا خيل لمن يقفون على الشاطئ أن المدمرة اختفت فعلاً.. عندما ندقق في القصة نجد أنه لم يحكها سوى شخص واحد من

طاقم المدمرة يدعى (كارلوس اليندس) في كل المصادر.. كل المصادر التالية هي إعادة سرد لما قاله...

"لم يطور أينشتاين قط نظرية (الحقل الموحد) حتى وفاته عام 1955.. ويرى العلماء أن منطقه كان خطأ أصلاً.. وحتى اليوم لا يعرف العلم طريقة ينحني بها حقل كهربي أو مغناطيسي حول جسم ما بحيث يصير خفيًا.. "

ثم أشعل لفافة تبغ وقال:

- "الحقيقة أن تجربة فيلادفيا ممتعة بالنسبة لهواة الأشياء الغامضة وهواة نظرية المؤامرة، لكنها عارية من الحقيقة.. لقد صنع البعض ثروات هائلة من وراء الكتابة عنها، لكنها لا تصمد للتدقيق.."

جاءت الساقية ونظرت باشمئزاز للرجل النائم، فناولتها حسابها مع البقشيش..

سألتني:

- "هل أنتما عربيان؟"

هززت رأسي.. وتأبطت ذراع زوجتي خارجين من هذه الكافتيريا..

فقط على الباب سألتني زوجتي:

- "لم أفقه حرفًا مما يقال.. يجب أن تعلمني هذه اللغة اللعينة.."

- "حاضر.."

- "ويد هذا الرجل السكير.. ماذا دهاها؟.. هل هو الجذام؟"

نظرت لها في غير فهم فقالت:

- "ألم تلحظ أن أصابعه كلها ملتحمة ببعضها كقطعة من العجين؟.. ألم تلحظ أن سوار الساعة المعدني يختلط باللحم كأنهما شيء واحد؟.. لهذا أبعدت يده في اشمئزاز عندما أدناها مني.. "

نظرت إلى الكافتيريا والرجل النائم.. وهززت رأسي..

قلت لها ونحن نبتعد:

-"مجرد أسطورة يحبها هواة نظرية المؤامرة . أسطورة لا تصمد أمام التدقيق"

***



يوم الأحد الكئيب

حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..

قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء..

قريبًا سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..

قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل..

الموت ليس حلمًا لأنني في الموت ألمسك..

وبآخر نفس في روحي أباركك..

يوم الأحد الكئيب..

كنت أحلم، وصحوت لأجدك نائمًا في أعماق قلبي..

سوف يخبرك قلبي كم أفتقدك"

كانت كلمات الأغنية الإنجليزية جميلة، وقد استمعت لها عدة مرات في سيارتي. اللحن كذلك وصوت المطرب الذي لا أعرف اسمه كانا مؤثرين.

أعرف أن كل ما يمت لـ (رانية) رقيق شفاف حزين، ولكن يجب ألا أخلط بين الأمور. من الممكن أن يكون المرء شفافًا رقيقًا – لا مانع – ويكون كذلك لصًا غبيًا..

(رانية) دخلت مكتبي أمس.. كانت دامعة العينين. جلست تنظر إلى الأرض بعض الوقت لا تجد ما تقول فطلبت لها مشروبًا غازيًا، وأنا أعرف ما ستقول..

قالت لي إنها آسفة.. قالت إنها نادمة على ما حدث.. قالت إنها ستكون أفضل..

لست قاسيًا بطبعي لكني أكره أن يعتبرني أحدهم أحمق. هذه الدموع الرقيقة ما كانت لتسيل لو كان لديها ضمير يؤدي عمله جيدًا. من قال إن اللصوص لا يبكون عند ضبطهم؟.. اللصوص يبكون وكذلك القتلة والمتهمات في قضايا الآداب.. كلهم يبكون بكاء حارًا عندما ينكشف

أمرهم.. فهل هذا يدل على وجود ضمير؟؟.. يدل على صحوة الضمير لكنه لا يدل على وجوده إن فهمت ما أعنيه..

قلت لها إنني آسف كذلك . أنا لست مسئولاً عن هذه الرسالة لحظة واحدة بعد ذلك. فلتفعل ما تريد. فلترسل طوب الأرض ينصحني بالتراجع. فلتتصل بزوجتي كعادتها. فلتكلم د. صلاح صديق عمري. أنا متصلب الرأي عنيد ولن يتغير موقفي.

نظرت للأرض فاستطالت أهدابها أكثر . فتشت في حقيبتها عن شيء ثم ناولتني شريطًا.. شريط كاسيت ملفوفًا في ورقة، وقالت:

-"سوف أرحل فلن ترى وجهي ثانية، لكن يرضيني أن تتذكرني من وقت لآخر، لذا أرجوك أن تسمع هذا الشريط وأنت وحدك"

نظرت للشريط في حيرة. ليس لدي الوقت لسماع شريط اعتذار أو اعتراف بحبها العميق لي. لا أحد يصغي لاعتراف بالحب من فتاة تمر بظروف هذه لأنها لن تقول سوى الكذب.. فهمت نظراتي فقالت:

-"هي مجرد أغنية.. أنت تعرف أنني كنت في الخارج منذ شهرين، وقد راقت لي هذه الأغنية وأنا أرجو أن تسمعها"

هكذا انصرفتُ.. فتاة حساسة رقيقة وأنا اعتدت أن هذه الشخصيات الحساسة تؤذي الآخرين وتؤلمهم طيلة الوقت ، وقديمًا قال أوسكار وايلد إن الشخص الحساس هو شخص يدوس على أقدام الناس جميعًا لأن قدمه هو تؤلمه..



استمعت إلى الشريط في السيارة على سبيل الفضول فلم أجد سوى تلك الأغنية (يوم الأحد الكئيب) وهي أغنية جميلة فعلاً كلها شجن كأنها وردة ذابلة، لكن هل تتوقع مني رانية أن أسمعها فأبكي وأهرع لها لأقول إنني آسف؟..

(رانية) غير متزوجة.. (رانية) حسناء ثرية أنيقة جدًا.. (رانية) تحضّر لدرجة الماجستير وأنا المشرف على رسالتها. (رانية) تسافر كثيرًا للخارج، وفي وسعها أن تحضر معها ما تريد من مراجع. عندما قدمت لي تلك الملزمة الأنيقة الفاخرة عدت لداري متوقعًا أن أجد عملاً راقيًا جديرًا بوجهها الجميل. بالواقع بدا لي الأمر محكمًا أكثر من اللازم . بعد نصف ساعة بدأت أفهم.. هذه الرسالة مسروقة بالكامل من إحدى رسائل جامعة الزقازيق، ومن حظها العاثر أن لدي نسخة منها.

رفعت سماعة الهاتف وطلبتها وقلت لها رأيي.. أنت لصة يا (رانية).. هذه سرقة علمية لا شك فيها، وأنا آسف لأنني وثقت بك. منذ هذه اللحظة أنا أرفض الإشراف على رسالتك..

- "د. محفوظ.. أنا آسفة"

- "وأنا كذلك آسف"

رانية ترسل لي الكثيرين من أصدقائي يطلبون أن أنسى الأمر.. أن أعطيها فرصة أخرى. أشخاص مهمون يتصلون بي. زوجتي تسألني عن سبب ضيقي من رانية بينما كانت لهجتي لا تخفي إعجابي بها. لا أطيق أن يسخر أحدهم من ذكائي.. أسخروا من شكلي.. من ثيابي.. من سيارتي.. من أنفي.. لكن لا تسخروا من عقلي من فضلكم فهذه إهانة بالغة .

في البيت قمت بتشغيل الشريط وجلست في غرفة مكتبي أدون بعض المسودات. كلمات حزينة فعلاً.. اللحن نفسه يوحي بالنهاية..

عند منتصف الليل نام الجميع وظللت وحدي في المكتب أنظر لضوء الأباجورة والظلال المرتسمة على الجدران. في ظروف كهذه جلس صديقي وتلميذي (فوزي) وحيدًا قبل أن يفجر رأسه بطلقة مسدس. يومًا بعد يوم يرحل رفاقي وغدًا يرحل أولادي وغدًا أصير وحدي

تمامًا.. هل حققت في حياتي شيئًا حقًا؟.. لا أعرف.. كلام في كلام.. هواء في هواء..

من أنا؟... وهل حقًا ما زلت ذات الشخص الذي كنته منذ عام؟.. منذ شهر؟.. منذ ثلاث دقائق؟

أتأمل وجهي في المرآة فأرى ملامح عابسة متجهمة لا تبعث الطمأنينة في النفس. الواقع أنني أستطيع أن أفهم كيف يبلغ بالمرء مقت النفس حتى ليفجر رأسه.. هذا شيء مفهوم.

هكذا ظللت في اكتئاب يعتصر قلبي وقنوط لا أرى له مبررًا حتى الصباح.. من الصدفة أنه صباح الأحد.. سيكون أحدًا كئيبًا جديرًا بالأغنية.

ذهبت إلى العمل.. هناك قابلت د. (صلاح) صديقي العزيز، الذي قال لي وهو يرمق وجهي:

- "تبدو لي ميتًا.."

- "هذا حق.. أنا ميت فعلاً.."

وأطرقت ورحت أرشف قدح القهوة الذي طلبته بينما أدندن لحنًا يتردد في ذهني. قال لي في دهشة كأنه تذكر شيئًا:

- "ما هذا اللحن الغريب؟"

- "لا أدري.. ربما أغنية سمعتها أمس.. لا أذكر.. نعم.. هو كذلك.. أغنية سمعتها أمس"

قال في دهشة:

- "سمعة هذه الأغنية سيئة في الولايات المتحدة.. أنت تعرف أنني قضيت فترة طويلة هناك. يطلقون عليها اسم (أغنية الانتحار المجرية).. يدهشني أنك تعرفها"

- "لا أفهم.. هل أصلها مجري؟"

هز رأسه أن نعم ووعدني بأن يحاول تذكر القصة لأنه لا يذكر التفاصيل، ونصحني بأن أعود للبيت مبكرًا لأنني مرهق.

اتصل بي قبيل المغرب وكان متوترًا جدًا. قال لي:

-"لقد استرجعت كل البيانات بصدد أغنيتك هذه.. لقد كتبها شاعر مجري اسمه (لازلو يافور). دخلت الولايات المتحدة عام 1936 وراقت لبعض المطربين الذين جعلوا شعراء منهم (سام لويس) و(دزموند كارتر) يترجمون كلماتها إلى الإنجليزية.. من هنا نشأت سمعتها السيئة"

-"أية سمعة سيئة؟"

-"أنها تغري من يسمعها بالانتحار!.. هذه أسطورة حضرية لكنها قوية جدًا. ما زاد الطين بله هو أن مؤلفها المجري انتحر عام 1968.. وثب من النافذة. تكرر انتحار الكثيرين بعد سماعها حتى أنها حرمت في بلدان كثيرة.. علماء النفس ينفون هذا الموضوع ويقولون إن سلوك الانتحار معد بطبيعته. مثلاً في قصة جوته الشاعر الألماني العظيم (آلام فرتر) أطلق البطل الرصاص على رأسه، وبعد نشرها بدأ عدد كبير من الشباب الفاشل في الحب ينتحر بذات الطريقة. وقد أطلقوا على هذا اسم (تأثير فرتر).."

ثم صمت قليلاً قبل أن يضيف:

-"لكن هذه كلها خرافات طبعًا.."

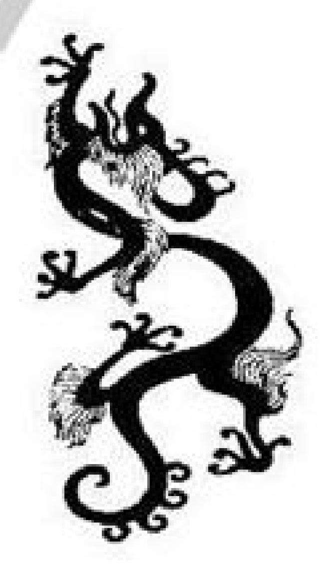
" حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..

قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء..

قريبًا سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..

قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل.."

كانت الأغنية تتردد في رأسي ومعها عش دبابير. لماذا قضيت ليلة



أمس أمقت نفسي إلى درجة الجنون؟. لماذا بدت لي فكرة الانتحار مقبولة إلى هذا الحد؟.. هل هي تلك الأغنية اللعينة بجوها المقبض؟

(رانية) ليست ساذجة.. لماذا اختارت لي هذه الأغنية بالذات كهدية؟.. أغنية عن الانتحار تقدمها للرجل الذي يملك خراب بيتها، وأراهن أنها لم تحاول أن تسمعها..

سواء كانت هذه الأغنية خرافة حضرية أم حقيقة فمن الواجب أن أتخلص من هذا الشريط المشئوم. لا يجب أن يسمعها واحد يعرف الإنجليزية.

دخلت إلى مكتبي وفتحت جهاز الكاسيت فوجدته فارغًا. من أخذ الشريط؟.. خرجت إلى الصالة وناديت زوجتي فجاءت من المطبخ وهي تمسح يدها من أثر الطهي. سألتها عن الشريط فقالت:

- "(محمود) كان يبحث عن شريط جديد يسمعه.. دخل غرفة المكتب.. ربما كان هو؟"

محمود هو ابني المراهق طبعًا، وهو يجيد الإنجليزية لأنه في مدارس لغات منذ صغره.

- "وأين محمود؟"

- "لا أعرف"

انفجرت صارخًا فيها واصفًا إياها بالبلاهة وعدم المسئولية.. هي لا تفهم حرفًا من الإنجليزية ولو سمعت عشرة شرائط فلن تفهم شيئًا. رحت أفتش عن الفتى في كل غرفة وسألت أخوته عنه. فقط وجدت الشريط في جهاز الكاسيت في غرفته. قالت لي زوجتي مهدئة:

- "هذا هو الشريط.. لا تقلق.. أنت تعرف أنه يحافظ على كل شيء.."

ثم تذكرتُ فقالت في غيظ:

- "هل لأنه من (رانية) هائم تحدث كل هذا الصخب؟"

كان قد سمع الأغنية. عرفت هذا عندما قمت بتشغيل الشريط. هكذا خرجت من الشقة مسرعًا وقلبي يتواثب في فمي. أين يمكن أن أجده وكيف؟... هنا رأيت نورًا غامضًا يتسرب من تلك الفرجة عند السطح. . نور دنو الغروب المميز الأرجواني.. هناك شخص قد فتح السطح وخرج..

وثبت الدرجات أربعًا وقلبي يسبقني في الوثب. صبرًا يا محفوظ.. لا تكن أحمق.. كل هذه أسطورة حضرية لا أساس لها من الصحة.. الفتاة أرادت إيذاءك بلا شك لكن هل محاولتها تلك ذات قيمة؟

دلفت عبر باب السطح لأجد آخر منظر توقعته في حياتي..

كان ابني (محمود) يقف هناك على السور ساهمًا ينظر للشارع تحته وقد انحنى رأسه على صدره.. كان يبكي..

- "محمود!"

وهرعت نحوه بحذر وشعرت براحة عندما أمسكت بمنامته.. قبضت عليها كفي بقوة وشددته للخلف فلم يقاوم.. سقط على ركبتيه وهو مستمر في البكاء:

- "لا أعرف ما دهاني!.. فجأة شعرت أنني مجرد مراهق فاشل في الدراسة والحب وكل شيء!"

- "وهل كنت تنوي أن...؟... قل لي إنك كنت تراقب الشارع لا أكثر.."

نظر لي وابتسم في مرارة وقال:

- "بالفعل.. لم انتو أي شيء.. صدقني.. فقط كنت أسأل نفسي عن شعور الذين يقفزون من مكان مرتفع.. كنت أحسبني لن أفهمهم أبدًا لكني.. لسبب ما أشعر بأنني أفهمهم"

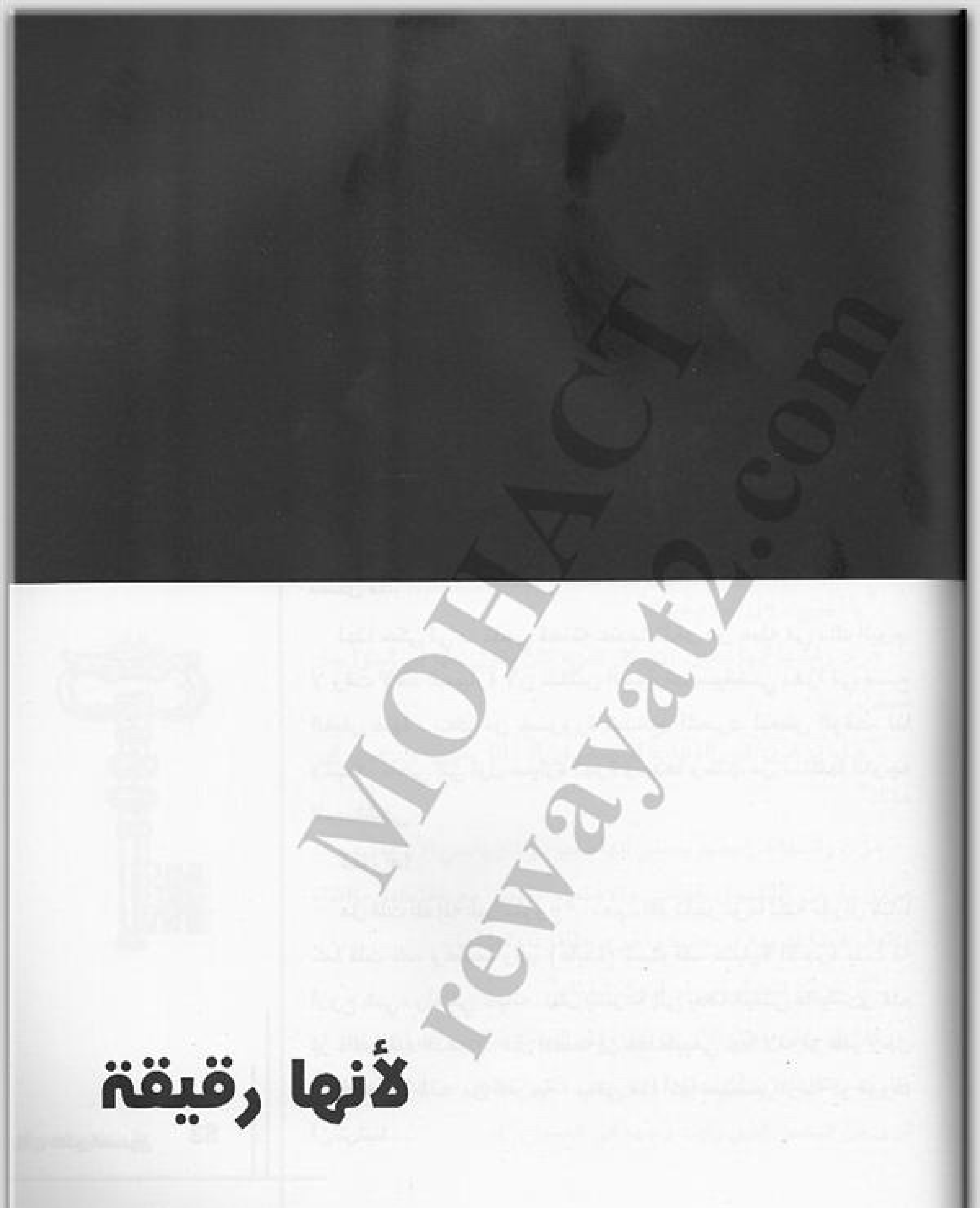
احتضنته ومشيت به نحو باب السطح. سمعته يهمس بشيء ما هناك حيث كان فمه قرب صدري، فسألته عما يقول.. قال:

-"لا شيء.. مقطع من أغنية إنجليزية يقول: قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء.. لا أذكر أين سمعت هذه الكلمات"

-"لم اسمعها قط.. حاول أن تنسى.."

وكانت الشمس تنحدر نحو الغرب معلنة نهاية يوم الأحد الكئيب...

***


لأنها رقيقة

دكتور ناجي صديق عزيز.. صحيح أنه شاب يصغرني بعشرين عامًا، لكنك بهذا تريد ألا أتعامل إلا مع المسنين ذوي العصي الذين يجتمعون في قهوة (الأصيل) ليلعبوا الدومينو ويشربوا الينسون، ويتحدثوا عن مشاكل الضغط والسكر والمفاصل.. أنا بحاجة للاتصال بالشباب من حين لآخر.. أعتقد أنهم يجددون دمي فعلاً ، يمكنني أن أفهم منطق الشيخ الذي يتزوج فتاة في العشرين ليجدد دمه.. فقط أنا لا أتزوجهم لكنني أسمع آراءهم!

د. ناجي يصغرني بعشرين عامًا، لكني أعتقد أن الناس تكف عن النمو بعد الأربعين.. كلهم يتشابهون ويصيرون في سن واحدة، فلا يوجد شيء غريب في أن تجد شلة أصدقاء بعضهم في الأربعين وبعضهم في الخمسين وبعضهم في الستين.. هذه سن واحدة بشكل ما..

لهذا حكى لي د. ناجي قصته عندما تأخر عن عمله في ذلك اليوم، لا وقت لأخذ السيارة لأن سائس السيارات سيقضي دهرًا في مسح الغبار عنها ، دعك من ضرورة تسخين المحرك لبعض الوقت، لذا وثب د. ناجي إلى أول سيارة أجرة وجدها وطلب من سائقها التوجه للمستشفى...

هنا رآها..

هل قلت لك إنه غير متزوج؟.. نعم.. لقد تأخر نوعًا لكنه ما زال شابًا كما قلت لك، وعندما رأى (عايدة) تستوقف سيارة الأجرة بدت له أروع شيء رآه في حياته. نظر بسرعة إلى يدها اليمنى فاليسرى فلم ير ذلك القيد الذهبي.. قال لنفسه إن هذا طبيعي جدًا لأنه لو ظفر رجل بهذا السحر لمات من الفرحة.. معنى هذا أنها ستصير أرملة لو قررت أن ترتبط...

لم يعرف وجهتها ولا أي شيء.. لم يسمع أو سمع ولم يميز.. فقط جلست هي في المقعد الخلفي وراءه، وبالطبع كان مرغمًا على أن ينظر أمامه . انطباع عام كونه عنها: رائعة.. لا يعرف أية تفاصيل.. لا يمكن أن يستخرج صورتها من بين ثلاث صور.. لا يعرف كيف تلبس.. لا يعرف أي شيء سوى وهج أعمى عينيه للحظة وجعله يجثو على ركبتيه صريعًا..

السائق يشق شوارع القاهرة وهو يلعن الزحام، ثم يشعل لفافة تبغ..

ما هذا الأنين؟.. التفت ناجي إلى الخلف ليتأكد فوجد أن الفتاة تئن بقوة.. تغطي وجهها والعرق يغمر جبينها وهي تجاهد كي تتنفس..

قال السائق في ذعر وهو يكلم الفتاة في مرآة الرؤية الخلفية:

-"يا أختي .. هل أنت بخير؟"

هزت رأسها أنها بخير، لكن كل شيء كان يقول إنها في أسوأ حال ممكن..

-"هل ترغبين في الذهاب للمستشفى؟.. أنا طبيب وذاهب إلى هناك"

هزت رأسها من جديد بمعنى أنها بخير، وكان ناجي الآن يمر بحالة مزدوجة من الفضول العلمي والاهتمام المهني مع اهتمامه بالفتاة ذاتها.. هكذا مد يده في جيبه وأخرج بطاقة ناولها لها..

-"ارجو أن تتصلي بي لو أردت شيئًا.."

كان قد بلغ وجهته الآن فترجل ونقد السائق ماله، والسائق ينظر له نظرة مستغيثة لابد أن معناها (ابق معي حتى أتخلص من هذه المصيبة.. ترى من النحس الذي رأيت وجهه في الصباح؟).



فتاة رقيقة - قال ناجي لنفسه - ولأنها رقيقة فهي تفقد وعيها كل ثلاث دقائق. هذا هو التوصيف الفكتوري للأمور.. تشحب ثم تصرخ وتسقط على الأرض كزهرة ذابلة.. إن عصبهن الحائر يعمل بكفاءة أكثر من اللازم، دعك من تأثير الحر الخانق ولفافة تبغ السائق.. نعم.. هذا هو كل شيء.. سوف تتحسن من دون تدخل من أحد..

لقد نسى (ناجي) هذا الموقف لكن وجه الفتاة لم يفارقه، وضبط نفسه يحلم بها في إحدى الليالي، وقد كان الحلم حقيقيًا - كما قال - لدرجة أن أنامله كانت تحمل رائحة شعرها..

سألته في شك:

- "أنت شممت رائحة شعرها في عالم الواقع؟"

- "بالطبع لا.. لكن لابد لفتاة مثلها أن تفوح من شعرها رائحة أزهار السوسن"

- "وما رائحة أزهار السوسن؟"

- "يا أخي أنت تسأل أسئلة غريبة.. إنها رائحة شعرها طبعًا!"

على كل حال لا تنتهي القصص بهذه البساطة. لقد تلقى مكالمة هاتفية منها ذات ليلة، وهي المكالمة التي عرف منها أن اسمها (عايدة)... اسم جميل يقترن بالرقي في ذهنه سواء كانت (عايدة) الأرستقراطية اللعوب بعيدة المنال في ثلاثية (نجيب محفوظ) أو (عايدة) أميرة أوبرا فيردي الشهيرة...

كانت مهندسة كمبيوتر تعمل في إحدى الشركات التي يحتم القانون - على ما يبدو - أن يكون اسمها (ماتركس).. في الماضي يبدو أن القانون كان يحتم أن يكون اسم شركة الكمبيوتر تباديل وتوافيق للحروف (آي سي إس تي) - دولي وكمبيوتر ونظم وتقنية - أما اليوم فلابد أن يكون الاسم (ماتركس)..

(عايدة) بخير.. لم تعاودها هذه النوبة ومن المهم أن نذكر أنها لم تحدث لها من قبل. المهم.. كي لا أطيل عليك، تم الاتفاق على لقاء.. إن قصة الحب تولد ببطء...

في ذلك المركب النيلي جلسا ، وأشعل ناجي لفافة تبغ ونظر إلى النيل الساكن جوارهما وبحث عن شيء يقوله، لكن الفتاة أمسكت برأسها وبدأت تئن...

ثم أنها سقطت على الأرض والعرق يسيل من كل مسامها.. كانت ترتجف بقوة، وخطر له أنها مصابة بغيبوبة نقص سكر، لذا اجتهد كي يسقيها بعض العصير على حين احتشد الناس بين الفضول والرغبة في المساعدة..

هذه المرة كان لابد أن يحملها حملاً ويطلب من قبطان المركب أن يرسل لهما لنشًا يعيدهما للشط.. وخلال نصف ساعة كان في المستشفى يدفع المحفة مع عاملين وممرضة..

هذه الفتاة مصابة بمرض عضال.. لا شك في هذا..

تم إجراء بعض الفحوص عليها، وراح هو يطالع نتائج التحاليل فلم ير شيئًا غريبًا.. لا تعاني فقر دم ولا نقص سكر.. ضغط دمها على ما يرام وليست ككل الفتيات اللاتي يعتقدن أن واجبهن أن يكون ضغطهن منخفضًا..

في النهاية أفاقت وأصرت على أنها بخير.. لابد أن أعود لبيتي لأن أمي لا تعرف أين أنا..

- "عديني أن تجري أشعة مقطعية على المخ غدًا.. لا.. لتكن أشعة رنين مغناطيسي.. اتفقنا؟"

وحاول أن يوصلها لدارها لكنها أصرت على أن تستقل سيارة أجرة.. هكذا وافق مرغمًا.. ووعدها بأن يتصل بها غدًا..

في الغد عرف أنها على ما يرام.. قال لها:

ـ "أعتقد أن لدخان السجائر تأثيرًا خطيرًا عليك.. "

التقيا بعد أسبوع وكان رأيه أن حالتها تسوء.. قالت إنها أجرت الأشعة المطلوبة لكن المركز احتفظ بها. عرف أنها تكذب طبعًا لأن مراكز الأشعة لا تحتفظ بأشعاتك التي دفعت ثمنها..

ـ "أعطيني اسم المركز.. سوف أتصل بهم لألقنهم درسًا أو حتى أعرف محتوى التقرير":

قالت في ارتباك:

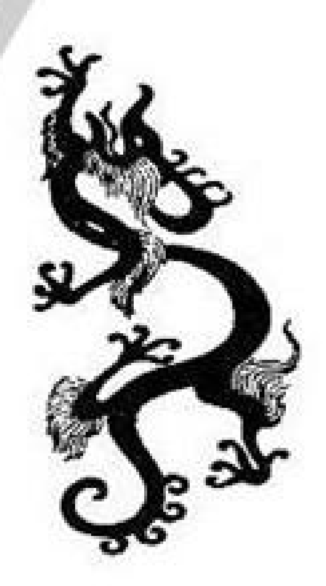
ـ "لم أعد أذكر الاسم.. إنه مركز كبير.. هناك في شارع.. في شارع.. مركز كبير هو.. "

الاحتمال الأول هو أنها لم تجر الأشعة بخلاً أو كسلاً أو خوفًا.. الاحتمال الثاني مخيف وهو أنها لا تريده أن يعرف النتيجة .. نتيجة ماذا؟؟؟

المشكلة أن حالتها تسوء فعلاً، حتى جاء اليوم الذي جاء أبواها بها في المستشفى وطلبا منه أن يدخلها ويعنى بها..

هناك في فراش المستشفى صارت قريبة جدًا من عالمه، فلا غرابة أنه لم تعد له حياة خارج المستشفى تقريبًا.. وكان أول ما فعله هو أن طلب رأي العديد من الأساتذة.. مشكلة الفتاة هي نوبات تصيبها فتتلوى وتئن، ثم يغمرها العرق وتدخل في رجفات قوية تذكرك بمرضى الملاريا.. حرارتها ترتفع وتوشك على الاختناق.. هذه النوبات ليست ثابتة.. أحيانًا تتحسن الفتاة جدًا..

هناك من قال إنها نوبات هستيرية.. هناك من مط شفته السفلى في حيرة وقال: إنها مريضة بشيء ما..



كانت الأمور تسوء.. وجاء اليوم الذي جلس فيه جوار فراشها وأمسك بيدها فارتجفت، وراحت تشهق بلا انقطاع وقالت:

-"أنا أموت.. أعرف هذا يقينًا.. يجب أن تتحرر من وجهي ومن ذكراي.. "

قال في وله:

-"تقولين هذا الهراء في اللحظة التي أعرض عليك فيها الزواج؟"

ضحكت في قسوة وقالت وهي تسعل:

-"هل ترى أمامك عروسًا صالحة؟.. أنا مجرد جثة تتكلم"

وكانت هذه هي المشكلة.. كان يعيش مع أمه ، وكان رأي العجوز قاسيًا لكنه عملي جدًا.. الفتاة مصابة بداء عضال لا أحد يعرف اسمه.. لا يمكن أن تبدأ حياتك على أرضية مهتزة كهذه..

هو نفسه لم يكن متأكدًا.. هل مرضها معد؟.. هل يؤذي نفسه بهذا؟... ربما كان من الأفضل أن يبتعد عنها، لكن كيف؟.. هو يهيم بها فعلاً..

ولسبب لا يعرفه قرر أن يختبر عواطفه بضعة أيام..

هكذا تركها في المستشفى وسافر إلى قريته ثلاثة أيام يحاول خلالها أن ينظر للصورة من بعيد. للأسف ازداد تعلقًا بها لدرجة أنه قطع الإجازة وعاد ملهوفًا..

قابلته ممرضة على باب القسم فهتفت:

-"هل رأيت مريضتك يا دكتور؟"

سقط قلبه في قدميه:

-"هل.. هل ماتت؟"

-"بل تحسنت بشدة!... هذه معجزة!"

هكذا هرع إلى غرفتها ووجدها جالسة جوار الفراش تنسق بعض

الأزهار في مزهرية، فلما رأته هتفت في فرح.. بصعوبة منعا نفسيهما من العناق.. يقول ناجي:

-"للأسف عادت حالتها تتدهور من جديد.. هذه هي المشكلة التي دفعتني لطلب رأيك.. هل أقدم على الزواج مع ما في ذلك من مشاكل هائلة؟.. المشاكل تظهر بعد الزواج، لكنني في وضع فريد إذ أبدأ بالمشاكل قبل أي شيء.. هل سوف تشفى؟.. هل هذه هستيريا فعلاً؟"

قلت له مفكرًا:

-"في الحقيقة أتجاسر فأقول إن هذه الفتاة ليست لك.. ليست لك على الإطلاق.."

-"لماذا؟.. هل تعتقد أن مرضها خطر علي؟"

-"بل أنت الخطر عليها!.. لو لاحظت لوجدت أنها تتدهور كلما اقتربت منها أو كلمتها!.. يذكرني الأمر بقصة قديمة للدكتور سعيد عبده اسمها (وداد).. وداد فتاة قابلها في القطار وولد الحب بينهما وافترقا، ثم كان في المستشفى يعاين حالات الجدري حين وجد مريضة تشوه وجهها تمامًا وامتلأ بالبثور المتقيحة تنز الصديد.. اكتشف أن هذه المريضة المحتضرة هي وداد . واكتشف أنه هو من نقل لها الداء الوبيل لأنه كان كطبيب يحمل العدوى ولم يصب بها.. المسكينة هي التي أصابها الجدري. باختصار: أنت سبب مرض عايدة!"

قال في غباء:

-"ماذا تعني؟.. أنا سليم تمامًا.."

-"لكنها ليست سليمة.. إنها مصابة بحساسية شديدة لوجودك.. هذه الأعراض التي تصفها أعراض (فرط تحسس) واضحة.. منذ قابلتها في سيارة الأجرة بدأت النوبات.. ثم السفينة.. ثم المستشفى حيث تكفل وجودك بجعل حالتها تسوء..ثم أنها تحسنت عندما سافرت

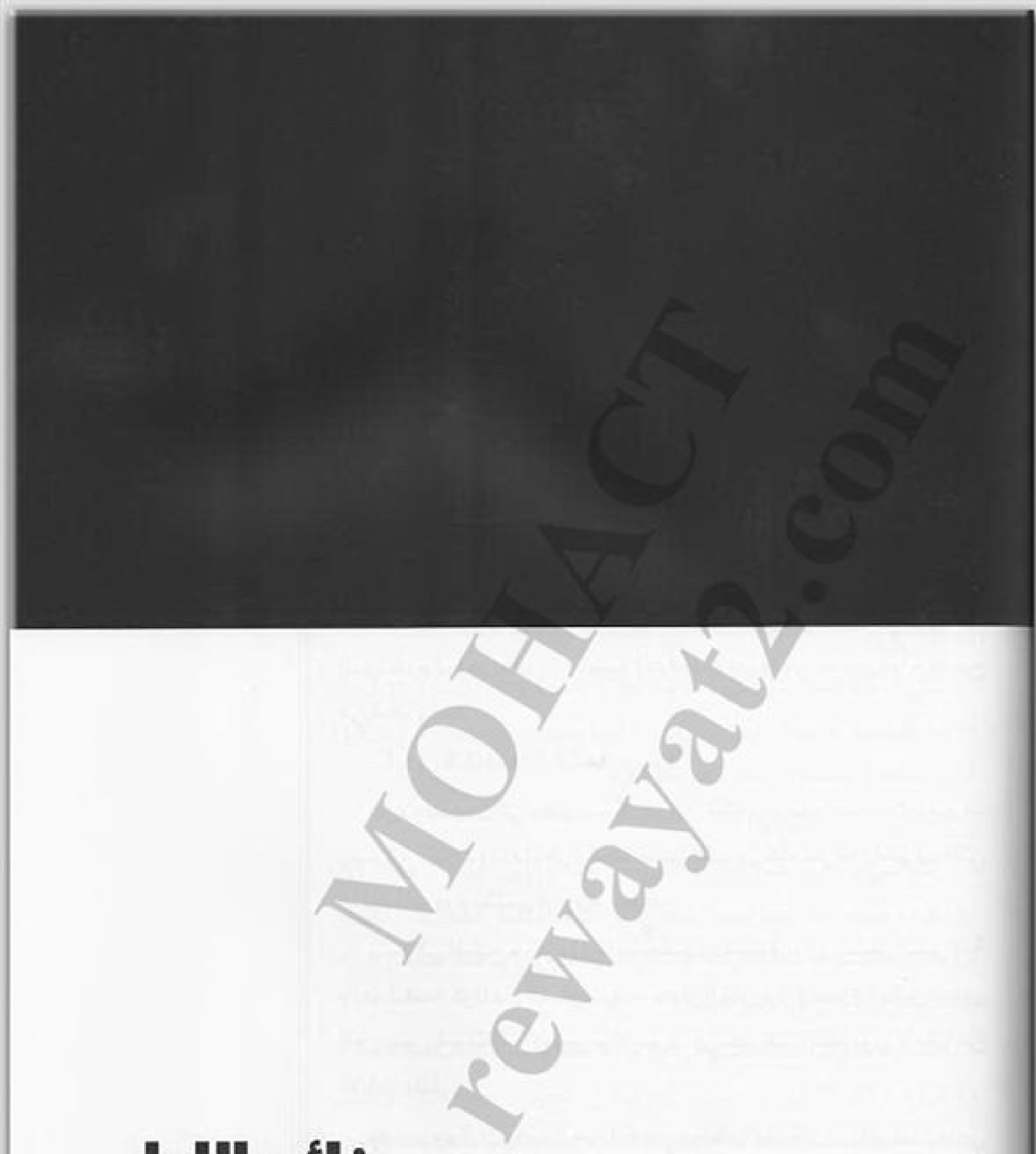
لقريتك. تفسيري الخاص هو أن لكل إنسان منا هالة خاصة تحيط به Aura.. هناك هالات سلبية تؤذي من حولك..هذه الفتاة مصابة بحساسية خاصة لهالتك هذه، وقد وصف (ليدبيتر) هذا المرض بالتفصيل في القرن التاسع عشر، لكن بالطبع هناك من يعتقدون أنه نصاب أو مخرف.. عليك أن تبتعد عن الفتاة فترة طويلة وتجرب.. أعتقد أنها ستتحسن بالتأكيد!"

نظر لي طويلاً ثم قال من بين أسنانه:

-"لو صح هذا الكلام الفارغ الذي تقوله فأنا أعظم نحس عرفته البشرية.. الفتاة الوحيدة التي خلبت لبي تموت لو ظللت بقربها!"

وبما أن الأيام أثبتت أنني على حق، فإنني بالفعل أرشحه للقب أكبر منحوس في التاريخ. لكن من يدري؟.. سوف تظل الفتاة حية خالدة رائعة الجمال في ذهنه للأبد (تفوح رائحة السوسن من شعرها)، ولسوف تبقى ذكراها نارًا يستدفئ بها في شيخوخته، بينما لو تزوجا فأنت تعرف ما كان سيحدث.. إن الذكرى لا تظل جميلة عندما تفوح منها رائحة البصل وصابون الغسيل الرخيص وبول الأطفال والشياط . مع طن من الهموم اليومية. أعتقد أن ناجي ليس منحوسًا إلى هذا الحد!

***



زائر الليل

بعد صلاة العشاء يتجه الأستاذ (رفاعي) إلى ذلك المكتب بالطابق الثاني من تلك البناية المتداعية..

يولج المفتاح في القفل، فتهب رائحة العطن ممتزجة برائحة حبر الآلة الكاتبة والورق وحبر (الرنيو).. لورق (الاستنسل) رائحة خلابة برغم أن الجميع ينكرون أنهم يشمونها..

هناك ترقد آلات الطباعة كديناصورات غافية.. ذات يوم كان المكان يعج بالصخب.. فتيات دبلوم التجارة الفاتنات يجلسن وقد وضعن المناشف الصفر لتخفي المفاتيح عن عيونهن، كما في الامتحان، ورحن يطرقعن اللادن ويطرقعن المفاتيح.. كليك.. كلاك . كليك.. كلاك..

ضوضاء اعتبرها شبيهة بالضوضاء الكونية التي يتحدث عنها علماء الفلك..

كليك.. كلاك.. كليك.. غمزات.. ضحكات.. كلام عن ذلك الشاب الوسيم الذي تقدم لـ (عواطف).. وتضع (عواطف) يديها في خاصرتها وتصيح في فخر وتحد:

-"ليه إن شاء الله؟... أنا حارم رم؟"

هؤلاء يتدربن كي يصرن سكرتيرات . لكنه يعرف ما سيحدث.. سوف يصرن زوجات وتزداد كل واحدة منهن عشرين كيلوجرامًا ولسوف تأتي ابنتها ذات يوم لتتلقى الدروس عنده...

يتجه إلى المطبخ جوار دورة المياه المسدودة منذ قرون.. يشعل السبرتاية ويعد لنفسه كوبًا من الشاي.. يفتح جهاز التلفزيون (نصر) العتيق لتظهر ألعن صورة ممكنة بالأبيض والأسود.. إن عمر هذا التلفزيون لا يقل عن ثلاثين عامًا...

يجلس جوار زجاجة الحبر الشيني وأقلام البسط.. إن الأستاذ رفاعي خطاط ممتاز كذلك، ولسوف ترى أمامه لفظ الجلالة وقد كتبه على خشب المكتب بعدة طرق رائعة الجمال.. كان هو الذي يكتب عناوين الرسائل

والأبحاث . وبعد أن يكتب يضع علامات غريبة تشبه حرف (الدال) حول الكتابة.. يقول لمن يسأله إنها (تملأ الفراغات)..

يومًا ما كان هذا المكان يعج بالحركة والحياة.. كانت هناك سكرتيرة هي واحدة من تلك الفتيات المتدربات.. وكان هناك ناس متجهمون من الذين يؤمنون بأهمية الكلمة يجلسون وعيونهم على الأوراق.. يراقبون أية غلطة ترتكبها البنات.. أساتذة جامعة.. أدباء.. شعراء.. كل واحد جالس يراقب الحروف التي تتراص على الصفحة كأنه صقر، وقد شعر بأن تغيير حرف واحد سوف يغير الكون.. ربما يخرج زحل من مساره ليصطدم بالمشترى.. ربما تغمر الفيضانات الأرض..

من بين أساتذة الجامعة (أعرف أن الصواب هو أساتيذ لكنه الخطأ الذي صارت له قوة القانون) كنت أنا.. هناك في هذا المكتب القابع في زقاق مظلم طبعت رسالة الماجستير، وطبعت مذكرات الطلبة، وطبعت أبحاثي كلها..

حتى المجلة الطلابية التي أشرفت عليها طبعت هنا.. أرسلت تلاميذي له مع توصية خاصة، وهناك وقف الفتية مبهورين بينما آلة (الرنيو) تدور مبعثرة مسحوق الحبر على الورق..

الرائحة..!.. ما أجملها!

ككل شيء دافئ جميل من الماضي بدأت هذه المهنة تندثر.. هناك ذلك الاختراع الجديد المزعج المدعو (كمبيوتر).. هناك منسق الكلمات... تصور أن يكتب الكمبيوتر خطًا عربيًا جميلاً..!.. رفاعي رأى هذا الخط وبدا له صناعيًا رقيعًا إلى حد لا يوصف..

الكل يكتب رسائله بالكمبيوتر اليوم.. لا أحد يريد الآلة الكاتبة الجميلة وقطرات (الكوركتور)... جرب أن يبتاع كمبيوتر مستعملاً وقضى أسود ساعات حياته معه لكنه عجز تمامًا عن فهم كيفية عمل هذا الشيء الشيطاني.. حتى أوضاع الحروف مختلفة على المفاتيح.. لا يمكن تطبيق قواعد اليد اليمنى واليسرى التي كان يدرسها لطالبات الدبلوم..

نصحه البعض بأن يأتي بشباب (ممن يفهمون هذه الأمور)، لكن الموضوع أكبر منه والعمر لم يعد يكفي لهذه التجديدات الثورية.. ديكور جديد وبياض وطابعة ليزر و.. و.. ربما يبتاع تلفزيونًا ملونًا بالريموت كنترول كذلك!

إنه يرتجف كلما فكر في هذه الأمور.. كلا . لم يعد في العمر ما يكفي لهذا السخف..

جاء اليوم الذي ذهبت فيه إلى مكتبه - إن كان لي أن أقول هذا ـ والحجة الظاهرة هي أن أطبع بحثًا يشترط أن يكون بالآلة الكاتبة، والسبب الحقيقي هو ان استعيد بعض عبق الماضي..

كان قد شاخ حقًا وشعره صار أشيب بالكامل.. كل شيء هنا محزن يذكرك بالماضي عندما كان العمل والضحكات لا تنقطع....

سألني وهو يصب لي الشاي عن أحوالي وأولادي.. كان راضيًا بحياته راضيًا عن رزقه.. هذا ما توقعته على كل حال..

ثم سألني في حذر وهو يقلب صفحات بلوك نوت على مكتبه:

ـ "أنت تقرأ الإنجليزية.. أليس كذلك؟"

نظرت له في حيرة باسمة.. قضيت معك عمرًا أطبع عندك رسائل كاملة بالإنجليزية... قلت لك ألف مرة إنني أدرس الأدب الإنجليزي، وبرغم هذا ما زلت تشك في معرفتي الإنجليزية..

ـ "أعرف بعضها.. نعم.."

ناولني مجموعة من الأوراق العتيقة المصفرة مكتوبة بخط اليد وقال:

ـ "ما المكتوب هنا؟"

بدلت بعوينات القراءة وتفحصت المكتوب.. هذه لغة لا أعرفها.. بالتأكيد ليست الإنجليزية.. ليست الإيطالية ولا الفرنسية.. إنها لاتينية.. لا شك في هذا..

قال الرجل وقد سمع وجهة نظري:

-"خمنت هذا.. أنا انسخ كالآلة ولا أعرف حقًا ما أنسخه لكني أقابل كلمة هنا وهناك أعرف منها اللغة التي أنسخ بها.. لم أعرف هذه اللغة قط.."

قلت له في فضول وأنا أنزع العوينات:

-"من الذي يأتيك بهذا المخطوط؟... لا أعرف أحدًا يكتب باللاتينية إلا تخصصات نادرة جدًا..."

-"إنه يأتي في الحادية عشرة ليلاً... رجل فارع القامة نحيل بشكل غريب.. يضع عوينات سوداء مع أنه الليل.. جاء منذ أسبوع وطلب مني أن انسخ بضع صفحات ففعلت.. ثم جاء بعد يومين لأنسخ المزيد.. إنه يدفع بسخاء ولا يتكلم كثيرًا.. لكني لم افهم بعد.."

ثم راح يعبث بين الأوراق حتى اخرج ورقة منسوخة بآلة تصوير مستندات . وقال:

-"كانت الأوراق الأولى بهذا الشكل، وقد قلت له إنني أستطيع محاكاتها بالآلة الكاتبة، لكن هذا يكلف الكثير.."

كانت على الورقة دائرة غير منتظمة مقسمة إلى خانات.. الأبجدية تراصت على الإطار الخارجي.. هناك أسهم ورموز..كأنه تقويم من نوع ما.. لا أعرف معنى هذا لكنه بالتأكيد اتعب رفاعي كثيرًا....

-"قمت بنسخها لانني شككت في الأمر.."

نظرت للأوراق.. وفي كل لحظة أشعر بدهشة اكبر.. ما الذي يدفع المرء إلى نسخ هذه النصوص؟.. ولماذا يفعل هذا بآلة كاتبة وليس بالكمبيوتر؟

قلت له:

-"هل يمكن أن تعطيني نسخة من هذه الأوراق؟... أريد أن أعرف كنهها.."

نهض في تثاقل ليرفع غطاء قماشيًا متسخًا عن آلة تصوير عتيقة في ركن المكان.. ضغط زرًا فبدأت تسخن كأنها ديناصور غاف منذ قرون قرر أن ينهض.. ثم وضع الورقة الأولى فراحت الآلة تهدر خرجت ورقة في أسوأ حال فناولها لي ودس الورقة الثانية.. فالثالثة و...



هنا سمعنا صوت خطوات على الدرج..

اتسعت عيناه وهتف في رعب:

ـ"الحادية عشرة!... إنه موعده!.. يجب ان ترحل وإلا فهم ما يدور هنا!...."

لا وقت لأن الخطوات تقترب على الدرج.. خطوات ثابتة على الدرج الرطب المتآكل...

لسبب ما شعرت بالذعر.. ذعر شل تفكيري المنطقي.. دخلت الحمام المجاور لي وأغلقته على نفسي في الظلام.. رائحة كريهة جدًا لكني لم اعرف موضعًا آخر أتوارى فيه..

سمعت صوتًا عميقًا يسأل:

ـ"هل انتهيت يا أستاذ رفاعي؟"

صوت رفاعي يحاول أن يبدو هادئًا.. يقول:

ـ"ليس بعد . ليس بعد..."

ثم صوت الرجل يقول فجأة:

ـ"ماذا تفعله بالضبط؟.. قلت لك ألا تحاول نسخ أي شيء..!"

من المرعب أن الغضب لم يتبد في صوته قط... كان يتكلم بطريقة تقريرية مريعة.. وجاء صوت رفاعي يصيح:

ـ"خفت على الأصل.. لا أكثر.."

في هذه اللحظة كان صوتهما يدل على أنهما يقفان جوار آلة التصوير.. لو غادرت الآن فلن يراني الضيف ولأعفيت رفاعي من حرج كبير.. هكذا فتحت باب الحمام.. وبخفة اندفعت إلى الباب الخارجي الموارب، وسرعان ما كنت امشي في الحارة المظلمة وسط نباح الكلاب وعواء القطط...

في الصباح اتجهت إلى د. (ميخائيل حنا) أستاذ اللغة اللاتينية.. الشخص الوحيد الذي أعرفه ويجيد هذه اللغة الشنيعة..

رحب بي في حرارة وتبادلنا المزاح، ثم جاءت القهوة ومعها وقت الأسئلة..

أخرجت الورقتين اللتين ظفرت بهما ووضعتهما تحت أنفه.. فتراجع مجفلاً وقال:

- "ما هذا؟"

- "حسبت انك المخول بإعطائي هذه الإجابة.."

تفحص الورقة الأولى جيدًا ثم قال:

- "ألم تجد آلة تصوير مستندات ألعن من هذه؟"

- "إنها آلة عتيقة لم تخضع لصيانة منذ عشرة أعوام.. لكن هل بوسعك قراءة شيء؟"

راح يتفحص الورقتين ويراجع قواميسه ثم قال:

- "هذه لغة لاتينية عتيقة جدًا.. لا أفهم أكثر الموجود لكنها تتعلق بسر قديم.. أعتقد انه سر كان السحرة يتداولونه، وأنت تعرف أن السحرة كانوا يفضلون اللاتينية... هناك طرق للتخاطب مع مخلوقات العالم السفلي.. لكن أهم من هذا أن هناك تحذيرًا واضحًا.."

- "وما هو؟"

- "لا تنسخ أو تنقل ما كتب هنا وإلا لاقيت الهول الأعظم.."

ثم ناولني الأوراق وقال:

- "هذا منطقي.. المفترض أن هذه أسرار غاية في الخطورة.. هذا تحذير كي يمنع تداولها.. من أين جئت بهذا الكلام الفارغ ؟"

شكرته ولم أجب، وانصرفت غارقًا في التفكير..

الزائر الذي يزور رفاعي في الحادية عشرة مساء مهتم بهذه الأمور.. يريد أن يستنقذ الأوراق المصفرة البالية لكنه لا يجد الشجاعة كي يصورها أو ينسخها بنفسه.. لهذا وجد لنفسه كبش فداء في شخص

رفاعي البائس.. رفاعي سوف ينسخ الأوراق غير عالم بمحتواها.. وإن كان هناك شخص سيلقى الهول الأعظم فهو رفاعي ذاته..

لهذا يجزل له العطاء..

لا شك أنه اختار رفاعي لأنه يعمل وحده في مكان منعزل قفر.. مكاتب الكمبيوتر بشبابها الصاخبين لا تناسبه.. هناك يسألون أسئلة كثيرة.. هناك يمزحون.. هناك يحتفظون بنسخ من الملفات على القرص الصلب...

الساعة الآن الثانية بعد الظهر..

سوف يسخر مني رفاعي لكني بالفعل بحاجة إلى أن أحذره.. الأمر كله مشئوم مقبض وعليه ان يعرف ان زائر الليل ليس مجرد زبون سخي...

اتجهت إلى الحارة الضيقة التي امتلأت الآن بالصخب وعربة فول التف حولها الطاعمون.. لكن الحارة كانت مسدودة عند طرفها الآخر..

عربة الإسعاف الواقفة كانت هي السبب..

وسرعان ما رأيت المحفة، والمسعفين يرفعانها إلى مستوى العربة.. لم يكن هناك أحد يهتم . فقط بعض الصبية الفضوليين الذين يكرهون أن يقابلوا جثة ولا يلقوا نظرة...

دنوت أكثر وأزحت الملاءة عن وجهه برغم احتجاج أحد المسعفين فرأيت وجه العجوز الطيب.. رأيت وجه العجوز الطيب وقد تقلص ذعرًا وهلعًا (كأنه لاقى الهول الأعظم)...

رفعت عينًا متسائلة إلى احد المسعفين فقال:

-"نوبة قلبية على الأرجح.. لم يعرف أحد حتى لاحظت إحدى الجارات أن الشقة مفتوحة بينما هو لا يفتحها إلا ليلاً..."

تركته وأسرعت أرقى الدرج المهشم الرطب...

الشقة الفارغة مفتوحة.. كل شيء كما هو.. كما تركته أمس...

هناك رجلا شرطة ينظران لي في دهشة... كانت عيناي على المكتب



المعدني الصغير.. المكتب الذي نسيت عليه عوينات القراءة أمس عندما فررت من الشقة..

لم تكن هناك.....

فقط كان البلوك نوت موضوعًا على المكتب وقد انتزعت منه ورقة.. برغم هذا كانت بقايا العبارة التي كتبت في تلك الورقة محفورة بعنف وقسوة على الصفحة التالية الفارغة..

تأملت الكتابة المحفورة.. العبارة التي دونها الغريب كي لا ينسى.. العبارة التي حملها ومعها عويناتي.....

الدكتور (محفوظ حـجـازي).... أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية (؟؟؟؟؟؟؟)..

***



بيضة ودجاجة

آخر الليل.. وذلك الشعور بالشجن في ذلك المقهى الذي تناثرت في أرجائه علب السمن الفارغة التي زرعوا فيها الياسمين كأنها أصص.. ساحة واسعة مسقوفة، ومن السقف تتدلى نباتات الظل، هناك زير ماء يقف على حامل ثلاثي، مع الإضاءة الخافتة الجميلة..

يأتيك (خميس) بصينية عليها كوب الشاي ذو اللون الياقوتي الجميل، وعلى طبق صغير بضعة أوراق من النعناع.. تشعر بأنك تستعيد روحك مع رشفات الشاي بالنعناع. تقرقر الشيشة في مكان ما، فتتصاعد رائحتها المسكرة إلى أنفك.. أنا لا أدخن الشيشة إلا لمامًا لكني أحب رائحتها وجو الدفء الذي تبعثه من حولها..

في مكان كهذا يصعب أن ترى شبابًا.. إنه أكثر هدوءًا ووقارًا وشعبية مما يناسبهم.. في مكان كهذا يستحيل أن ترى جهاز تلفزيون يعرض الفيديو كليب.. يستحيل أن ترى فتاة تشرب الشيشة كتلك العادة اللعينة التي لا أصدقها حتى اللحظة.. يستحيل أن تدخن المرأة الشيشة بمزاجها ما لم تكن معلمة في المدبح.. أعتقد أنها تدخنها لأن لها زوجًا أو خطيبًا أحمق يعتقد أنها بهذا تصير مغرية..

ثم يأتي الأستاذ (محروس)..

تعرفه من ثيابه الرثة التي توحي بعز مضى، وتعرفه من العود الذي يحمله ومن نظارته السميكة التي توشك أن تجعله يبدو كالمكفوفين، برغم أنه كان مبصرًا ... تلك اللمسة والبسمة الواثقة الخافتة المميزة للموسيقار العبقري الكفيف... سيد مكاوي.. الشيخ إمام.. ستيفي واندر.. عمار الشريعي..

يجلس الأستاذ (محروس) ويحيينا بكفه المفتوحة ثم يمسح بها على صدره، ويطلب الينسون.. لا.. ليست (الحلبة الحصى) كما يفعل الآخرون..

يشرب في استمتاع وتلذذ، ولا ينسى أن يلقى علينا نظرة من حين لآخر مكررًا ذات التحية:

- "د. محفوظ.. كيف الحال؟.. ربنا يكرمك"

- "عم (عطية).. كيف حالك؟.. نحمد الله"

ثم تأتي اللحظة التي انحبست لها الأنفاس.. تبدأ أنامله تجري على الأوتار وتتصاعد أنغام تسلب لبك.. أنغام قادمة من ذلك المنجم السحري الذي كان موتسارت وسيد درويش وعبد الوهاب وبيتهوفن وباخ يعرفون مكانه ويعملون فيه.. يبدأ بأغان معروفة لأم كلثوم، ثم يعرج على ألحان لم نسمعها من قبل وأغان تثير ذهولنا.. هذا أروع شيء في العالم.. كأنني واحد من ملوك ألف ليلة وليلة الذين يشقون ثيابهم طربًا ويغشى عليهم كلما سمعوا أبياتًا معينة تتغنى بها جارية..

هذه اللحظات تدوم حتى الساعات الأولى من صباح الجمعة، فنعود لديارنا غير مصدقين.. بالطبع لم أكن أنام لأن صلاة الجمعة بعد ثلاث ساعات أو أربع، لذا كنت أنتظر حتى أصليها وأتناول الغداء ثم أنام.. والنوم كان بلا أحلام سوى صوت غناء الأستاذ (محروس)..

كانت له أغنية شهيرة قام فيها بتلحين قصيدة:

"أضحى التنائي بديلاً عن تلاقينا.. وناب عن طيب لقيانا تجافينا"

التي كتبها (ابن زيدون) في فاتنته القاسية (ولادة بنت المستكفي)، وكان صوت الأستاذ (محروس) ولحنه يسموان بها إلى مرتبة تفوق السيمفونيات..

دائمًا كنا نسأله:

- "ما كل هذه الروعة؟.. ولماذا لا تقدم الإذاعة هذه المجوهرات للناس؟"

كان يقول وهو يرشف الينسون إجابة واحدة لا تتغير:

- "ما فيش نصيب.."

هكذا أمضيت أعوامًا ساحرة من حياتي، وإن كانت ظروفي لم تسمح لي بالانتظام في حضور (حفلاته) ليلة الجمعة تلك.. لكني عرفت يقينًا أن نشوة كهذه لن تبقى للأبد. سوف يموت طبعًا وسوف يشتري أحدهم المقهى الجميل ليحوله إلى محل للملابس الجاهزة.. ربما يبنون برجًا تجاريًا مكانه.. طبيعة الحياة أن شيئًا بهذه الروعة لابد أن يزول..



وقد كان هذا اليوم أقرب مما تصورت..

لقد اتصل بي صديق مشترك ليخبرني أن الأستاذ محروس يلفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، وأن علي أن أزوره لأنه راغب في رؤيتي..

هكذا هرعت إلى المستشفى الحكومي حيث العناية المركزة، ووجدت فراشه بصعوبة وسط الأطفال الصارخين ومواقد الكيروسين وسلال الأطعمة والقطط المسعورة.. كان على الفراش وحده وقد ثبتت إبرة وريدية في ساعده، وكان نائمًا.. فلما لمست ساعده في رفق فتح عينه ونظر لي.. تهلل وجهه برغم أنه لا يلبس نظارته السميكة تلك.. حاول النهوض فأرغمته على أن يبقى حيث هو.. قال لي:

- "لقد تلف الكبد تمامًا.. لا تخف.. لا يوجد شيء معد في الموضوع، وإنما هي الخمر قاتلها الله.. كنت أشرب بلا توقف في شبابي.. إنما أردت أن أراك لأودعك، وكي استودعك سري الذي أخفيته كل تلك الأعوام.."

إنه خرف الكبد طبعًا.. سوف يخبرني أنه أمي أو خالتي أو شيء من هذا القبيل..

قال لي:

- "في شبابي كنت معجبًا بالأستاذ (محروس الشناوي) المطرب الكبير . كنت ألاحقه في كل مكان وأحفظ كل أغنية غناها.. كان الرجل بلبلاً يغرد على المسارح وفي الإذاعة.. وكان يلحن لنفسه على طريقة (عبد الوهاب) و(محمد فوزي)..."

قلت له في دهشة:

- "(محروس الشناوي).. هذا هو اسمك!"

- "لا.. اسمي الحقيقي هو (محمد غانم).. من (جنزور) "

- "لكنني لم أسمع عن (محروس الشناوي) الآخر هذا قط.. تقول إنه كان شهيرًا"

- "كان يشبهني في كل شيء.. لكن مصيره تغير.. أنا غيرته.. هذه قصة طويلة قد تصدقها أو لا تصدقها.. "

ثم بلل بلسانه شفته السفلى الجافة وراح يحكي:

ـ"كنت في ذلك الوقت – لعلها الخمسينات ـ قد قرأت الكثير من كتب السحر.. وتعلمت الطريقة التي أرتحل بها إلى الماضي.. هذه أمور شديدة التعقيد وتحتاج إلى من كرس حياته بالكامل لها، لكني كنت شبه مجنون بفكرة واحدة هي أن أرتحل لأرى بدايات الأستاذ (محروس الشناوي).. هكذا تمكنت بطريقة ما أن أدخل في غيبوبة، فتحت عيني منها لأجد أنني قد عدت للماضي.. إلى بداية القرن العشرين، وكنت البس ثيابًا بلدية لا تدل على زمني كما إنني كنت أحمل قطعة ذهبية لأبيعها إذا احتجت إلى مال. ورحت أنقب عن (محروس).. كنت أعرف يقينًا أنه يتواجد بكثرة في مقاهي باب الشعرية . هكذا وجدته أخيرًا.. كان شابًا يشبهني إلى حد كبير وإن بدا عليه الخرق وعلامات الحيرة.. كان يصغي لكل المطربين، لكنه لا يعرف كيف يبدأ ولا ماذا يصنع.. كل ما كان يقدر عليه هو أن يقلد السكندري العبقري (سيد درويش)...

"أصابتني خيبة أمل وأنا أرى مثلي الأعلى عاجزًا عن أن يقدم لي أي شيء.. إلا إنني تعرفت عليه ومع الوقت صرنا صديقين خاصة أن سننا متقاربة. كان قد جاء من قرية قرب (بنها) إلا أنه وجد نفسه ضائعًا في القاهرة.. وقد دعاني لأن أقيم معه في ذلك البيت المتواضع على السطح.

"لا أعرف كيف بدأ كل شيء، لكني مع الوقت صرت أكلمه عن الموسيقى والتلحين.. اقترحت عليه أن يلحن قصيدة (ابن زيدون) الشهيرة (أضحى التنائي......).. وقد اقترحت عليه اللحن الذي احفظه عن ظهر قلب، فجربه، وكان أن انشده في المقهى أمام أحد أساتذة الطرب فجن جنون هذا الأخير.. رحت من وقت لآخر أقدم له لحنًا من ألحانه التي سيكتبها في المستقبل.. أدندن له اللحن وأعزفه على العود.. عن طريقي عرف لحن (يا غادة) ولحن (يا بو شامة على جبين للقمر).. في الحقيقة كان منبهرًا لا يصدق.. شعر بأنني أرسلت له من السماء، ولم ير غضاضة في أن ينسب (الحاني) هذه لنفسه..!.. هكذا بدأت شهرته تتنامى وتتنامى.. سجلت له اسطوانات وذهب إلى الإذاعة..

"كانت مهمتي عجيبة.. أنا ألهمه بألحانه التي سيؤلفها فيما بعد.. على أن هذه الشهرة لعبت برأسه وجعلته يسرف في إتلاف صحته، بدأ يدخن الحشيش ويعاقر الخمر.. لقد فقد صوابه تمامًا.. حتى جاءت الليلة التي وجدته ميتًا فيها بعد جرعة زائدة من الأفيون..

"بكيت على جثته بكاء شديدًا، وقد شعرت بأن التاريخ تغير تمامًا بسببي.. لن يكون هناك (محروس الشناوي) أستاذ الأجيال العظيم، ولن يقدم ألحانه الباهرة التي كنت أسمعها في شبابي قبل عودتي لزمنه.. ثم خطرت لي فكرة شيطانية.. لماذا لا أكون أنا (محروس الشناوي)؟.. إن التشابه بيننا قوي كما تعلم.. لو لبست مثله ووضعت نظارة سوداء فلن يلاحظ أحد شيئًا خاصة أن علاقته مقطوعة بأقاربه، وهكذا قمت بدفن جثته سرًا بمعونة صديق لي، ثم خرجت إلى المجتمع وأنا أغني تراث الرجل.. من حين لآخر أقدم أغنية جديدة مما كنت أحفظه.. بعضها أغنيات كان سيقدمها في الخمسينات قبل رحيلي مباشرة..

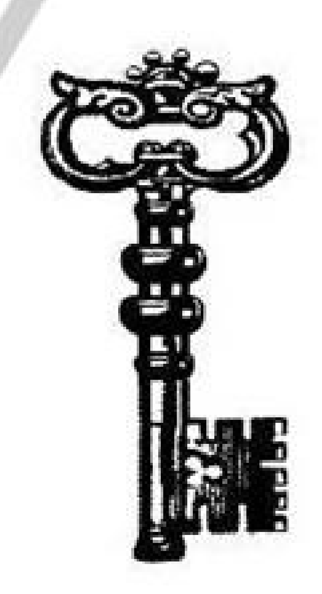
"لكن حظي كان يختلف عن حظه.. يبدو أنني افتقر إلى وهج النجاح، أو لعل إدمان الخمر قضى على فرصي في الترقي.. هكذا رحت أهوي باستمرار برغم أن ألحاني كانت رائعة، وقد بعت بعض الأغاني بخمسة جنيهات، برغم أنها صنعت مجد (محروس الشناوي) الحقيقي..

"صرت أغني في المقاهي مقابل أجر بخس أو مقابل المشارب.. وهي ذي حياتي قد انتهت من جديد، دون أن أترك شيئًا سوى بضعة ألحان ليست لي، ودون أن أترك أسرة أو ولدًا..."

ثم أوشك على البكاء، فرحت أهدئه وأنا أنظر إلى اللون الأصفر المتزايد في عينيه..

عندما انصرفت قلت لنفسي إنها هلوسة لكنها هلوسة ممتعة..كانت لي خالة تعاني فشل الكبد وكانت تحكي قصصًا مضطربة عجيبة، لكن قصة الرجل مترابطة.. خيالية نعم لكنها مترابطة..

بعد يومين كنت استعد للذهاب له في المستشفى، عندما عرفت انه توفي أمس..



في الفترة التالية أجريت بعض التحريات عن طريق قريب لي في جنزور..

عرفت أن هناك فتى اسمه (محمد غانم) من جنزور اختفى بلا سابق إنذار ولا تفسير في خمسينات القرن العشرين.. هل يعني هذا شيئًا؟.. بالطبع لا..

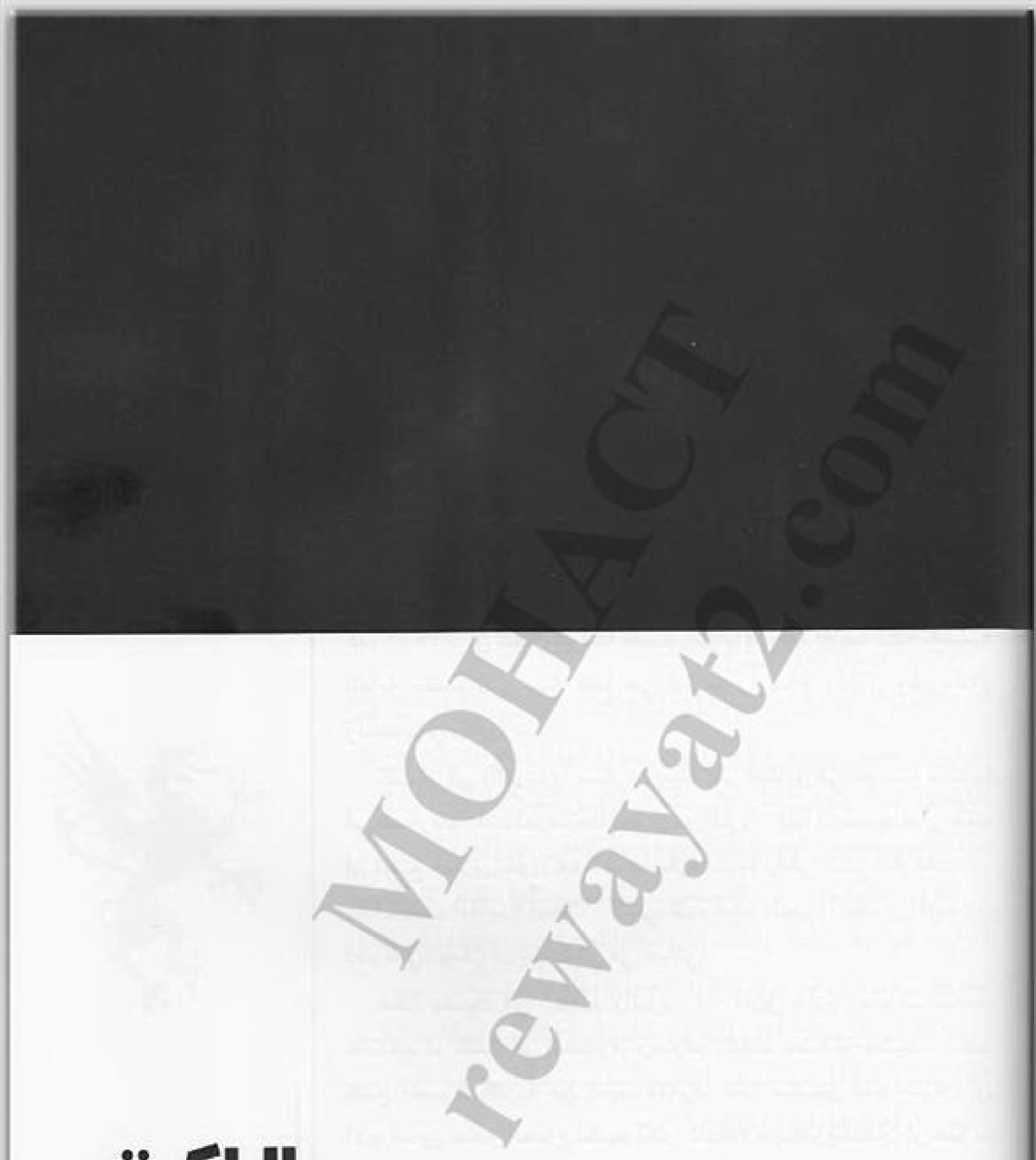
لكن لو صحت القصة جدلاً لكانت قضية فلسفية محيرة.. من هو صاحب الألحان؟... (محمد غانم) سمع الألحان فعاد للماضي ليلقنها لـ (محروس الشناوي) صاحبها الأصلي!.. (محروس الشناوي) الشاب لم يتعب في تأليف الألحان وإنما وجد من يلقنها على مسمعه تلقينًا.. فهل هو سارق؟.. سرق ماذا؟؟ سرق ألحانه الخاصة التي سيكتبها بعد عشرة أعوام !

تذكرت قصة الشيخ الذي ذهب إلى أهل الشاعر (أحمد شوقي) يوم مولده ليحذرهم من كارثة: "ابنكم سوف يكبر ويكتب قصيدة تسيء للإسلام تبدأ بالبيت: رمضان ولى هاتها يا ساق.. مشتاقة تسعى إلى مشتاق!". يكبر أحمد شوقي ويصير شاعرًا كبيرًا، هنا يخبره أهل البيت مازحين بنبوءة هذا الشيخ. يروق بيت الشعر لشوقي فيكمله بقصيدته الشهيرة.. السؤال هنا هو: هل الشيخ هو سبب كتابة شوقي لهذه القصيدة إذن؟.. أم أنها كانت نبوءة صادقة؟

متى تبدأ هذه الدائرة ومتى تنتهي؟.. من الذي تعب في صياغة الألحان؟.. (محروس الشناوي) الأصلي؟... لكنه لا وجود له.. كلا الرجلين أخذ الألحان على الجاهز..

معضلة البيضة والدجاجة تتكرر من جديد بإلحاح شديد، فلا حل لها سوى أن يكون الأستاذ محروس كان يهلوس فعلاً بسبب الغيبوبة الكبدية. هذا هو الحل الوحيد الذي يريحني ويمنع رأسي من الانفجار!

***



الباكية

في الثقافة الغربية نجد أن الحوريات كائنات جميلة دقيقة مجنحة تملأ قصص الأطفال.. هناك حورية الأسنان التي تأخذ سنك وتترك لك مالاً بدلاً منها (عندنا واحدة منها في مصر)، وهناك الحورية الأم التي تعنى بك طيلة الوقت عندما تبكي وحدك في المطبخ لأنك لم تستطع حضور حفل الأمير.. هنا تنهضين يا آنستي العزيزة لتكتشفي انك تحولت إلى سندريلا..

لكن الموضوع ليس بهذه السهولة، فلابد من التفرقة بين الحوريات والأقـزام.. هذه الأخيرة كائنات مشوهة تعيش تحت الأرض.. هناك الجنيات الطائشة Pixies التي اشتهرت بالمرح والخرق.. هناك (الإلف Elf) وهو أقرب لجنية لعوب، وأكثرها يعمل في خدمة السحرة.. إنك تجد كثيرًا من هذه (الإلفات) في فيلم (سيد الخواتم)...

لم يكن شيء من هذا في ذهني وأنا في تلك البقعة من شمال ايرلندا عام 1977... إن شمال إيرلندا مقسم رسميًا إلى 26 إقليمًا، لكنه بالنسبة للعامة مقسم إلى ستة فقط هي أنتريم وأرمـاج وداون وفيرماناج ولندنديري وتايرن...

كنت أنا في (أنتريم).. سيارة معطلة على الطريق في الواحدة صباحًا في بلد غريب.. انت تعرف هذا الطراز من المآزق.. لماذا لا يخبرونك ان عليك ان تضع جنازير حول عجلات السيارة عندما يغطي الثلج الطرقات..؟.. لماذا خضت المغامرة أصلاً؟.. لأنني كنت شابًا متهورًا أعتقد أن الموت هو آخر شيء يمكن أن يحدث لي في حياتي!

هكذا مشيت في الظلام والبرد.. إنه لمأزق نـادر.. سوف تتجمد بالتأكيد لو ظللت في السيارة، وسوف تتجمد حتمًا لو مشيت.. لكنك تلمح أضـواء القرية من بعيد، فتعرف أنك ستنجو هذه المـرة.. إن الإيرلندين حادو الطباع لكنهم أكثر شهامة من البريطانيين أو هذا ما أعرفه.. ربما هناك هاتف أو على أقل تقدير يمكنك قضاء الليلة وفي الصباح سوف يصفو تفكيرك . . .

نسيت ان اقول لك إن الجليد كان ينهمر.. الأرض مكسوة بالثلج.. وضع ممتاز لأن يجدوا جثتي المتجمدة في الصباح، ولولا أن هذه القرية هنا لضعت..

بيوت القرية كلها من الطراز العتيق الجدير بالقصص.. النوافذ كلها مضاءة بضوء يترقرق دليلاً على أن هناك نارًا بالداخل..

دققت اول باب في رفق..

ثم قررت أن أدق في حزم.. وجدت جرسًا فقرعته.. لا أحد يفتح، وبرغم هذا يتكلمون وراء الباب بتلك اللهجة الأيرلندية التي تشعر بانها لا تمت للإنجليزية بصلة.. إنهم هنا جميعًا...

على الأرجح يجلس في الداخل (باتريك) و(أوليفر) و(رايان) أحفاد (أوكونور) أو (أوبرايان) أو (أوجرادي).. لا يوجد إيرلندي يحترم نفسه يخلو اسمه من حرف O و mac..

لماذا لا تفتح يا اخ (أوليفر)؟..

إن الأمر يزداد خطورة.. بالفعل أنا لا أشعر بقدمي.. لو لم أمت فمن الوارد أن امضي حياتي بلا ساقين.. تذكروا أيها البلهاء أنني آت من بلاد الشمس، حيث ينهمر المطر عشر دقائق فتغرق الشوارع، ويتدثر الناس بالعباءات ويلبسون السراويل الصوفية ويتكلمون عن (البرد)..

أعرف هذا الطراز من القصص... الفلاحون حول النار لا يفتحون أبوابهم في هذه الليلة بالذات لأن الشياطين تغادر معاقلها أو الموتى يخرجون من قبورهم.. ربما المذءوب يجول حرًا.. أي شيء..

لا أعرف بالضبط.. المهم أنهم لن يفتحوا.. وهذه أسوأ ليلة ممكنة كي أكون هنا.. لا أخاف المسوخ.. أخاف التجمد.. ما ذنبي إذا كان حظي النحس أوقعني هنا في ليلة كهذه؟

ولماذا تكون الليالي المخيفة باردة دائمًا؟...

لكن لحظة.. هل تسمع هذا الصوت؟



هل الرياح تعوي؟.. لو لم تكن الرياح فهل هي الذئاب؟

لا.. هذا العويل الطويييييييل لا يمكن إلا أن يصدر من بشر.. وهذا هو ما يخيف فيه..

رحت امسح الأشجار بعيني بحثًا عن مصدر الصوت.. هذا ليس صعبًا لأن الضوء ينعكس من النوافذ..

هناك جوار هذه الأشجار التي يكسوها الثلج كانت تلك الفتاة منكمشة على نفسها تطلق هذا العواء.. من هي؟.. هل قررت أن تنتحر أم هي مجنونة؟

إنها جميلة بحق.. رقيقة من الطراز القابل للكسر إياه..شعر طويل أشقر ينسدل على كتفيها.. ثيابها خفيفة نوعًا مما يدل على أنها لن تعيش ساعة أخرى.. حتى وهي حية أرى أن شفتيها زرقاوان ولونها كلون الورقة..

مشيت لأقف أمامها وأنا أعرف ان هذه بالضبط هي غلطتي الكبرى.. في ليال كهذه لا يذهب المرء ليكلم فتاة وحيدة تقف وحدها في الثلج.. هذه طبعًا هي الجنية التي حبسوا أنفسهم في البيوت خوفًا منها، وأنا الأحمق الوحيد الموجود في الخارج معها.. هذه هي تقاليد القصص المرعبة.. لكن ملامحها بددت الخوف من نفسي.. كانت هشة فعلاً خائفة فعلاً... لو لم تكن هذه كائنًا بشريًا فمن أكون أنا؟..

- "لماذا تبكين؟"

قالت بلهجة إيرلندية تصلح للتدريس:

- "أنا (ماري أودونيل).. يعتقدون أنني ملعونة.. لهذا لا يسمحون لي بالدخول وتركوني أتجمد.. أنا أتجمد فعلاً.."

- "ولماذا اعتقدوا أنك ملعونة؟"

- "لأنني.. لأنني... لأنني جميلة وشباب القرية يأبون الزواج لأن كلاً منهم يحلم بي!"

فهمت.. جمالها جعل الناس تتشاءم منها.. لابد أنها ساحرة.. طبعًا بدأت هذه الإشاعة مجموعة من الفتيات الحاقدات..

نظرت لي وسالت دمعة من عينها تجمدت قبل أن تبلغ الخد..

ثم أطلقت ذلك العويل الطويل الذي يمزق روحك..

هنا استبد بي مزيج من الغضب والشفقة والرعب.. هؤلاء الحمقى يتركون الخرافة تقتل هذه الفتاة الرقيقة.. سوف يتركونها حتى تتجمد وهي تعوي ألمًا ، وفي الصباح سيقولون إنها نالت جزاءها..

الفتاة تعاود الصراخ..

هكذا مشيت في حزم أجر قدمي وسط الثلوج حتى بلغت ذلك الكوخ..

دققت الباب مرارًا وصحت :

-"أنتم أيها البلهاء!.. الفتاة ستموت من البرد!.. لو لم تفتحوا لأبلغت الشرطة!"

طالت المحاولة والصراخ بلا جدوى..

فجأة سمعت من يتكلم بالأيرلندية من الداخل.. ثم انفتح الباب بصعوبة.. رأيت وجه امرأة عجوز ووجه شاب من الطراز الأيرلندي العصبي إياه.. لابد أنه (باتريك) أو (بريان) فعلاً....

قال الشاب لأمه:

-"إنه رجل يا أماه.."

إنه عبقري كذلك.....

هنا تنحت المرأة عن الباب لتسمح لي بالدخول.. هناك كانت المدفأة مشتعلة حولها يجلس ستة أفراد ينظرون لي في شك.. جو كاثوليكي موح من الأيقونات والصلبان والصور الدينية..

راح الثلج يذوب عن كتفي وحاجبي.. نار.. نار!

لم أدر متى وضعت العجوز قدحًا من الشاي الساخن في يدي.. فرحت أعتصره في نهم قبل أن أشربه ، وسرعان ما وجدت سلطانية مليئة بحساء ساخن كذلك فرحت أشربه دون أن أسأل عن محتواه.. لو كان حساء أحذية فلا مشكلة عندي...

قالت المرأة:

-"معذرة.. إن زوجي مريض لهذا لا نفتح للغرباء.."

تذكرت على الفور سبب مجيئي . يا لي من غبي!.. لذا قلت في لهفة:

-"(ماري أودونيل) البائسة تبكي بالخارج!.... يجب أن تدعوها تدخل.."

هنا تبادلت المرأة نظرة مع الشاب.. اتجهت إلى النافذة وأزاحت الستار.. كان الثلج يكسوها من الخارج والرؤية مستحيلة، لذا أحضر الفتى شمعة ألصقها بالزجاج.. بعد قليل بدأت دائرة تتكون وسط الثلج.. وأمكننا أن نرى ما يدور بالخارج..

لم يكن ما رأيناه محببًا..

كانت الفتاة (ماري) تلصق وجهها بالنافذة وترنو إلينا في ثبات دون أن ترمش عيناها.. على شفتيها ابتسامة قاسية جمدت الدم في عروقي.. المتجمدون لا يبتسمون بهذه القسوة..

همست العجوز وهي ترسم علامة الصليب:

-"إنها هي!"

ثم أعادت الستار وهتفت في الفتى:

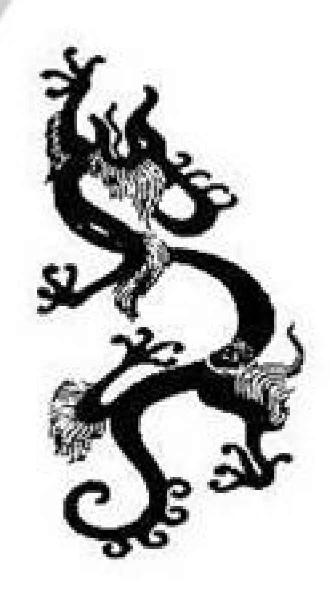
-"اذهب لترى أباك.."

جرى الفتى وجريت معه.. لا أعرف السبب لكنني توقعت ما سوف أراه..

غرفة نوم ضيقة.. فراش.. عليه رجل عجوز مدثر بالأغطية.. لكن عينيه شاخصتان إلى المجهول.. لم احتج إلى أن أتحسس نبض عنقه.. إنه ميت جدًا..

نظرت للفتى ونظر لي...

وعلى باب الغرفة رأيت المرأة.. كانت تنظر لنا نظرة معناها (هل كان ما توقعناه صحيحًا؟)... قال الفتى بصوت مختنق :



-"لقد توفي يا أماه.. لابد أن هذا حدث الآن.."

فقدت المرأة قدرتها على الوقوف وتهاوت قدماها..

قال الفتى وهو يساعدها على النهوض:

-"لقد سمعت البانشي Banshee تعول في الخلاء أمس ولم أرد أن أصدق.. لكننا الآن رأيناها تطل من نافذتنا...!"

هنا فقط تذكرت...

(البانشي) تلك الجنية التي تجدها في أساطير الأيرلنديين منذ القرن الثامن الميلادي حتى اليوم.. التي تعوي خارج البيت فيعرف سكانه أن واحدًا من أفراد الأسرة سيموت...

(البانشي) لفظة من مقطعين (بان أي امرأة، وسيدهي أي جنية)... هناك واحدة مثلها في اسكتلندا تدعى (بين نيجي).. (البانشي) تبدو كفتاة ذات شعر طويل، تمشطه بمشط فضي لهذا لا ينصحونك في أيرلندا بأن تلتقط أي مشط تجده على الأرض.. قد يكون مشطها..

قد يكون عواؤها رقيقًا حزينًا إذا كانت تحب أفراد الأسرة، وقد يكون مريعًا مخيفًا إذا كانت تكرههم..

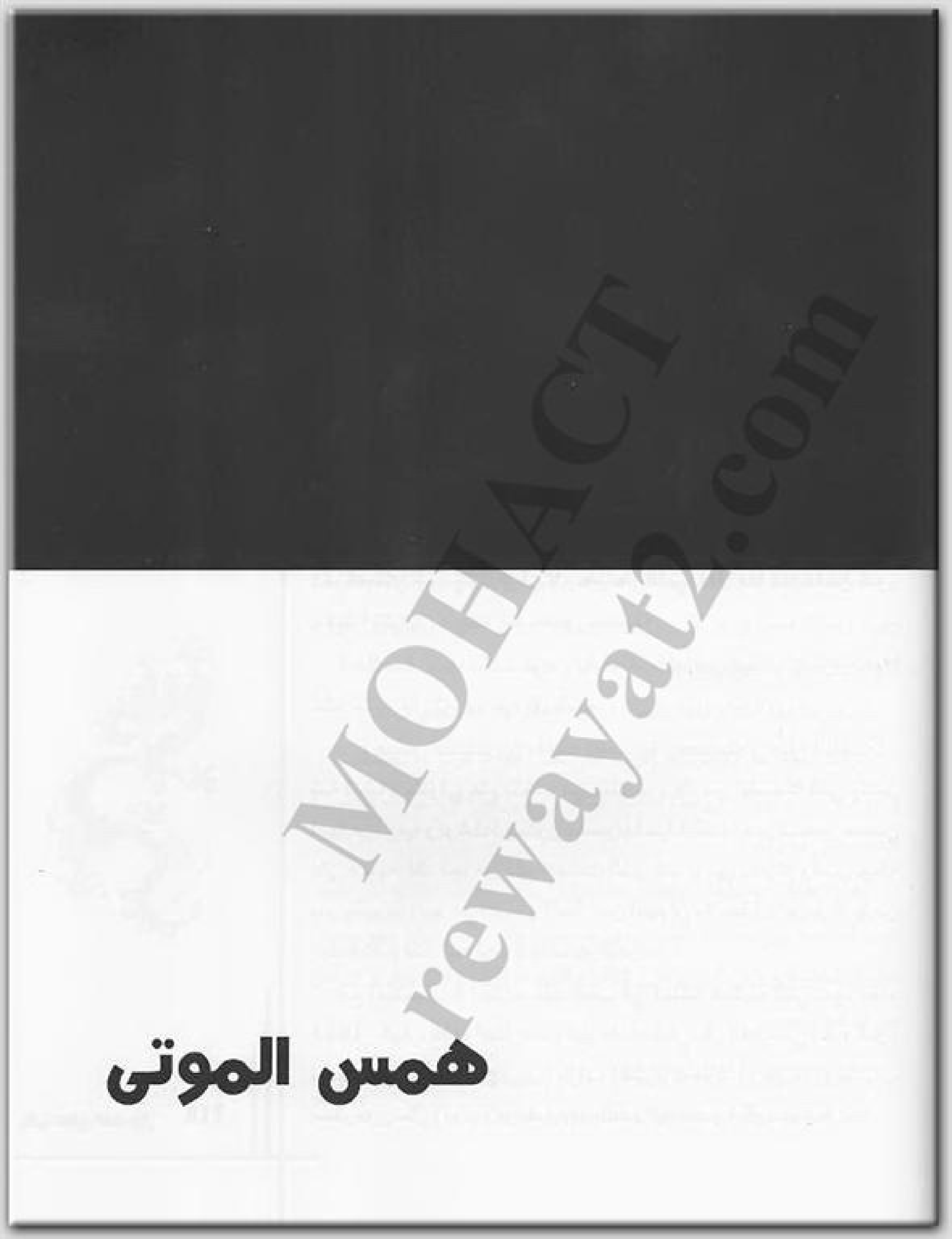
هناك أسر بعينها ارتبطت بالبانشي مثل أسرة (أودونيل) التي تجلس البانشي الخاصة بها على صخرة تطل على البحر في (أنتريم).. وعندما يتهدد الموت أحد أفراد أسرة (أونيل) يتردد عواء البانشي عبر غابات (كويل أولتاه) وفي أرجاء قلعتهم القديمة..

ما حدث لي ببساطة هو أنني جلست مع البانشي وتبادلنا الحديث.. وحاولت أن أسمح لها بالدخول..

لم تكن تعوي من البرد..

كانت تنذرهم بموت رب الأسرة...

***


همس الموتى

لم أكن أعرف أن البروفسور (جيمس ماتيسون) من المهتمين بهذه الأمور.

أنت تذكر الرجل.. هلم من فضلك!.. لا تشعرني بأنني كنت أكلم نفسي في كل هذه الأوراق!.. أنعش ذاكرتك قليلاً.. جمعية البحوث الروحانية البريطانية وتلك الفترة الخصيبة من حياتي.. إن البعض يعتبر هذا المكان تجمعًا للنصابين أو - في أفضل الأحوال - تجمعًا للحمقى، لكني برغم كل شيء وجدت في هذا المكان الكثير من الخبرات المسلية أو الجديرة بالتأمل. لا شيء مثل البحث عن حقيقة ميتافيزيقية يساعدك في فهم نفسك... (كارل يونج) تلميذ فرويد الشهير لم يقتنع لحظة بجلسات تحضير الأرواح، لكنه اقتنع بأهميتها!.. إن كم المعلومات والأسرار الخبيئة في ذواتنا التي يوفرها جلوس عدد من الأشخاص المتوترين في الظلام لكنز حقيقي للعالم النفسي.. عندما يتحرك الكوب فلربما تعتقد أنها الروح التي تحركه، لكن (يونج) يرى أن لا وعينا هو الذي يفعل هذا كاشفًا عن كنوز حقيقية تتوارى داخلنا منذ عصور سحيقة...

الخلاصة: سواء كنت تؤمن بالظواهر الميتافيزيقية أو لا تؤمن فهذا عالم جدير بأن تعرف عنه كل شيء..

د. (جيمس ماتيسون) بقامته القصيرة وعصبيته وعينيه النافذتين.. ثمة انطباع طفولي عام تأخذه عن مظهره، دعك من الضحكة التي يكشر فيها عن أنيابه وتوشك أن تكون معسولة أحيانًا، لكنها مجرد تعبير عصبي على وجهه. لقد نجا من ذلك الحادث الذي كاد يودي بحياته والذي جعله يمر بتجربة (دنو من الموت) كاملة.. من المهم أن نلاحظ أن الرجل لا يؤمن بهذا الكلام لكنه يجربه.. لا يكف عن تجربته...

مع (ماتيسون) اجتزت ذلك الباب في البناية العتيقة التي تعود لعام 1882.. الباب الذي اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لست أنا المخدوع الوحيد هنا..

هل تذكرت الأمر الآن؟...

في العام الثاني لإقامتي في لندن توفيت زوجة د. (جيمس ماتيسون) الرقيقة (اليصاباط). لا تسألني من فضلك عن سبب كونها (إليصاباط) وليست (إليزابيث) فالمرحومة أمي لم تكن بريطانية..

كان اكتئاب الرجل حقيقيًا، ولفترة حسبت أننا فقدناه فعلاً.. لقد فقد روحه المرحة واهتمامه بأي شيء تقريبًا..

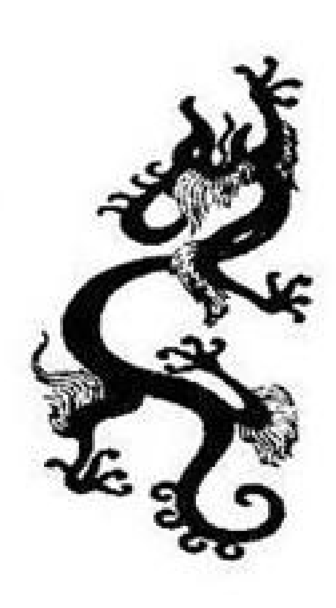
مررت عليه أكثر من مرة في النادي البريطاني الذي نلتقي فيه. ناد استعماري جدًا من الطراز الذي يجلس فيه بناة الإمبراطورية القدامى ينعون ضياع مجد الماضي، ويشربون الشاي ويدخنون وينتقدون الشباب الرقيع طويل الشعر..

قال لي كبير السقاة:

ـ" أخشى أن أقول إن سيدي لم يعد يأتي هنا، لكن بوسع سيدي أن يترك رسالة لسيدي لو كان لي أن أقول هذا، وآمل أنني لم أتجاوز حدود اللياقة إن كان سيدي يرى ذلك.."

لو حولنا هذا الكلام للغة مفهومة لقلنا إن الرجل لم يعد يأتي..

عرفت فيما بعد أن الرجل يتردد على تلك المقبرة قرب (وستمنستر)، وبدا لي هذا مخيفًا.. زوجته دفنت هناك ومعنى هذا أن حالته النفسية ليست على ما يرام..



ذهبت هناك صباحًا وبحثت عنه كثيرًا حتى عرفت مكانه من لحاد ثمل، فمشيت بين شواهد القبور حتى وجدته.. كان يقف هناك وهو يحمل حقيبة كحقيبة ساعي البريد على كتفه لم أفهم ما فيها، وكان مطرق الرأس في تركيز شديد..

ـ"د. (ماتيسون).. هل أنت بخير؟"

تنبه لوجودي فرفع حاجبيه وقال بلهجة عملية:

- "بخير يا صاحبي الطيب .. بخير.. لماذا لا ينبغي أن أكون كذلك؟"

- "تغير عاداتك.. أليس هذا غريبًا؟"

ونظرت إلى ياقته في دهشة.. إنه يثبت فيها (ميكروفون) صغيرًا يخرج منه سلك ينزلق تحت معطفه ويتصل بالحقيبة كما هو واضح.. إذن هذا الذي في الحقيبة جهاز تسجيل... ماذا يفعله بالضبط؟.. يتجسس؟.. لكن على من؟

لمح نظراتي وعرف ما أفكر فيه، فقال وهو يدس الميكروفون في الحقيبة:

- "أنا مدين لك بتفسير.. هل تناولت إفطارك بعد؟.."

لا.. هناك في ذلك المطعم الصغير القريب جلسنا أمام طبقين من البيض المقلي والقهوة وشرائح (التوست). قال لي وهو يأكل بنهم حقيقي:

- "هل سمعت عن الـEVP؟؟"

نظرت له في غباء فقال:

- "ظواهر الصوت الإلكترونية.. بعبارة أخرى هواية تسجيل الأصوات القادمة من العالم الآخر.. هذه الأصوات تكون أوضح ما يكون في المقابر أو حيث وصف الشهود رؤية أشباح من قبل.."

لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الموضوع، وإن كنت أنت تعرفه بالتأكيد لأن فيلم (الضوضاء البيضاء) قد جعله موضوعًا يعرفه رجل الشارع، لكننا كنا قبل عرض الفيلم بثلاثين عامًا..

شعر الرجل بأنه مدين لي بالمزيد من التفسير، فقال:

- " بدأت القصة بالعالم الشهير إديسون الذي قال إننا يمكن أن نصغي للأصوات القادمة من العالم غير المادي.. كان هذا في عشرينات القرن العشرين، وبعدها بدأ الناس يهتمون فعلاً بالأمر، وظهرت أجهزة التسجيل فراحوا يسجلون الصمت.. أي أنهم يسجلون أصوات الغرفة التي لا توجد فيها أصوات.. إنهم يستعملون أي جهاز تسجيل.. المهم أن

يكون الجهاز سليمًا عالي القدرة، وأن يستخدموا الميكروفون، وأن يكون شريط التسجيل بكرًا لأن الشرائط المستعملة تحدث أصوات صخب غير مريحة.. بعد هذا تسمع التسجيل مع رفع الصوت بشدة، ومع وضع سماعتين على الأذنين.. يضيع الكثير من الوقت، لكنك في النهاية قد تظفر بجملة.. جملة واحدة يقولها الموتى.. هناك طريقة أخرى تقضي بأن تفتح جهاز الراديو على لا محطة على الإطلاق.. "

لم أرد أن أبدو متشككًا لكن الموضوع بدا لي أقرب لكلام فارغ - وأنت توافقني - لذا قلت متمالكًا نفسي:

-"هل هناك علماء يمارسون هذا النشاط؟"

قال بفم لوثه البيض:

-"(فردريك يورجنسون) درس الموضوع بدقة، وفي أوائل الستينات كتب كتابًا مهمًا اسمه (أصوات من الفضاء) .. هناك كذلك د. (كونستانتين روديف) السويدي.. هناك رئيس الرابطة الحالي وهو امرأة ثرثارة تدعى (ساره استيب) يمقتها العلماء كثيرًا.."

كتمت خواطري بالطبع حتى ذهبنا إلى شقته فطلب مني الجلوس.. كنا في منتصف النهار والشمس البخيلة تتسلل لتغمر غرفة مكتبه في شقته الأنيقة. أعد لنفسه شرابًا ثم أدار شريطًا على جهاز التسجيل وناولني سماعتي أذن وطلب أن أثبتهما..

-"ما تسمع هو ملخص ساعات طويلة من الإصغاء والتسجيل.. بالطبع حولت كل هذا إلى عشر دقائق.."

في رهبة وضعت السماعة على أذني..

يا للضوضاء الاستاتيكية التي تذكرك بصوت الدوامات التي تسمعها عندما تضع قوقعة على أذنك.. هناك عالم كامل من الأصوات المبهمة والدوامات الصوتية.. ربما لو أغمضت عينك لسمعت أرواحًا معذبة تئن في سقر.. ربما سمعت ضحكات.. ولكن..

هناك بالفعل صوت.. بالتحديد صوت امرأة..

إنها تقول شيئًا.. لحظة.. لنركز أكثر...

".. سافات.. كامو.. مي.. مي.. كامو.. مي.... آ آ.. سي يو...... جم.. مي.."

هكذا ذرات الرمل الصوتي المتناثرة في العاصفة يمكن أن تحتشد لترسم شكلاً ما، لكن الريح تذروها في ثوان فيغيب الشكل تمامًا... تسمع كذلك ذلك الصوت يخفت ويعلو كأنه مضخة بعيدة..

("جي.. مي")

الشمس تغمر المكان لكني برغم هذا اشعر بأنها ليست كافية.. الشعر ينتصب على ظهر ساعدي.. أية خبرة مرعبة هذه!!

قال لي باسمًا:

- "..........؟"

نزعت السماعة عن أذني ونظرت في دهشة فكرر السؤال "ماذا سمعت؟". قلت:

- "صوت امرأة.. هذا كل شيء.."

- "امرأة.. هذا ببساطة صوت (اليصاباط).. العبارة التي تتردد هي (تعال لي Come to me).. ثم (افتقدك Miss you).. ثم تناديني باسمي.. جيمي.."

قلت في عصبية:

- "هذا ليس واضحًا.. "

- "لا تكن طفلاً.. صوت زوجتي وقد سجلته وأنا أحوم بجهاز التسجيل حول قبرها.. ألا يعني هذا شيئًا لك؟"

قلت له بصراحة إنني لا أفهم وليس لدي تفسير، لكن الأمر يبدو لي عسير التصديق.. كان قاطعًا ولم يسمح لي بمناقشة أي شيء..

هكذا عندما فارقته بعد ساعات كان رأسي يموج بالأفكار والهواجس، وقد قصدت عالمًا آخر أعرفه وهو كذلك طبيب باطني مرموق.. د. (لانسبيري) له عيادة صغيرة أنيقة في شارع (هارلي) المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه عيادات في لندن..

استقبلني الرجل ضئيل البنية عميق الصوت، وجلس يصغي في اهتمام لما أقول.. ابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا كلما تكلمت.. في النهاية قال لي:

- "هذا هو التفكير التواق.. التفكير الذي يوحد بين مصدقي الخرافات في العالم كله. د. (ماتيسون) عالم مدقق ممتاز، لكن فقدان زوجته هز يقينه العلمي، وهو في مرحلة يمكنه أن يصدق فيها أي شيء.. لقد منحه هذا الصوت الأمل لكنه في الحقيقة يسمع ما يريده هو.. ما يتمنى أن يسمعه.. أن يعرف أن زوجته قريبة وتكلمه.. لكن ما يسجله الجهاز في الحقيقة هو خليط من الكهرباء الاستاتيكية مع صوت محرك جهاز التسجيل نفسه.. دعك من التقاط بعض الموجات من محطات الراديو المحلية . في النهاية يصلنا هذا الخليط... هنا يمارس العقل لعبة اسمها (أبوفينيا Apophenia).. لا يفهم خليط الأصوات هذا فيحاول أن يجعله كلامًا ذا معنى.. يلتقط كلمة من هنا وكلمة من هناك ويلفق معنى لا وجود له.."

- "مستحيل أن تقنعه بذلك.."

أشعل سيجارًا غليظًا وقال:

- "فليصدق.. لو كان هذا يريحه فليفعل.. فقط أريد أن أتأكد من أنه لن يطلق الرصاص على رأسه ليلحق بها ما دام الصوت يقول له (تعال لي).. هذه الأمور تحدث.."

- "حقًا لم أفكر في هذا.. احتمال مقلق.."

ثم مددت يدي في جيبي وأخرجت الكنز الذي أخفيته طيلة هذا الوقت..

لقد سرقت الشريط من د. (ماتيسون) عندما خرج ليعد لنا بعض العصير.. ليس هذا سهلاً مع تلك الشرائط العملاقة ذات البَكَر، لكني كنت فعلاً بحاجة إلى رأي ثان..

قال (لانسبيري) باسمًا:

- "أي.. أي!.. أنت سرقت الثعلب العجوز!... لن يمر هذا على خير.."

- "آمل أن أعيد الشريط قبل أن يلاحظ اختفاءه.. أردت أن تسمعه.."

لف الشريط في موضعه ثم رفع الصوت إلى نهايته، فنبهته في تهذيب إلى أنه لابد من استعمال سماعة الأذن.. هكذا ثبت سماعتين لأذنيه وراح يصغي...

رأيته يقطب ويبدو عليه الاهتمام.. أعاد الشريط عدة مرات..

ومن جديد ارتسم القلق على وجهه..

نزع السماعتين فقلت له:

- "هل سمعت؟.. الأمر واضح.."

سألني في صرامة:

- "أين كان يضع الميكروفون؟"

- "يثبته إلى ياقة معطفه.. وضع غريب جدًا.. كان يريد ألا يلفت منظره الناس لهذا دارى كل شيء قدر وسعه"

قال في خطورة:

- "يجب أن نجده.. إن الثعلب العجوز في خطر داهم..."

- "هل تعني أنه سيقتل نفسه فعلاً؟.. نداء زوجته سوف..."

كان قد وضع معطفه على كتفيه واتجه للباب، فالتفت لي في دهشة ثم قال:

- "من تحدث عن تلك الأصوات السخيفة هنا؟.. قلت لك إن (الأبوفينيا) تفسر كل شيء.. أنا أتحدث عن ذلك الصوت اللعين في الخلفية كأنه مضخة تمتلئ وتفرغ.. هذا الرجل مصاب بتوسع متكيس في الشريان

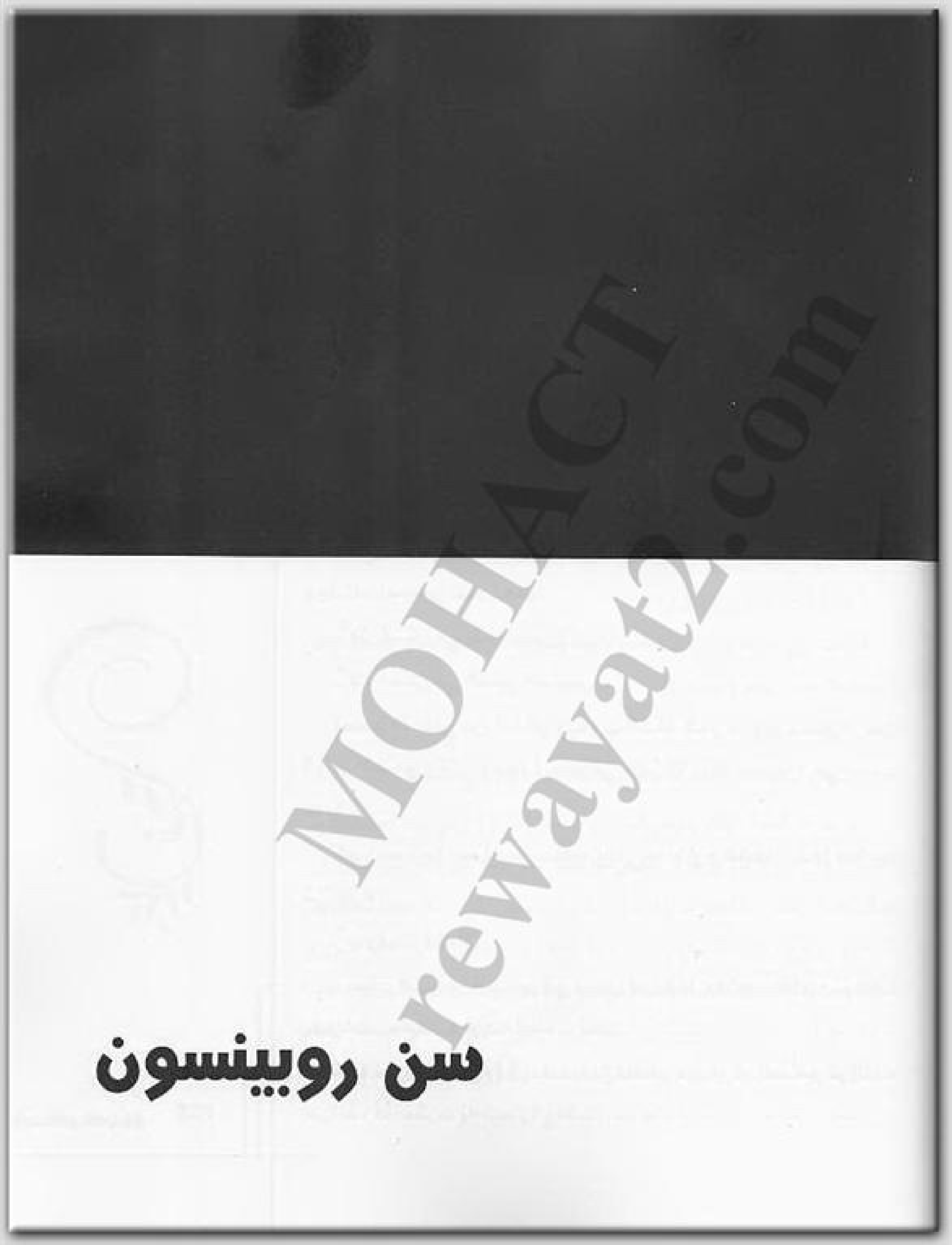


السباتي.. لقد وضع الميكروفون هناك فالتقط الصوت.. يجب أن ننقله للمستشفى ولربما احتاج إلى جراحة أوعية عاجلة"

ـ "هل تعني؟"

ـ "أعني إنه مهدد بالموت في أية لحظة لو انفجر التكيس أو تكونت فيه جلطة!!.. إن الـ EVP لم تساعده في الاتصال بالموتى، لكنها على الأقل قد تساعده ألا يصير منهم!... هيا بنا!"





سن روبينسون

يطلقون على هذه السن مصطلح (سن روبنسون) وأعتقد أنهم على حق..

عرفت (ميدو) الصغير جيدًا.. كل البناية عندنا تعرف (ميدو) الصغير، وقد بدأ الكابوس منذ تعلم المشي..

لا توجد شقة في العمارة لم يدق ميدو بابها..

العريس الشاب (ممدوح) الذي يتمنى أن يجد نفسه وحيدًا مع عروسه الجميلة (لمياء) يفاجأ بدقة على الباب.. يفتحه ليجد (ميدو).. هو صبي في السابعة ينسكب شعره الأسود الفاحم على نصف وجهه، وفي عينيه نظرة شقية لطيفة.

- "أنا ميدو"

فيبتسم العريس الشاب ويهم بغلق الباب، لولا أن (لمياء) تهرع لتحتضن الصغير وتقبله وتقدم له الحلوى، ثم تقتاده إلى الصالة ليجلس ويشاهد (سبيس تونز) معها.

- "هل تسكن في هذا الطابق؟"

- "لا.. أسكن في الطابق الخامس.."

(ممدوح) يغلي من الداخل ويجوب الشقة كنمر حبيس منتظرًا رحيل الوغد الصغير، لكن (ميدو) يستلقي على الأريكة ويروح في سبات عميق..

كاد (ممدوح) يحمله من ساقيه ليلقي به خارج الشقة، لكنها صاحت في جزع:

- "سوف توقظه!!"

وحملت الشيطان الصغير إلى فراش الزوجية ونزعت حذاءيه ثم غطته بشرشف خفيف، وتركته لينام براحته..

كلما حاول (ممدوح) أن يقنعها بالتخلص من الوغد الصغير أو إلقائه من الشرفة، نظرت له محذرة وقالت:

- "كنت رقيقًا حساسًا أيام الخطبة.. فماذا دهاك؟"

ثلاث ساعات والوغد الصغير نائم، مما يدل على أنه بلا أهل، أو أن أهله سعداء للتخلص منه. في النهاية استيقظ من النوم فجلس في الصالة يشاهد (سبيس تونز) بينما هرعت (لمياء) تعد له بعض عصير الفاكهة. في النهاية وقد انتهى ممدوح تمامًا وصار يفتح عينيه بمعجزة، أعلن ميدو أنه سيعود حتى لا تقلق عليه ماما.. ووعدهما بأن يزورهما كثيرًا جدًا..

- "أنتما لطيفان..لستما مثل الرجل الذي يسكن في الطابق السادس"

يتكلم عني طبعًا..

في الصباح التالي يفتح العريس الشاب الباب على قادم مبكر، فيفاجأ بميدو يسأل عن طانط (لمياء) ثم يدخل الشقة دون وجل، ويتجه في ثبات لغرفة النوم ليوقظ العروس.. لكنها لم تندهش.. نهضت من على الوسادة وتثاءبت وقبلته وسألته بصوت ناعس:

- "ماذا أحضرت لي اليوم؟"

فيعبث في جيبه ويخرج قطعة لزجة مقززة من البونبون يضعها على الوسادة حيث ينام (ممدوح).

- "الله!.. شكرًا.."

وتنهال عليه تقبيلاً، ثم تنهض وتأخذه من يده إلى المطبخ..

في موعد الغداء يدق جرس الباب ويدخل (ميدو) وفي يده إصبعان من الكفتة وفي اليد الأخرى عود خشبي غرست فيه قطع من (الشيش طاووق). سأل عما يأكلان فأصرت (لمياء) على أن تدس في يده بعض دبابيس الدجاج . وهكذا غادر الشقة راضيًا وقد نسف غداء العروسين تمامًا فلم يبق لديهما ما يأكلانه إلا السلاطة. وفوجئ (ممدوح) به يصعد الدرج قاصدًا شقة أخرى!.. إذن هذا الشيطان الصغير يمر على شقق البناية ليجمع اللحم من كل شقة!.. هو لا يضيع وقته في جمع الفاكهة أو الأرز بل هدفه محدد وواضح.. النتيجة أن البناية كلها صارت تعج بالجياع!



بعد ساعتين عاد الصبي لينام على الأريكة ثلاث ساعات كاملة.

عندما بدأ يصرخ طالبًا لعبة أصرت (لمياء) على أن يأخذه (ممدوح) إلى السوبر ماركت أسفل البناية ليبتاع ما يريد لأنه ملاك صغير. هكذا نزل معه وهو يسب ويلعن في سره، وهناك شعر بأن الصبي لا يختار لعبة وإنما هو يقوم بتعبئة جوال بطاطس في حقل.. إنه ينتقي ألعابًا لا يريدها ولا تهمه في شيء فقط لتكون عنده، ولربما كي يحرم صاحب السوبر ماركت منها!

عندما قابلت (ممدوح) على السلم حييته وهنأته على الزواج. كان من الريف لهذا كان أول شيء فعله عندما سكن في بنايتنا هو أن خرج بالروب وراح يوزع الكعك على شقق البناية شقة شقة، وهو شيء لم نره منذ عام 1867 ، وهكذا كسب قلب كل السكان...

لهذا وقفت أثرثر معه كأننا متعارفان منذ عشرات السنين..

كان مرهقًا منتفخ العينين، وقد سألته عن السبب متوقعًا أن زوجته هي السبب لأنها شيطان رجيم مثلاً، لكنه قال لي:

ـ "ميدو هذا!"

إذن (فميدو) قد زاره!.. قلت له باسمًا:

ـ "يجب أن تكون لطيفًا معه . كلنا كذلك حتى لو لم نتحمله"

ـ "لقد صار في كل مكان.. في كل ركن.. لا أستطيع الخلاص منه.. إنني على شفا الانهيار العصبي"

قلت له ضاحكًا:

ـ "ميدو في السابعة.. هذه هي السن التي يطلقون عليها في الغرب اسم (سن روبنسون).. أي إنه يعاني حالة ظمأ شديد للاستكشاف ومعرفة كل شيء جديد.. كأنه (روبنسن كروزو) ، لكنه سوف يمل بيتك سريعًا ويكف عن ملاحقتك.. أنت بالنسبة له مجرد لعبة جديدة.."

حك رأسه وشعره المنكوش المبعثر وقال:

-"فليمل أو يكبر بسرعة أو يمت .. أعصابي لم تعد تتحمل!"

ثم تذكر شيئًا فسألني:

-"من أهله؟"

-"مهندس (السيد عوض).. الأم معلمة تدعى إلهام.. يبدو أنك لم تقابلهما منذ جئت البناية.. هما يقيمان في الطابق الخامس"

قال مفكرًا:

-"فعلاً لم أرهما.. لم أصعد للطابق الخامس أثناء توزيع الكعك.. هل ترى أن أخبرهما؟.. ربما يتذكران أن في عروقهما دمًا ويربيان ابنهما جيدًا"

-"لا أنصحك بهذا.. هما ليسا ودودين على الإطلاق وأعتقد أنهما موشكان على الطلاق.."

فكر (ممدوح) في الأمر.. يا للمسكين!.. لهذا يحب (ميدو) أن يجوب شقق البناية ولا يعود لشقته أبدًا.. عندما يتشاجر الأبوان يشعر الطفل بأن أساس وجوده ذاته مهدد، ويبدأ الشعور بالقلق.. هل يتركانه؟.. هل ينفصلان ليجد نفسه جائعًا في الشارع؟

لهذا عندما عاد إلى الدار ووجد (ميدو) في غرفة النوم - بالحذاء - يلعب على الفراش مع طانط (لمياء) لم يحتد غضبًا، بل إنه جرؤ على دعوة الصغير للغداء، فقالت (لمياء):

-"واضح أنك رائق البال اليوم.. ما هذا الكرم؟"

قال في غموض :

-"سن روبنسون .!. هذا كل شيء.."

على مائدة الغداء راح يسأل الصغير عن أهله محاولاً انتزاع أية معلومات، لكن الغلام لم يكن يجيب عن أسئلة من هذا النوع على الإطلاق كأنه لا يسمعها..

لم يكمل (ميدو) الطعام ونهض ليشغل جهاز التلفزيون، وراح يقلب القنوات بسرعة شديدة حتى صاح به (ممدوح) أن يتمهل قليلاً قبل أن... قبل أن يتلف التلفزيون كما حدث فعلاً.. فجأة صارت الشاشة مظلمة فيما عدا خطًا أزرق يتراقص.. نهض ممدوح في عصبية صارخًا فأجفل (ميدو) وترك جهاز (الريموت) يسقط على الأرض فيتهشم..

كاد يحطم رأس الغلام لولا أن صاحت (لمياء) في حزم وهي تدفعه بيدها:

ـ "ماذا هنالك؟.. لم يحدث شيء.. سوف نصلحه لكن لا تفزع الصغير.. أنت قلت إنه سن روبسن"

ـ "سن روبنسون.. لم أقل هذا لكن قاله جارنا (محفوظ).. "

هنا أعلن (ميدو) أنه سيذهب لينام...

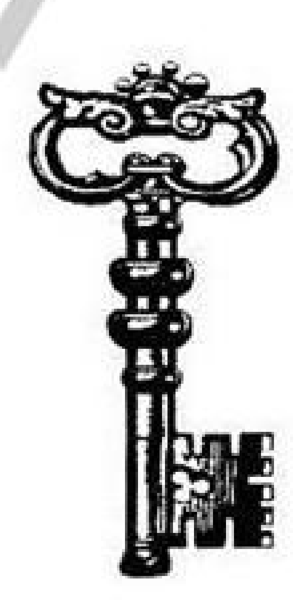
وتمنى (ممدوح) أن يكون قد أصاب الغلام بالذعر لدرجة ألا يعود.. فليحل مشاكله النفسية في مكان آخر لكن وجوده لم يعد مرغوبًا فيه أبدًا..

قابلني على الدرج وهو يحمل جهاز التلفزيون ويلهث، وبالطبع لم تكن سني تسمح لي بمساعدته. سألته عما حدث فقال إنه (ميدو)..

قلت له باسمًا:

ـ "حدث هذا عندي منذ عامين.. إن بين هذا الصبي وأجهزة التلفزيون علاقة عداء مريبة، ولو كنت متنبهًا لأنذرتك"

حمل التلفزيون مرهقًا إلى من يصلح هذه الأشياء، وعرف أن عليه أن يدفع مبلغًا فلكيًا لإصلاحه.. هكذا لم يعد على استعداد للترحيب بهذا الصبي ثانية. وقد وجد ذات مرة قطعًا من الحلوى في الصالة فأدرك أن (ميدو) كان هنا، من ثم انفجر في زوجته صارخًا.. لقد صار يتعامل مع (ميدو) ابن سبعة الأعوام كأنه عشيق يتسلل لداره كلما خرج..



على أنه استطاع أخيرًا أن يقابل مهندس (السيد عوض) هذا.. كان يقف مع البواب يثرثر عندما مر به رجل في الخمسين يلبس نظارة سوداء مطرق الرأس، وحياهما بسرعة فقال البواب: "تفضل يا باشمهندس.." ثم أردف هذا مناديًا الرجل:

-"باشمهندس (سيد).. لم أتقاض حساب نور السلم بعد"

هكذا صارت القصة واضحة.. مهندس لم يره ممدوح من قبل واسمه (سيد).. لا توجد احتمالات عديدة..ركض خلفه مصافحًا وقال:

-"هل أنت والد ميدو؟"

نظر له المهندس سريعًا وهز رأسه أن نعم ثم بادر بالانصراف.. تذكر (ممدوح) ما قلته أنا عن أن الرجل ليس ودودًا على الإطلاق. لو شكا له الشيطان الصغير فلسوف يتشاجر معه بالتأكيد فهو يقطر سماجة وخشونة.

لقد كف (ميدو) عن زيارة العريسين على كل حال.. لم يعد يستلبهما لحم الغداء، ولم يعد ينام على الأريكة. لقد انتهى عصر الرعب..

كان هذا هو وقت زيارتي الأول أنا وزوجتي للعريسين، وقد رأيت أن أؤجلها نحو أسبوعين أو أكثر إلى أن يعتادا البناية. هكذا جلسنا في صالون دارهما والعروس تعد لنا بعض العصير ومعها زوجتي، بينما رحت انهر أولادي الذين ينوون تخريب البيت..

قال لي ممدوح ضاحكًا:

-"لقد كف (ميدو) عن زيارتنا.."

قلت في جدية:

-"لقد تنبأت بهذا.. لقد زار جارنا (عوني) منذ أربعة أعوام فكاد يصيبه بالجنون من كثرة الزيارات، ثم كف عن ذلك ولم يره الرجل منذ ذلك الحين"

قال (ممدوح) في غباء:

- "لحظة.. أنت تكلمت عن جهاز التلفزيون الذي أتلفه منذ عامين، وزيارة (عوني) التي تمت منذ أربعة أعوام.. كيف ظل الغلام في سن (روبنسون) منذ ذلك الحين؟"

نظرت له وفهمت.. إنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق.. هذه غلطتي وقد كنت أعتبره يعرف القصة كلها..

- "(ميدو) في السابعة للأبد يا (ممدوح)!"

- "ماذا تعني؟"

ابتلعت ريقي ونظرت للباب كي أتأكد من أن زوجته لا تسمع وقلت:

- "كما تعرف فإن سن روبنسون هذه تدفع الأطفال لتجربة الجديد والمخاطرة بحياتهم.. في يوم منذ ستة أعوام قرر (ميدو) أن يجرب الهبوط لأسفل.. فقط لم يفعل هذا بوساطة الدرج بل عن طريق ماسورة المياه في المسقط!.. غادر نافذة الحمام وجرب.. لكن يده انزلقت وهوى ليتحطم في المسقط.. كان في سن السابعة"

شهق ممدوح غير مصدق.. فقلت :

- "نعم.. لكن الأسوأ هو أن الأم والأب ظلا يعتقدان أنه عائد... عرفنا أنهما على حق عندما بدأ (ميدو) يرتاد شقق البناية.. يظهر في شقة أو أخرى ليثير هلع سكانها لكنه يلعب قليلاً ويرحل.. بعد فترة يكف عن زيارتها. عرف السكان هذا وقرروا أن يصمتوا وألا يصابوا بالذعر.. عندما يأتي سكان جدد للبناية لا نخبرهم بالقصة لأننا نعرف أنه سيتركهم بعد قليل فلا داعي لتدمير حياتهم... إن (ميدو) سيظل في سن روبنسون للأبد.."

- "و.. والطعام الذي يجمعه من البيوت؟"

- "لا يفعل به شيئًا... لو صعدت للسطح لوجدته ملقى هناك"

ظل ينظر لي بفم مفتوح.. لا يعرف إن كان يصدق أم لا . فقلت له:

- "يمكنك أن تسأل الجيران او البواب غدًا.. حتى تلك اللحظة أنت محق في الشك في كلامي"

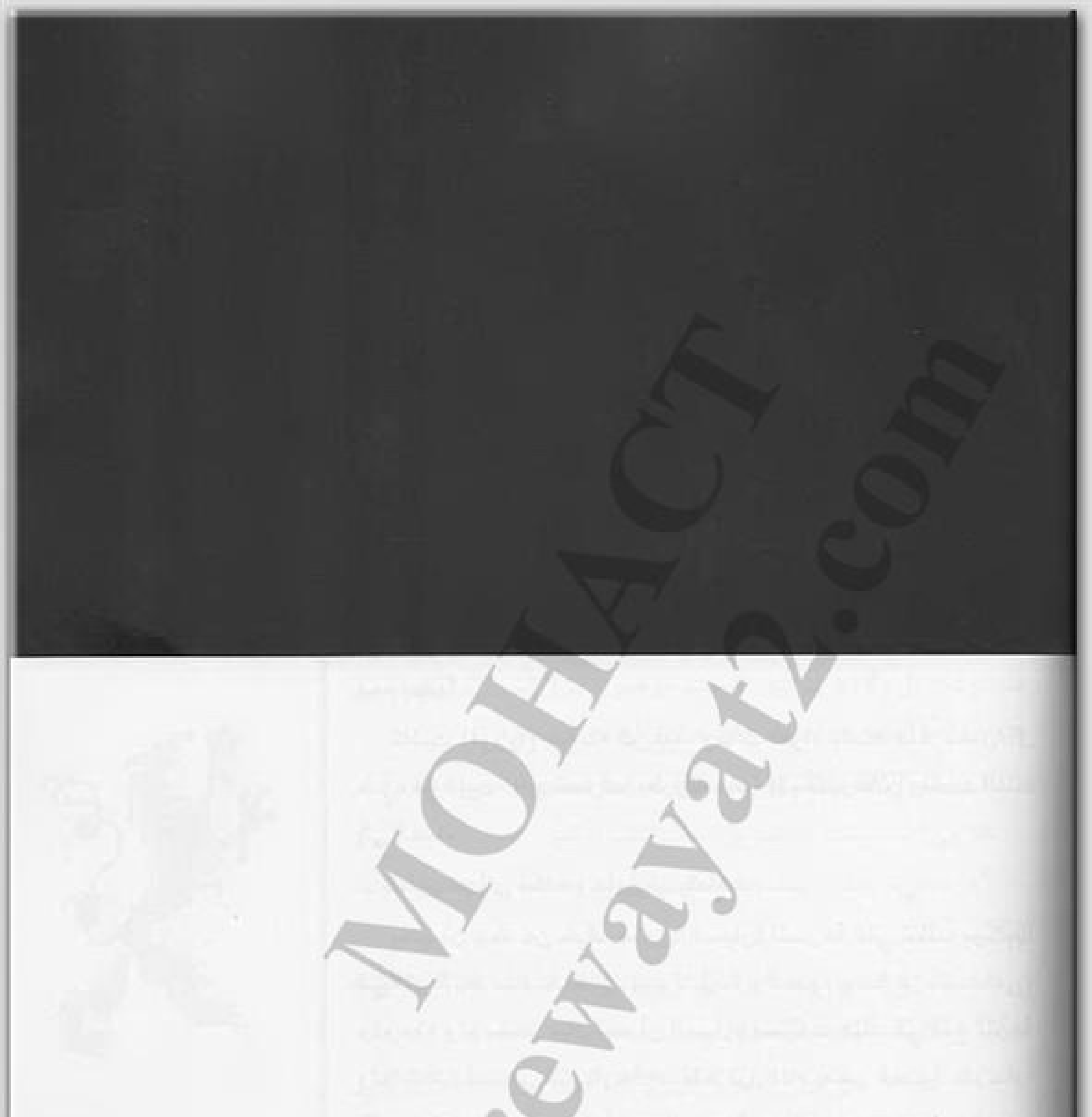
في هذه اللحظة رفع (ممدوح) عينيه ببطء..

كان ميدو يقف على باب الصالون ويده في يد (لمياء) وعلى وجهه ضحكة طفولية..

كان ينظر له بعينين حلوتين ويقول:

- "جئت كي ألعب مع طانط (لمياء) قليلاً.. هل توافق يا عمو (ممدوح)؟"

***



مسكينة

عندما جاءت (سلمى) إلى دار عمها الحاج (صلاح البنهاوي) للمرة الأولى شعر بأنها هشة جدًا..

كانت في السابعة من عمرها.. لها شعر قصير ناعم كأنه سطح مصقول وعينان عسليتان تتغيران في ضوء الشمس لتصيرا بلون الذهب.. عينان تحتلان ثلثي وجهها بلا مبالغة بينما احتشدت باقي ملامح الوجه في الثلث الباقي.. هناك أنف وفم وخدان كل هذا في رقعة صغيرة جدًا. ترتدي ثوبًا أزرق بسيطًا، وفي يدها دمية من القماش تحتضنها في عصبية. فما إن رآها حتى تذكر أخاه (مصطفى) رحمه الله وانفجر في البكاء..

احتضنها وراح ينهنه وهو يدفن أنفه في شعرها، فقالت له في رفق:

ـ"عمو... أنفك ملوث بالمخاط وأنت تمسحه في شعري!"

تنبه فابعد أنفه عنها، وقال لزوجته بلهجة آمرة:

ـ"أعطيها حمامًا ثم أعدي لها لقمة يا فوزية.. لابد أن المسكينة على لحم بطنها.."

كانت (فوزية) قريبته الريفية، وكانت امرأة باسلة فعلاً تعمل كل شيء في البيت، وقد تصرفت بطريقة عملية فلم تظهر تأثرًا وأخذت الفتاة إلى الحمام..

جلس هو إلى مكتبه وحاول أن يتماسك..

يجب أن يبعد عن خياله صورة السيارة المسرعة التي تنقلب بركابها في الترعة بعد منتصف الليل. يوم كامل مر والجميع يبحث عن (مصطفى) وزوجته ولم يخطر ببال أحد أن السيارة استقرت هناك في قاع الترعة ولم يتمكن أحد من فتح الزجاج.. فقط نزل الماء بعض الصبية ففوجئوا بالسيارة.. وعندما انتشلها الرجال لم يكن هناك داع للبحث عن أحياء، لكنهم فوجئوا بالطفلة تسعل وتتنفس..

ـ"الأعمار بيد الله.."

قالها لنفسه وأشعل لفافة تبغ..

مر ابنه (عصام) أمام الباب فناداه.. (عصام) في التاسعة من العمر لكنه (ناصح) ونبيه ولسانه طلق جدير بأن يكون ابن تاجر، ويحضر جلسات المساومة مع أبيه ويجلس مع كل أصدقائه..

جاء (عصام) فقال له الحاج:

-"اسمع.. (سلمى) ابنة أخي ستقيم معنا على طول.. أريد أن تكون رجلاً.. يجب أن تريحها وتشاركها اللعب ولا تضايقها أبدًا.. أعرف أنك شيطان رجيم لكني أطالبك بأن تتخلى عن عاداتك بعض الوقت"

عندما جاء المساء أخذ الطفلة معه إلى طبيب أطفال.. طبيب الأطفال فحصها بعناية ثم أرسلهما إلى طبيب أمراض قلب صديق له، وهذا فحصها جيدًا وبدا عليه القلق..

طلب من الطفلة أن تخرج من الغرفة، ثم نظر للحاج في توتر وقال:

-"هناك أكثر من عيب خلقي في القلب.. لا أعرف كيف ظلت حية كل هذا الوقت، بل ولا أعرف كيف تحملت موضوع غرق السيارة الذي تحكي عنه، لكن ما أعرفه هو أن عمرها محدود.. لن تعيش كثيرًا.."

شعر الحاج بقلبه يتمزق.. هل هناك جراحة تصلح الأمر يا دكتور؟

كنا في السبعينات، وكانت جراحات القلب بدائية..

-"لا شيء يمكن عمله.. فقط حاول أن تحافظ عليها من الجهد الزائد.."

عاد الحاج للدار مهمومًا وأخبر زوجته همسًا.. هذه الفتاة مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش طويلاً...

سالت دمعة من عين السيدة قوية الشخصية، وأقسمت أن تعنى بالطفلة حتى آخر لحظة من حياتها..

في الوقت ذاته كان (عصام) يلعب معها في الصالة.. اختطف منها لعبتها القماشية فأطلقت صرخة عجيبة . صرخة حيوانية حادة طويلة، وراحت تجري وراءه وهو يتملص منها..



خرج الحاج (عصام) من غرفة المكتب مذعورًا فأمسك بابنه وهوى على وجهه بصفعة قوية:

-"لا تتعبها أيها الحيوان!..."

ثم انتزع الدمية من يده وناولها لها..

فيما بعد اختلى بابنه الباكي في غرفة المكتب وقال له همسًا:

-" الفتاة مريضة جدًا.. مسكينة.. لن تعيش طويلاً.. يجب أن تتحملها"

في المدرسة عرفت المعلمات سرًا أن (سلمى) مريضة جدًا لهذا رحن يدللنها، ورحن يضربن بعنف كل من يضايقها.. وأرغمن واحدة من الفتيات على القيام بالواجبات الصعبة التي تكلف بها..

توفي الحاج (صلاح) بعد أسبوعين، والسبب نوبة قلبية.. لقد سمع زوجته (فوزية) تعنف الفتاة لأنها لم تجذب السيفون بعد ما خرجت من الحمام، والفتاة تصرخ صرختها المميزة الطويلة الشبيهة بصفارة الإنذار..

خرج من مكتبه غاضبًا وسب (فوزية) وسب أهلها وكاد يصفعها.. احتقن وجهه وراح يسعل، ثم قال إنه يشعر بإنهاك شديد وإنه يرغب في كوب ماء...

عندما جلبت له كوب الماء كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هؤلاء المحتضرون لا يشربون أبدًا كوب الماء الذي طلبوه.. لكنه وجد لديه من القوة ما يسمح بأن يقول:

-"اعتني بـ (سلمى)... إنها ابنتك.. لا تقسي عليها أبدًا فهي مريضة جدًا.."

ثم أغمض عينيه مع صوت الصرخة التي انطلقت من زوجته..

هكذا نشأت (سلمى) في البيت الذي فقد عائله.. وكانت الأم تنظر

لها وتفكر: "هذه البائسة فقدت اباها وعمها.. بالإضافة لهذا هي مريضة جدًا.. يا لها من تعسة!"

كبر (عصام) وتولى شئون تجارة أبيه، بينما واصلت (سلمى) الدراسة حتى تخرجت في كلية التجارة..

جاء اليوم الذي اختلت به أمه في غرفة مغلقة وقالت له همسًا:

-"هل فكرت في الزواج بعد؟"

-"لا.."

-"إذن لماذا لا تفكر في ابنة عمك (سلمى)؟.. إنها فتاة رقيقة مهذبة ونحن نعرفها.. أنت تعرف بنات هذه الأيام اللاتي يرقصن في الديسكو ويشربن المخدرات طيلة اليوم..كلهن يرقصن في الديسكو.. صدقني.. أنا أعرف هذا.. (سلمى) مريضة جدًا لكن لو أعطاها الله عمرًا لصارت زوجة صالحة، ولو توفاها الله فأنت قد قدمت لها معروفًا وسترتها.."

كان يشعر بأن (سلمى) بمثابة أخته لكن كلمات أمه جعلته يدرك أنها فتاة رقيقة جميلة فعلاً وأنها امرأة..

هكذا تزوجا.. ولم يلمسها إلا مرات قليلة جدًا وبحذر شديد لأنه كان يتوقع أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في أية لحظة.. حرص كذلك على ألا تحمل لأنه لا يتصور هذا الكائن الهش على منضدة الولادة..

توفي (عصام) بعد الزواج بستة أشهر، والسبب هو مشادة مع بعض التجار حول سعر شحنة فاكهة جلبوها له وقد رفض أن يأخذها، من ثم احتدمت النفوس وتهور مجنون منهم ليهشم رأسه بسنجه ثقلها عشرون كيلوجرامًا..

وسط النساء المعزيات جلست (سلمى) نبيلة شامخة رقيقة كالحلم. إن الأسود يناسبها جدًا.. وقالت أكثر من امرأة إنها فتاة مسكينة.. مريضة جدًا ولن تعيش طويلاً... فقدت الزوج والأب والعم.. من لها يا ولداه؟

كان هذا عندما شعر د.(ماهر) بامتلاء مثانته وهو جالس في سرادق العزاء بين الرجال.. أشار له أخو (فوزية) إلى مكان الحمام فنهض ليدخل البيت ويمر وسط صف النساء الجالسات في الردهة.. لحظة واحدة وقعت فيها عيناه على عيني (سلمى) الواسعتين اللتين لا تتركان موضعًا لقدم وسط وجهها..

عاد وهو يغمغم لنفسه: "مسكينة..."

د. (ماهر) زميل لي في ذات الكلية وهو إنسان محترم بالمعنى الحرفي للكلمة. بينه وأخي (فوزية) صداقة قديمة... إنه لم يتزوج بعد برغم أنه في الأربعين من العمر..

هكذا بعد شهر واحد كان جالسًا في الصالون مع (فوزية) وأخيها... كانت فوزية صامتة موشكة على البكاء في أية لحظة . عسير على المرأة أن تزوج أرملة ابنها، لكن أخاها كان ريفيًا عملي التفكير، وقد قال أكثر من مرة:

-"الحي أبقى من الميت.. ونحن في النهاية لن نطالبها بألا تتزوج للأبد احترامًا لذكرى المرحوم ابنك.. هذا حرام.. ثم إن زوجك أوصاك بأن تعتبريها ابنتك.. ما كنت لتتركي ابنتك من دون زواج"

تم الزواج بعد انتهاء العام.. وقد أوصت (فوزية) العريس بأن يرفق بالفتاة فهي "مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش طويلاً.."

كان هو متفانيًا كالفرسان.. وقد دعاني لحفل الزفاف الذي كان متواضعًا حييًا لأسباب لا تخفى على أحد.. بدت لي (سلمى) رقيقة جدًا مرهفة كأنها شبح.. ورق قلبي عندما عرفت أنها مريضة جدًا.. ومسكينة لن تعيش طويلاً...

قال ماهر:

-"سوف أكون خادمًا لها مدى الحياة.. لو اختارها الله جواره فلسوف تذهب بعد ما تكون عرفت مذاق السعادة"



توفي (ماهر) بعد ثلاثة أشهر في حادث سيارة مروع...وقد جاء الناس للعزاء وهم يعرفون قصة (سلمى) كاملة.. الملاك الصغير الذي حرم الأب والعم والزوج الأول والثاني.. أضف لهذا أنها مسكينة ولن تعيش طويلاً...

كنت غارقًا في ذكريات هذه المأساة عندما فوجئت بزيارة منها في مكتبي..

رقيقة شاحبة هشة في ثوب أسود أنيق.. قالت لي وعيناها تغسلان روحي:

-"المرحوم (ماهر) قال إنه يثق بك وإنه لو كان له أخ فهو أنت.."

-"هذا صحيح.. ولكن...؟"

-"كان يقول إنه لو حدث له شيء فأنت قادر على إنهاء إجراءاته في الجامعة.. المستحقات المالية... أنا لا أفهم هذه الأمور"

قلت في حماس:

-"طبعًا.. طبعًا.. سوف يأتيك كل مليم إلى بيتك"

وانطلقت أنهي الإجراءات بسرعة البرق وتشاجرت مع كل الموظفين تقريبًا..إنها مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش طويلاً...

بالمناسبة.. كيف يكون شعور الرجل إذا تزوج اثنتين؟.. هذا حلال شرعًا لكننا نحرمه على أنفسنا بحكم العرف.. حرام والله..

كنت أعد المال الذي سأسلمه لها، عندما دق باب مكتبي فرفعت رأسي..

وجدت أخا (فوزية) يقف على الباب.. إنني أعرفه.. اسمه (فوزي) وهو موظف في الري، وبرغم السنين في القاهرة لم يتخلص من طابعه الريفي مع روح دعابة قوية، لكنه لم يبد على استعداد للمزاح الآن...

قال لي وهو يجفف عرقه:

ـ"عرفت أن (سلمى) جاءتك تطلب مساعدتها في الإجراءات.. هناك شيء معين لا يريحني بصدد (سلمى) هذه.."

قلت في حنان:

ـ" هي مخلوقة تعسة الحظ.. مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش طويلاً..."

ـ"هذا ما نقوله منذ عشرين سنة.. أنا أجريت بعض البحث، وعرفت شيئًا غريبًا.. هل تعرف أنها ليست ابنة (مصطفى البنهاوي) رحمه الله؟.. حتى أخيه الحاج (صلاح) زوج أختي لم يعرف هذا.."

ـ"ماذا تعني؟"

ـ"إنها لقيطة وجدها (مصطفى) رضيعة وقرر أن يتبناها من دون أية أوراق رسمية.. قام بتزوير شهادة ميلاد، وكان يعمل في السويس فكتب لأهله في القاهرة يخبرهم أن زوجته أنجبت.. أراد أن تعيش حياة طبيعية فلا يعايرها أحد بأنها لقيطة أبدًا.. ورباها حتى صارت في السابعة عندما مات في ذلك الحادث.. لا يعرف هذا السر سوى خادمة عجوز كانت عندهم.."

ـ"ومعنى هذا؟"

اتسعت عيناه وقال:

ـ"معناه أن أحدًا لا يعرف عنها أي شيء.. لا أحد يعرف من أين جاءت ولا من أبواها الحقيقيان.. والآن ألا تجد أن شيئًا غريبًا يحيط بهذه الفتاة؟.. كل من رآها شعر بأنه مكلف برعايتها... وكل من تعامل معها مات.. بينما هي.. هي..."

وصمت وارتجف..

ارتجفت بدوري وأنا أفكر...

طفلة في سيارة تحت الماء لمدة يومين كاملين ولا يحدث لها شيء، برغم أنها كانت مع جثتين..

كل من تعامل معها قد مات..

وبرغم هذا يرق لها الجميع لأنها مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش طويلاً...

يقولون هذا ويموتون....

إن (سلمى) لغز حقيقي... إنها قريبة جدًا من سر الموت..

ربما هي الموت ذاته في صورة إنسان..

ما أعرفه يقينًا هو أني لا أريد أن أراها ثانية..!

***



عاشق اللوحات

في العام 1993 عرفت المستر (كارازيان)..

منذ اللحظة الأولى ميزت أذني هذه (اليان) التي تدل على إنه أرمني.. الأرمن كثيرون في مصر، وبعضهم صاروا مصريين كالمصريين أنفسهم ، ويبدو أن في لغتهم شيئًا يجعلهم يتعلمون العربية بسهولة وبلا أية لكنة غربية..

عرفته عن طريق د. (عدنان) صديقي الذي كان من الإسكندرية، وقد حدثني عن القصر الصغير الذي يسكن فيه ذلك الرجل الفريد..

ذهبنا لزيارته في يوم ممطر من شهر ديسمبر، وقد أثار القصر إعجابي منذ البداية بسبب ذوقه الفريد. فتحت لنا الباب فتاة لم أر جمالاً كجمالها قط، وكان يتدلى قرط جميل من أذنها كأنه اللؤلؤ. دعتنا بإشارة للدخول، وفي البهو رأيت (بيانو) من طراز أثري جميل تعزف عليه فتاة أخرى ذات جمال نبيل شديد الرقي والأرستقراطية.. رأتنا فابتسمت في حياء وغادرت المكان مسرعة ، فقلت لنفسي إن أفضل مجاملة تقدمها لنا هي أن تظل جالسة حيث هي..

أما المستر (كارازيان) نفسه فقد جلسنا ننتظره في غرفة انتظار فاخرة مزدانة بتماثيل رائعة بالحجم الطبيعي للإنسان..

ظهر من أعلى الدرج وهو يرتدي - كما توقعت بالضبط - ذلك الروب القصير اللامع، ومن تحته قميص وربطة عنق وفي يده سيجار غليظ.. لا ينقصه إلا دلو به زجاجات شمبانيا وبعض التفاح وفتاة بريئة يغرر بها كي يصير أحد أشرار الأفلام العربية القديمة..

تأمل هذا الشارب الرفيع والنظرة الناعسة في عينيه.. هذا رجل عاش شبابه مع النساء وقد خدع منهن الكثيرات بلا شك.. الفتيات اللاتي رأيناهن لم يتم اختيارهن بالصدفة إذن.. هن مختارات (على الفرازة) كما يقولون..

صافحني في تحفظ بينما ارتمى حرفيًا في أحضان عدنان صديقه الحميم، وكان يتحدث عربية ممتازة كما قلت لك..

-"مصر بلد جميل.. لا اذهب إلى أوروبا إلا وأفتقد كل شيء هنا.. خاصة هذا الوغد"

قالها وهو يلكم عدنان بين لوحي كتفيه مداعبًا فأطلق عدنان أنة مرحة وقال لي:

-"مستر (كارازيان) مولع جدًا بالتحف واللوحات.."

-"هذا واضح.."

قلتها وأنا أتذكر الفتاة التي تعزف على البيانو.. هذه تحفة جديرة بالاقتناء فعلاً..

أخذنا مستر (كارازيان) إلى باب في ركن الغرفة وفتحه.. ثم مشى يتقدمنا وسط رواق طويل على جانبيه لوحات لا أعرف كيف أصفها لك.. لقد رأيت اللوفر فشعرت بشعور مماثل، لكن اللوفر ملك الحكومة الفرنسية وليس ملك شخص واحد مهما كان ثريًا..

هناك لوحات أصلية ترى عليها ضربات فرشاة الرسام.. عرفت أسلوب (ديلاكروا) المميز، ورأيت وجوه (الجريكو) المعذبة المتطلعة إلى السماء، ورأيت ضربات فرشاة (رينوار) الظامئة إلى النور، والضوء الذهبي القادم من اليسار المميز لرمبرانت.. (ساسكيا) زوجة الفنان.. الأجساد المكتنزة البدينة الرخوة المميزة لعالم (روبنز)..

توقفت ونظرت للثري الفخور في ذهول:

-"هل هذه؟"

ابتسم وقد توقع ما سأقول :

-"نعم.. أصلية.."

-"مستحيل.. وإلا فأنت أغنى من قارون.. هذه اللوحات لا تقدر بثمن.."

قال ضاحكًا:



-"يسرني أن أجد في مصر من يفهم هذه الأمور.. عهدي بالمصريين أنهم لا يهتمون بالفن التشكيلي على الإطلاق.. لكم من ضيف مر بهذه الصالة فلم يهتم.. فقط يقول لي مجاملاً: لوحات جميلة.. ثم ينسى الأمر نهائيًا.."

كنت قد كونت وجهة نظر معقولة.. هذا الرجل يتعامل مع مافيا لوحات عالمية.. إنه لص آثار، وقد اختار أن يكون في مصر حيث يظل بعيدًا عن عيون الشرطة لأن تواجده في أوروبا يعني افتضاح أمره سريعًا...

الاحتمال الثاني هو أن هذه لوحات مزورة.. قام بتزويرها فنانون على قدر عال من الحرفية. يحتاج الأمر إلى ناقد فني أو أستاذ فنون جميلة، وربما احتاج إلى فحص بالكربون لمعرفة عمر هذه اللوحات الحقيقي..

كانت هناك لوحة تمثل مقعدًا مزخرفًا شامخًا وسط ستائر حمراء. لوحة جميلة جدًا لكن ثمة شيء ينقصها... كذلك كانت هناك لوحة لأريكة شرقية طويلة كان من الأجمل لو جلست عليها حسناء ما، لكن الفنان فضل أن يتركها كما هي..

هناك لوحة عبارة عن مساحة سوداء لا شيء فيها.. لوحة غريبة جدًا...

توقفت أمام هذه اللوحة وسألت مستر (كارازيان) عنها فقال:

-"هذه لوحة لفيرمير.. كان يبدأ بسطح أسود تمامًا ، لكنه لم يرسم أي شيء عليها حتى مات.. برغم هذا تظل قطعة فنية مهمة.. هل تعرف تمثال (العبد) لمايكل أنجلو الذي لم يستكمله قط؟.. برغم هذا يعتبر قطعة فنية مهمة"

عندما غادرت وعدنان المكان كنت في حالة من الذهول..

سألني عن رأيي فقلت:

-"صاحبك لا يريحني البتة إلا كما يريحك التعامل مع أي لص.. لكن اللوحات تهمني وقد حركت شيئًا في روحي، وأعتقد أنني سأعود.."

بالفعل اعتدت كلما نزلت إلى الإسكندرية أن أتصل بالمستر (كارازيان) طالبًا أن يسمح لي بزيارة، ويبدو أن هذا كان يسره...

صرت أعرف لوحاته جيدًا وأحفظ موضع كل لوحة منها تقريبًا.. صحيح ان مواضعها تتغير وبعض اللوحات تختفي لتظهر لوحات أخرى ، لكني كنت أعرف بالتقريب أهم القطع.. هذا الركن فيه لوحات (هنري روسو) وهنا بعض الانطباعيين.. (بوشيه) هنا و(ألما تاديما) هناك..

فقط كانت الحسان اللاتي يقابلنني بالصدفة عند (كارازيان) يتغيرن، ولم يتكلم عنهن قط كما لم أجسر على فتح الموضوع.. ربما أتكلم عن تلك الحسناء أو تلك فيتضح أنها ابنته أو زوجته..

استمرت صداقتي مع الرجل عامين، وكان أن قابلت د. (عدنان) في القاهرة ذات مرة ، فرحنا نتحدث عن الإسكندرية..

سألته عن مستر (كارازيان) وكيف قابله لأول مرة فقال:

- "قابلتـه كمـا قابلتـه أنـت.. صديـق مشتـرك أخذنـي هنـاك وعرفني بالرجل.."

- "لابد أنه في مصر منذ زمن بعيد ما دام يجيد العربية بهذا الشكل.."

قال ضاحكًا:

- "لا.. قد جاء منذ ثلاثة أعوام وابتاع هذا القصر.. ليست صداقتنا قديمة إلى هذا الحد.."

كنت أفكر في كلامه بعمق...

عندما زرت قصر (كارازيان) في المرة التالية ، فتحت لي الباب تلك الخادمة الحسناء ذات القرط الشبيه باللؤلؤ.. ضحكت كعادتها وأشارت إلى الداخل.. هي لا تتكلم أبدًا... قلت لها:

- "إن ملامحك غير مصرية.. هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟"

نظرت لي واتسعت ضحكتها أكثر ولم تقل شيئًا.. لا تنوي أن تتكلم.. دخلت القصر وفي البهو الفسيح كانت هناك فتاة رشيقة بارعة الجمال

تـؤدي بعض الحـركات التـي تذكـرك برقـص الباليـه أو تدريبات الجمباز الإيقاعي..

رأتني فكففت عما تفعله، فدنوت منها وسألتها بجرأة :

-"هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟"

ابتسمت بدورها وقالت كلمة ما بالفرنسية وهرعت تبتعد...

كان الباب الذي يقود إلى متحف اللوحات مفتوحًا فدخلت.. قدرت أن الرجل لن يتضايق من هذا التحرر الزائد من ناحيتي ما دمت دخلت هنا عشرات المرات..

كانت هناك لوحة جديدة تظهر مشهدًا صامتًا : هناك مسرح عليه مشاعل مثبتة على خشبته وهي تعكس ضوءًا رهيبًا، لكن المسرح خال تمامًا.. لا أذكر أن هناك لوحة عالمية بهذا الشكل...

كانت هناك لوحة شهيرة جدًا تمثل مدام (ريكامييه) الرقيقة في وضع بين الرقاد والجلوس على أريكة شرقية.. هذه لوحة جديدة على قدر علمي.. هل هي بريشة (ديفيد) أم (كونستابل)؟.. بصراحة لا أذكر..

وفجأة تصلبت..

تلك الفتاة الرقيقة التي تعزف البيانو والتي قابلتها في البهو أكثر من مرة من قبل.. ألا تحمل بالضبط ملامح مدام ريكامييه؟...

هنا شعرت به يقف خلفي فأجفلت واستدرت بسرعة. كان يقف هناك بذات الروب اللامع الذي لم أره إلا به، وكان ينظر للوحة في إعجاب غير مبال بي، ثم قال:



-"نعم.. هن رائعات.. الحلم الذي ظل يؤرقني هو أنني كنت أتمنى أن أجدهن حولي بشحمهن ولحمهن.. كما رآهن الرسام.. لم يرهن حقًا سوى الرسام وقد نقل لنا تلك الرؤية.."

-"إلى هذا الحد؟"

القصة واضحة.. هذا الثري المجنون بالفن يبحث في كل الأرض عن جميلات يذكرنه بتلك اللوحات، فلا يختار للعمل عنده أو معه إلا من تشبه ملامحها صاحبة اللوحة بقوة.. لن يتعب كثيرًا على كل حال حتى يجد من تشبه الموناليزا، لأن ملامحها تذكرني بما قاله الكاتب الساخر أحمد رجب (ستي الحاجة بالطرحة وسبرتاية القهوة)...

قضيت معه بعض الوقت ثم انصرفت وأنا مندهش من هذا المزاج الفني المبالغ فيه..

جاءت الفرصة عندما قابلت أحد أصدقائي القدامى الذين بلغوا مرتبة عالية في أحد الأجهزة الأمنية. كان برتبة لواء، وقد كنا نتحدث عن جرائم سرقة الأعمال الفنية فخطر لي أن أسأله عن مستر (كارزيان).. اسمه بالكامل (ميخائيل كارازيان).. لا شك في أنه أرمني، وقد جاء إلى مصر منذ خمسة أعوام تقريبًا..

أخذ البيانات باهتمام ووعد بأن يتحقق من هذا الرجل جيدًا.. وكنت أعرف أنه سيفعل..

بعد أيام اتصل بي وقال ضاحكًا:

- "معلوماتك خاطئة على طول الخط.. لم يدخل مصر رجل يدعى (ميخائيل كارازيان).. القصر الذي تتحدث عنه بلا ساكن منذ عشرة أعوام!"

- "بلا ساكن؟.. لقد زرته وزاره د. عدنان فلا تقل إننا كنا نخرف..."

- "لا تقل كذلك إننا نحن من يخرف.. "

وضعت السماعة في توتر ، وسرعان ما كنت أتصل بـ (كارازيان).. جاء صوته الهادئ المعتاد عبر الهاتف فقلت له إنني في أمس الحاجة لزيارة معرض لوحاته مرة أخرى... اليوم لو أمكن..

- "كما تريد.. هل الساعة الخامسة عصرًا تناسبك؟"

- "بالتأكيد.."

وسرعان ما كنت أستقل القطار إلى الإسكندرية.. يجب أن أعرف وإلا قضيت نحبي من فرط الغيظ والحيرة. وعند الخامسة كنت على باب القصر أدق الجرس الأثري المعتاد. ينفتح الباب لكنني لم أجد الخادمة ذات القرط الشبيه باللؤلؤ .

الباب انفتح من دون شخص يقف وراءه.. دخلت في توتر إلى اللوبي ثم البهو..

القصر خال تمامًا.. ثمة جو عام يوحي بالقدم وبأن أحدًا لم يعن به منذ فترة.. نسيج عنكبوت وغبار.. في نهاية الممر ذلك الباب الذي يقود لعالم اللوحات. لا توجد إضاءة هنا..

وجدت شمعة مثبتة في طبق صغير فأشعلتها بعود ثقاب ومشيت أنظر للوحات التي اعتدت رؤيتها.. ما زالت موجودة حيث هي.. وتوقفت أمام لوحة مألوفة.. راقصة الباليه لديجا التي تمثلها وهي ترقص على المسرح.. أنا أعرف هذه الفتاة.. كانت تتدرب على الجمباز في البهو ذات مرة. لكنني رأيت اللوحة خالية من دونها من قبل ولم افطن للعلاقة!... إذن لم تكن هناك فتاة تشبهها.. كانت هي.. لقد غادرت اللوحة لترقص أمام عيني!...

الأريكة الشرقية التي شعرت لدى رؤيتها بأن شيئًا ينقصها.. لقد تذكر عقلي الباطن أن هذه لوحة تمثل مدام (ريكامييه)، لكن مدام (ريكامييه) لم تكن في اللوحة.. كانت جالسة تعزف البيانو!!

أما اللوحة التي كانت سوداء كلها فقد صارت مسكونة الآن.. الفتاة ذات القرطين المصنوعين من لؤلؤ.. لوحة (فيرمير) الشهيرة.. هذه الفتاة كانت تفتح لي الباب في كل مرة!!

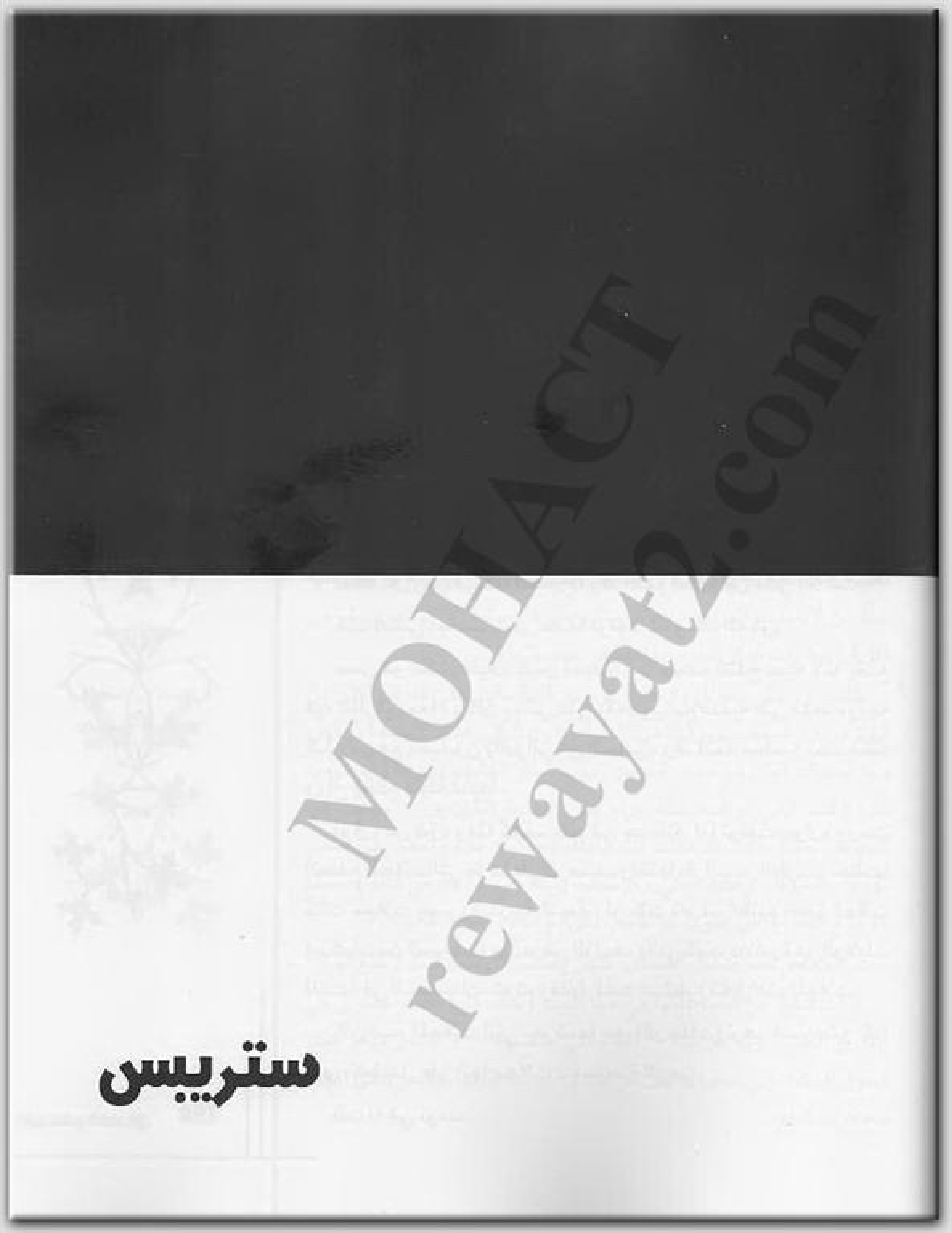
ثم توقفت أمام لوحة لم أنسها قط..

"كانت هناك لوحة تمثل مقعدًا مزخرفًا شامخًا وسط ستائر حمراء"

الآن أرى هذه اللوحة كاملة وأعرف لماذا بدت لي خالية. إن مستر (كـارازيان) لم يأت لمصر ولم يغادرها وعلى الأرجح لم يوجد قط إلا في خيالنا...

اللوحة لفنان مجهول لي . تظهر رجلاً ذا ملامح مألوفة يجلس على مقعد شامخ كأنه العرش.. رجلاً اعتاد أن يخرج ليقابل ضيوفه ويقدم نفسه باعتباره ثريًا يهوى الفن.. لكن النظرة في عينيه واضحة وتخبرك لمن رسمت هذه اللوحة بالضبط.. إنه الشيطان ذاته!

***


ستريبس

لأسباب تتعلق بهواية الكتب القديمة، أحفظ موضع واسم كل واحد من باعة الكتب القديمة الذين تقابلهم على الرصيف في شارع النبي دانيال بالإسكندرية..

الكتب والمجلات القديمة!.. احتفظ أنت بمجلاتك المصقولة فاخرة الطباعة زاهية الألوان، واترك لي الكتب المصفرة التي صارت أغلفتها مثنية كآذان الكلاب، واصفرت أوراقها، وفاحت منها رائحة غريبة هي مزيج من رائحة الورق القديم والبخور ورائحة لا تعرف ما هي.. رائحة الذكريات.. المجلات المطبوعة باللون الأخضر الزيتوني وإعلانات صابون (نابلسي فاروق) و.. و... الكتب التي كتب على هوامشها بقلم رصاص مع توقيع صاحبها يحمل تاريخ 1930 أو 1940.. صور بطلات السينما الهوليووديات بشفاههن القرمزية المصبوغة والطابع المفتعل المصطلح عليه للجمال.. كل هذا عالم ساحر بالتأكيد..

أحفظ كل ركن في هذا الشارع، وقد التهم الكثير من مالي بلا شك..

كنت أمشي فيه منذ شهر عندما توقفت أمام ذلك العجوز..

مسن هو مكتنز قليلاً، يلبس قميصًا غير مهندم انتفخ جيبه لأنه يضع فيه نظارتين معًا.. وكان يجلس على مقعد ويضع قدميه على مقعد مواجه شأن من هم مصابون بالدوالي في الساقين، وقد اتخذ مجلسه تحت مظلة وراح يطالع مجلة قديمة..

لم أره من قبل، وهذا كشف مثير في حد ذاته، لذا توقفت جواره ورحت أتصفح المجلات التي نثرها على الرصيف وأثقلها بقوالب من الطوب.. معظمها كانت مجلات مصورة غربية قديمة.. لو كنت تعرف الطابع المميز لمجلات (حكايات من السرداب) و(العرض الزاحف) التي كانت منتشرة في الولايات المتحدة في الخمسينات، ثم تم وقفها، فأنت تستطيع تخيل هذه المجلات..

كان اسم المجلات التي يعرضها هو (الرجفات) وهو اسم مثير كما ترى، كما يدل على أنها مجلات مخصصة للرعب..

قلت له في تودد:



- "أنا لم أرك هنا من قبل.. ولم أر هذه المجلات.."

نظر لي فأدركت أن له عينًا تظللها سحابة رمادية فلا ترى، وقال بصوت وقور ينم عن أصل طيب:

- "كلانا موجود منذ القدم، لكن العين لا ترى إلا ما تريد أن تراه.. اسمي (سليمان)"

رد معقول.. على كل حال انتقيت عشر مجلات متتالية من تلك، وسألته عن ثمنها فطلب ثلاثة جنيهات.. هذا سعر لا يمكن تصديقه.. سعر أسطوري.. عدت أكرر السؤال فكرر الجواب..

هكذا أخذت غنيمتي وهرعت كي ألحق بالقطار الذي يقلني إلى القاهرة..

عندما رأت زوجتي المجلات هزت كتفها.. بينما ضحك ابني طويلاً وقال:

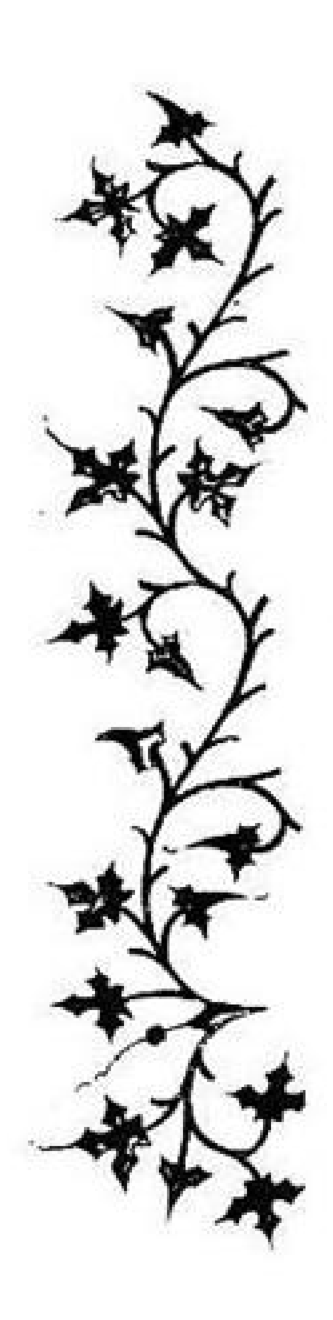
- "لم أعرف أنك تقرأ هذا الكلام يا بابا.. مجلة ميكي في هذه السن"

عند الناس تعتبر أية قصة ستريبس مجلة ميكي مهما كانت ومهما تعقدت أحداثها.. لا يعرفون أن هذا فن مستقل متميز، قد يبلغ درجة عالية جدًا من التعقيد والبراعة.. هناك ستريبس لا يصلح إلا للبالغين.. ثم من قال إن حكايات ميكي ماوس تافهة في حد ذاتها؟..

كانت زوجتي تعد لي العشاء، ويبدو أنها مالت على الموقد أكثر من اللازم.. هنا سمعت صراخًا من المطبخ.. هرعت إلى هناك لأجدها تركض وقد أمسكت النار في صدر قميص نومها.. كان المشهد مروعًا وقد فهمت لماذا وقف ابني يراقبه كأنه يراه على شاشة التلفزيون.. جريت إلى الحوض حيث كانت قد ملأتْ إناء بالماء، وسكبته مرة واحدة على صدر ثوبها.. أخيرًا!.. وقفت تبكي وترتجف بينما هي غارقة في الماء ومعظم موضع الحريق في الثوب قد تفحم، لكن لم تتأذ والحمد لله..

- "أنت غير حذرة ككل النساء.. كلهن يعتقدن أن الحوادث لا تقع أبدًا!"

قالت شيئًا عن تضحياتها في هذا البيت وكيف إنها كادت تحترق كي أتناول العشاء وبرغم هذا - فلتأخذني مصيبة - لا أشعر بها.. هكذا تحول العشاء إلى دخولها الفراش لتنام وبيضة قليتها لنفسي على الموقد مع كوب شاي..



فتحت جهاز التلفزيون فوجدته لا يعمل.. هذا يوم نحس تقليدي.. (واحد من تلك الأيام) كما يقول الغربيون..

هكذا رحت التهم البيضة وأنا أتصفح تلك المجلة.. بالفعل كان تصميمها شبيهًا جدًا بمجلات (حكايات من السرداب).. ذات القصص المرعبة الفجة وشديدة الإمتاع برغم هذا.. لا يدهشني أن كاتب الرعب الأمريكي (ستيفن كنج) قال إنه كتب الرعب بسبب قراءاته وهو طفل لتلك المجلة..

ثمة قصة لا تبدو مرعبة لهذا الحد.. رجل في منتصف العمر.. يبدو أنه يعيش مع زوجته وأولاده.. في الكادر الأول يتشاجر مع زوجته.. في الكادر الثاني الزوجة في المطبخ.. ثمة صورة لها وهي تصرخ وقد تمسكت النار بثوبها.. الزوج يطفئ النار ويلومها.. هناك مشاجرة.. يبدو أن ابنه قد أتلف التلفزيون وأخفى ذلك.. في الكادر التالي الرجل يحاول فتح الجهاز لكنه معطل.. البقية في العدد القادم..

من الممتع رؤية كم تتطابق حياتك مع الفن أحيانًا..

هذا فنان من الخمسينات عاش في الولايات المتحدة، لكنه رسم مشاهد شبيهة جدًا بما حدث الليلة.. فلأر مجلة أخرى..

مجموعة قصص مخيفة عن أشباح في القبو.. صندوق فيه جثة.. قصة ذلك الرجل الممل الذي لا أفهم سبب جعله بطلاً.. يبدو أنه جرح نفسه أثناء الحلاقة أمام المرآة صباحًا.. يعبر الشارع فتضربه سيارة مسرعة، يطير في الهواء لكنه لا يموت.. إنه ما زال سليمًا..

لا أفهم هذه القصص فعلاً.. هي ليست مرعبة ولا مسلية.. لعل الأسوأ قادم في الأعداد القادمة.. على كل حال كان وقت نومي قد حان فدخلت فراشي وغفوت..

تذكرت في الصباح الباكر أنني سأذهب إلى الإسكندرية من جديد اليوم.. هناك تلك المحاضرات التي ألقيها هناك، وهذا يعني يومًا مرهقًا آخر..

حلقت ذقني في الحمام بسرعة.. يا للتعاسة!.. منذ صارت لي لحية لم أكف عن عادة جرح نفسي وأنا متعجل.. هكذا رحت أبلل الجرح باللوسيون

الحارق، وجففت وجهي عدة مرات حتى تلطخت المنشفة بالدم.. ارتديت ثيابي وهرعت إلى الشارع..

لا أعرف متى ولا كيف سمعت تلك الفرملة.. فقط كنت راقدًا على الأرض وكل عظمة في جسمي تؤلمني، وهناك حشد من الناس يجمعون بين الفضول والشفقة .. وهناك فتاة مذعورة تجثو جواري وهي تردد:

ـ "أنت سليم.. هه؟.. أنت سليم!"

حركت أطرافي فكانت سليمة.. قلت في شك:

ـ "أعتقد هذا.."

هتفت الفتاة في جمع الواقفين حولي بلهجة درامية:

ـ "الحمد لله!.. أنتم سمعتم!"

قال أحد الواقفين متحرشًا:

ـ "إنه جريح في ذقنه!"

قلت مرهقًا:

ـ "لا.. هذا جرح من الحلاقة.. لم يحدث شيء.. أنا كنت متعجلاً شارد الذهن لا أكثر"

ساعدتني على النهوض وأركبتني السيارة.. إلى أين أنت ذاهب؟.. المحطة . أنا سأوصلك.. أنت بخير.. هه؟.. أليس كذلك؟

وسرعان ما وجدت نفسي في القطار . لابد أنها كانت سعيدة جدًا بالخلاص مني..

كان يومي حافلاً وقد اضطررت إلى شراء مسكن من صيدلية كي أسكن آلام جسدي، على أنني عندما اقترب موعد الرحيل فكرت في أن أجتاز شارع النبي دانيال من جديد عساي أجد شيئًا جديدًا عند بائع أمس.. مشيت في الشارع في تؤدة.. أين هو؟.. أنا متأكد من أنه كان هنا..

دنوت من أحد الباعة الذين أعرفهم وسألته عن العجوز الذي قابلته أمس..إنه (سليمان) موجود منذ القدم وله عين تالفة..

-"لا يوجد أي بائع هنا اسمه (سليمان) يا دكتور.. ثم إنك تعرفنا جميعًا"

هذا غريب.. ربما تكون هلوسة لكن ليس إلى هذا الحد.. على كل حال أنا أعرف ألاعيب الباعة.. ربما (سليمان) قد وضع مجلاته هنا من دون إذن (ريس الباعة) أو البلطجي الذي يسيطر على المكان، لذا قرر الباعة عدم الاعتراف بوجوده أصلاً.. شيء يشبه مؤامرة الصمت (أومرتا) المعروفة لدى عصابات المافيا..

لحقت بالقطار وعدت إلى داري.. رحت أتناول الغداء في لهفة بسبب جوعي الشديد.. هنا دخل ابني الحجرة وقال لي في شيء من الحياء والشعور بالذنب:

-"أريد أن أعترف لك لأن ضميري يؤنبني"

-"ماذا هنالك؟.. ربنا يستر.."

-"لقد تلف التلفزيون بسببي.. وضعت كوب الماء فوقه فانسكب.. بعدها أصدر الجهاز فرقعة وهمد تمامًا.."

وبخته بشدة على هذه الحماقة وإن حمدت الله على أن انفجارًا عاتيًا لم يحدث.. غدًا سوف آخذ الجهاز إلى من يصلحه وليكون خرابي بيتي قريبًا.. ربما نحتاج لشراء جهاز آخر..

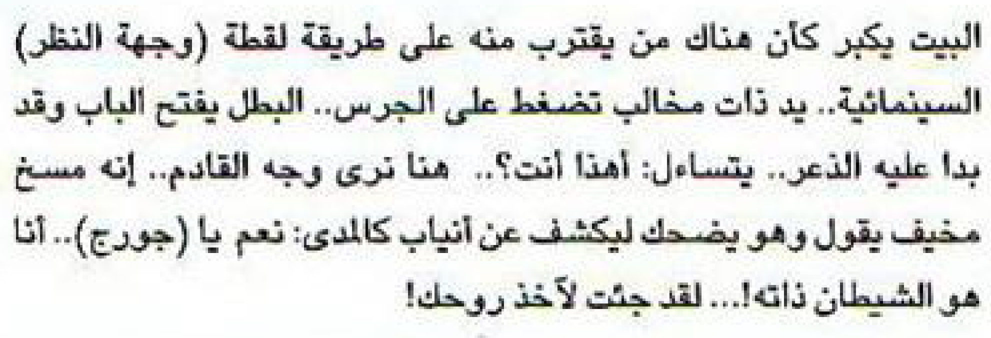
بعد قليل جاءت زوجتي تخبرني أنها ستخرج مع الأولاد قليلاً.. سوف تشتري لهم بعض اللوازم ولسوف تعود في ساعة متأخرة.. لا بأس..

هكذا من دون تلفزيون رحت أقلب أعداد المجلة إياها..

لنر بعض الأعداد الجديدة.. أي التي لم أقرأها أمس..

رأيت بطل القصة - ذلك الكهل الممل - جالسًا.. إن زوجته تخبره أنها خارجة بالسيارة مع الأولاد للتسوق على الطريقة الأمريكية.. إنه وحيد في داره.. يكتشف أن حوض الماء ممتلئ والماء يغرق أرضية المطبخ فيزمجر ويغلق الصنبور.. هناك كادر يظهر البيت من الخارج وقد بدأ الظلام يحل..





البيت يكبر كأن هناك من يقترب منه على طريقة لقطة (وجهة النظر) السينمائية.. يد ذات مخالب تضغط على الجرس.. البطل يفتح الباب وقد بدا عليه الذعر.. يتساءل: أهذا أنت؟.. هنا نرى وجه القادم.. إنه مسخ مخيف يقول وهو يضحك ليكشف عن أنياب كالمدى: نعم يا (جورج).. أنا هو الشيطان ذاته!... لقد جئت لآخذ روحك!

الكهل يحاول الفرار لكن الشيطان يقبض عليه بيد مخلبية.. يضربه بسكين عملاقة فيطير له أذنًا ثم يضربه من جديد فيمزق أنفه.. الكهل يتوسل لكن الشيطان يولج مخالبه في عنقه.. الكهل يموت...

أزحت المجلة جانبًا.. ما هذا السخف؟.. هل هذا الهراء هو ما يقدمونه للأطفال هناك؟.. ثم يتساءلون عن سبب كثرة السفاحين في بلادهم!... كل هذا الدم في صفحة واحدة وبريشة رسام بارع..

حقًا.. هناك الكثير من التسلية هنا لكنها مجلة لا تناسب الأطفال البتة..

هذا الصوت!

نهضت إلى المطبخ وأثار غيظي أن زوجتي نسيت الصنبور مفتوحًا.. كان تدفق الماء أسرع من تصريفه من ثم سال ليغرق أرض المطبخ.. هذا موضوع مشاجرتنا القادمة إذن.. لن أجفف شيئًا.. سوف أكتفي بقفل الصنبور لأن التجفيف مشكلتها هي..

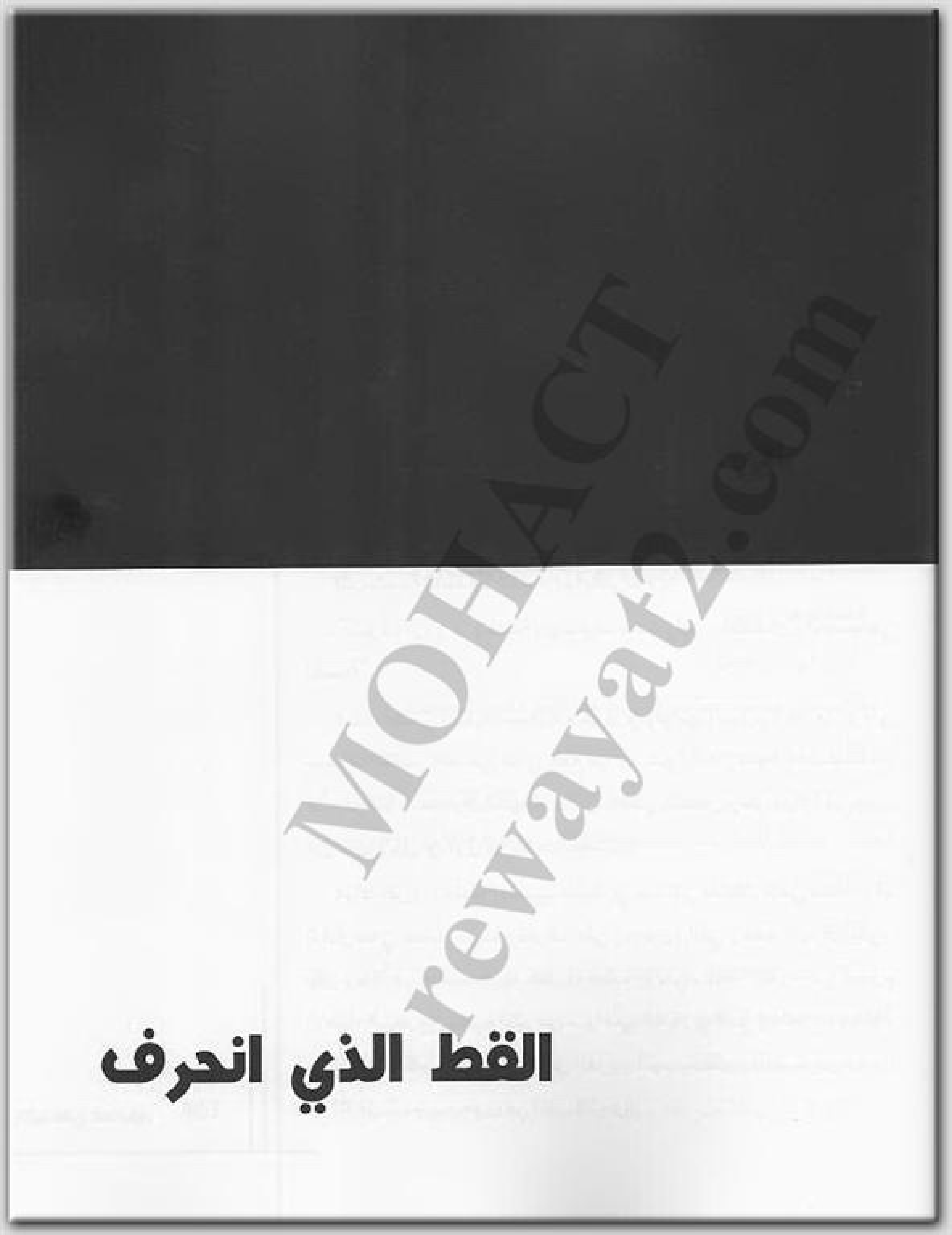
سوف أعود إلى الأريكة وأقرأ مجلة رهيبة أخرى من مجلة (الرجفات) هذه..

جرس الباب يدق.. ليكن.. سوف أرى من هذا السخيف الذي يأتي من دون موعد، ثم أعود لأطالع باقي المجلات..

إن أمسية شائقة تنتظرني بعد التخلص من هذا القادم.. أعرف هذا.. أشعر به.







القط الذي انحرف

تقول لي (نرمين) وهي ترتجف:

-" أنت تعرف تلك اللحظة عندما يعتبرك الكل مجنونًا، بينما أنت على يقين بأنك لم تفقد ذلك الخيط بين الواقع والخيال بعد.."

تقول لي (نرمين) وهي تعتصر عينيها لتفلت القطرات المالحة الأولى:

-"لا أعتقد أن هناك شخصًا آخر يمكن أن يصغي لي سواك يا د. (محفوظ).."

تقول لي (نرمين) وهي تجفف أهدابها بمنديل ورقي:

-"أبي لن يصدق حرفًا.. هذه هي المشكلة.. الآباء لا يفهمون أبدًا.."

كنت أصغي لكلامها وأنا أفكر.. إن (نرمين) جارتي كما تعرف.. طالبة جامعية هادئة الطباع مهذبة وليست من الطراز الهستيري.. عندما تقول شيئًا فهي على الأرجح تعنيه..

قلت بلهجة قاطعة لا تسمح لها بالتراجع:

-"سوف نزور د. (خليفة)، وسوف نأخذ رأيه... أعتقد أن رأيه سينهي القصة"

هكذا تجدني أركب السيارة وجواري (نرمين) متوترة دامعة، وعلى حجرها القفص الصغير الذي يقبع فيه (ميشو).. كان متوترًا مندهشًا من هذه الرحلة بالسيارة، لكنها كانت تربت على القفص وعلى ذيله الذي يبرز من حين لآخر، وتقول له كلمات مطمئنة..

هناك كان د. (خليفة) الطبيب البيطري صديقي بانتظارنا في مكتبه، وقد تبادل معي حديثًا مرحًا وتعرف على (نرمين) التي زعمت أنها قريبتي.. كان رجلاً في الخمسين له شارب عظيم يوحي بالثقة. الحق أنني أحترم الأطباء البيطريين بشدة أكثر من سواهم.. العبقري الذي يستطيع فهم آلام مريض لا يتكلم ولا يكتب... ليس الغريب أنهم يخطئون التشخيص أحيانًا بل المذهل أنهم ينجحون في أغلب الأحوال..

لقد راح يتفحص القط الأشعث القابع في القفص، والقط كذلك راح يبادله نظرات متشككة.. هذه القطط الفارسية مملة لدرجة لا تصدق.. تذكرني بمليونير بدين جشع ثقيل الظل والحركة ولا يجيد سوى التهام الطعام.. أفضل القطط البلدية الرشيقة خفيفة الظل متقلبة المزاج إياها..

راح يتفحص القط ثم فتح القفص ومد يده يعابثه...

في كسل راح القط يتظاهر بأنه مهتم.. راح يعابث تلك اليد بلا حماس باعتبار هذا واجبًا لا مفر منه..

في النهاية أغلق د. (خليفة) القفص وقال لـ (نرمين):

-"إنه في صحة ممتازة.. لا يمكن أن يكون مصابًا بالسعار بأي حال، برغم أن الطريقة المثلى هي أخذ عينة من المخ وفحصها مجهريًا، لكن للسعار علامات لا تخطئها العين.. دعك من أنه يأكل ويشرب ولا يتساقط اللعاب من شدقيه، ولم يتعرض لهجوم من حيوان مسعور"

قالت له في توتر:

-"إذن لي أن أطمئن؟"

-"اطمئني تمامًا.. يمكنني أن آخذ هذا القط ليلعب مع أطفالي"

ثم أضاف في سخرية:

-"لكن الأمر ليس مصيريًا لهذا الحد.. يمكنك التخلص منه في أية لحظة.. يمكنك اقتناء قط تطمئنين له أكثر.. لو أردت لأخذناه ووضعناه تحت المراقبة"

قالت في حزم:

-"لا.. أنت لا تفهم.. هذا القط صديق عمري منذ عشر سنوات.. إن التخلي عنه يشبه التخلي عن ابني"

ابتسم من جديد وقال:

-"إذن لا داعي للتخلي عنه.. عودي للبيت وأطعميه وجبة دسمة.."

وهكذا انطلقت معها عائدين للسيارة.. كنت اشعر بأنني سخيف، لكن هذا كان أفضل حل وجدته لمشكلتها. لا أحد يتكلم بعد الطبيب البيطري...

قلت لها ونحن في السيارة:

-"هو هادئ الطباع تمامًا.. بل هو شبه ممل.. أين تلك الشراسة التي تكلمت عنها؟"

-"هي موجودة لكنها لا تظهر عندما تبحث عنها.."

-"أعتقد أن المشكلة انتهت على كل حال.. إن القطط حساسة ولا يمكن فهم مزاجها.. ربما تتوتر لأسباب لا نفهمها.. قديمًا اعتقد الناس أنها ترى أشياء لا نراها نحن.. هذه فكرة مرعبة لو فكرت فيها.."

كنا قد وصلنا للبيت فقالت لي وهي تترجل:

-"شكرًا يا دكتور (محفوظ).. كنت اعرف أن بوسعي أن أثق بك"

ثم ابتعدت والقفص يتعلق في يدها.. والقط ينظر لي نظرته الثقيلة السمجة..

ومرت الأيام..

تقول لي (نرمين) وهي تشهق بعنف:

-"الأمر تجاوز الحد"

تقول لي (نرمين) وهي تخفي وجهها:

-"إنه غريب الأطوار.."

تقول لي (نرمين) وهي تبكي من جديد:

-"أعتقد أن (محمود سراج) يعرف السبب.."

هذه المرة تمالكت أعصابي بصعوبة، وقلت لها وأنا أعد من واحد لعشرة:

-"ألا ترين أنك تبالغين فعلاً؟.. كل هذا التغير في حياتك بسبب قط؟.."



مهما كان ثمينًا أو نفيسًا فالتخلص منه أحد الخيارات الواردة.. إن الحياة أعقد وأكثر كآبة من أن يفسدها قط "

قالت في غضب:

-"هل رأيت؟.. أنت كالجميع.. كالآخرين.. لا تفهم لماذا أبكي وأقلق من أجل صديق قضيت معه عشر سنوات سعيدة.. ثم إن الأمر لم يعد يتعلق به بل بفهم ما حدث.. إن (محمود سراج) يعرف.. أنا واثقة من هذا.."

كانت تتكلم وهي ترفع كمها عن ساعدها.. هنا رأيت ألعن جرح طولي يمكن وصفه.. لقد تهتكت الأنسجة تمامًا..

صحت في رعب:

-"لابد من أن يرى طبيب هذا الجرح.."

-"ربما أفعل ذلك، لكني لا أريد أن يشعر أبي بشيء.. سوف يتخلص من القط كخطوة أولى.."

تقول لي (نرمين) :

- (محمود سراج) جارنا في البناية، وهو رجل في الخمسين يعيش وحده.. لا أعرف عنه إلا أنه مهندس وأنه مهذب. من الطراز الذي يكره أن يترك أثر أقدامه بأي شكل على غبار ممشى الحياة . تقابله على الدرج فينظر للأرض ويواصل الصعود، لكن أبي كان يتبادل معه بعض الكلمات، ويؤمن أبي أن هذا الطراز من الناس هو العريس الأمثل لأية فتاة.. فقط لو كان الأحمق أصغر سنًا نوعًا.. كلما كان الرجل أحمق صموتًا انطوائيًا ثقيل الظل بدا لأبي مناسبًا أكثر...

(محمود سراج) يخرج ليلاً في جولات طويلة. أعرف هذا لأنني – بصفتي من زبائن الأرق ـ أقف في شرفة غرفتي أحيانًا فأراه يخرج في أوقات غريبة جدًا، وهو ما يثير الرجفة عندما تراه بمعطفه الطويل الأسود يمشي وحده في الشارع الخالي بعد الثالثة صباحًا.. يشق طريقه



وسط الضباب الذي بدأ يتكون وصوت نباح الكلاب الضالة من بعيد.. لا أعرف متى يعود لكنه لا يعود أبدًا وأنا متيقظة..

كان هذا كل شيء أعرفه عنه، حتى حجز لنا أبي أسبوعين في مصيف (رأس البر) وأصدر قراره بأن نذهب جميعًا.. كان هذا أول عام لا تعمل فيه عندنا خادمة تعنى بالبيت أثناء سفرنا ، وبالطبع لا توجد في مصر مهنة من يعنى بالحيوانات الأليفة كما في الخارج. لهذا صار من المحتم أن نأخذ (ميشو) معنا إلى المصيف، لكن أبي كان قاطعًا.. لن يتحمل اصطحاب قط معه مع كل ما يسببه هذا من مشاكل.. إن اصطحاب قط قد يكون أكثر صعوبة من اصطحاب ثلاثة أطفال..

إذن ماذا أفعل؟.. بالطبع هذه الأمور سهلة على الكبار جميعًا: تخلصي منه.. لكنني كنت واضحة: لو أرادوا ترك القط فعليهم أن يتركوني كذلك، وبالطبع أطلق أبي سيلاً من الغضب على رأسي ثم جاءته الفكرة..

زار المهندس الوحيد في شقته وتفاوض معه، ومن الغريب أن الرجل قبل العرض بسهولة وبشاشة، ثم جاء أبي يصحبني وأنا أحمل علبة من الورق المقوى فيها القط.. وأعطيته للمهندس مع تعليمات العناية به، وخاصة اتيكيت قضاء الحاجة الذي سيكون مشكلة على الأرجح . هناك كيس مليء بالسمك المجمد وكل ما عليه هو أن يسلق سمكة للقط يوميًا.. ليس هذا سهلاً أو سارًا ، لكن القطط كائنات حية وعليك أن تقبل هذه الحقيقة.. ليست مجرد صور لطيفة على بطاقات..

هكذا سافرنا.. لا أنكر أنني نسيت القط العزيز، لكني تجرأت ذات مرة واتصلت بالمهندس لكني لم أجده في الدار.. أصابني هذا بالغيظ لأنني أتوقع أن يظل جوار القط طيلة الأسبوعين..

أنا أكره المصايف.. شعور غريب ينتابني بأن الناس هناك تؤدي واجبًا، وإلا فيم تصف هذه الوجوه التعسة المليئة بالملل التي تجلس في الشمس الحارقة ، مغطاة بالرمال تتمنى أن ينتهي هذا كله؟

لهذا مرت أيام المصيف ثقيلة مملة، حتى عدنا إلى القاهرة وقد صرنا زنوجًا من قبائل الماساي.. أخيرًا ذهبت مع أبي إلى شقة المهندس وكان هناك لحسن الحظ.. رحب بنا ثم غاب دقيقة وعاد حاملاً الأخ (ميشو) في صندوقه الورقي.. وقال:

- "بصراحة لقد أحببته.. لكن الأمانة يجب أن ترد"

- "هل ضايقك؟"

- "إنه مسالم كالملائكة.. (ميشو) لن يضايق بابا أبدًا"

عدت إلى البيت ممتنة وقال أبي إن المهندس شخصية ممتازة. ظللت أعتقد هذا حتى جاء الليل.. لا أعرف كيف ولا لماذا صحوت من نومي لكنه ذلك التأثير الغريب الذي تبعثه فيك عينان تحملقان فيك وأنت نائم. كان (ميشو) يقف على الوسادة يتأملني في عمق وثبات.. بصراحة نظرة مفزعة فعلاً...

وفجأة رأيته يغرس أنيابه في ساعدي الذي كان على الوسادة.. أنت تعرف مداعبات القطط وبعضها قد يكون ثقيلاً، لكن هذا الوغد كان مصرًا واثقًا مما يفعله.. كان يريد انتزاع قطعة لحم.. وللمرة الأولى اضطررت إلى أن اضربه بالوسادة على رأسه ليترك ساعدي..

في اليوم التالي ركض ورائي في الصالة وقد أرجع أذنيه للخلف بتلك الطريقة الشيطانية التي تجيدها القطط.. كان يمشي على أظفاره وقد قوس ظهره وصارت حركاته (بالورب).. هذا تأثير تمارسه القطط كثيرًا لكنه يزول فورًا لأنه نوع من الدعابة، لكن هذا القط بدا لي كشيطان ذي فراء يطاردني في الصالة.. بالفعل لم يتركني قبل أن ينشب أنيابه في كاحلي...

الأسوأ انه لم يعد يأكل السمك على الإطلاق، وقد قام بعد يومين بعض أمي عضة قوية جدًا.. كانت هذه هي الفترة التي بدأ كابوس السعار

يطاردني فيها.. ماذا لو كان المرض اللعين أصابه؟.. ربما فر من الدار وعضه حيوان آخر؟

صديقك البيطري نفى هذا الاحتمال تمامًا.. هنا يبقى احتمال آخر هو أنه تعلم شيئًا ما عند (محمود سراج).. ما هو؟.. كيف يمكن أن تفسد طباع قط مهذب؟

رحت أفكر في الأمر مليًا.. ثم قلت لها إن الحل الوحيد هو أن نسأل (محمود سراج) نفسه.. قد يكون لاحظ شيئًا غريبًا على القط عندما كان عنده.

هكذا اتجهت معها إلى تلك الشقة في البناية.. الشقة التي يعيش فيها ذلك المهندس الوحيد منذ زمن. دققت الباب مرارًا فلم يرد أحد. كدت أنصرف لولا أن لاحظت تلك الرائحة الكريهة الخارجة من وراء الباب.. لا أحب أن أستعجل الشر لكن هذه القصة تبدو مألوفة..

كلام مع البواب.. قرعات متوالية على الباب.. محاولات مع الهاتف... في النهاية الاتصال بقسم الشرطة، ومساعد الشرطة الملول المتعجل الذي لا يرى داعيًا لكل هذا الهوس.. قال لي:

- "لا يمكن أن نقتحم البيت من دون إذن قانوني.. لكن يمكنك أن تفعل على مسئوليتك"

هكذا طلبت من (نرمين) أن تبتعد ورحت والبواب نضرب الباب بكتفينا، ثم أحضر أحدهم عتلة اغتصبنا بها القفل.. أمرت (نرمين) أن تبتعد على حين دخل مساعد الشرطة ومعه شرطيان إلى الشقة كريهة الرائحة....

هناك اسمنت.. هناك إناء يقوم أحدهم بخلط المونة فيه.. هناك (محارة) وكوز ماء جف ما فيه.. هناك جثة مهندس في الخمسين واقعة على الأرض وقد بدا من الرائحة أنه توفي منذ يومين أو ثلاثة. مهندس أصيب بنوبة قلبية من فرط الجهد وهو يعيد سد تلك الفجوة في الجدار... لابد أن

ممارسة هذا العمل العضلي كانت عسيرة جدًا على رجل اعتاد الجلوس طيلة حياته.

الفجوة التي رأينا ما بها...لابد أن القط هو الذي بدأ النبش والتنقيب هنا لمدة أسبوعين، وهو الذي وجد ما وجد، وتعلم أن يأكل أشياء غريبة جدًا غيرت من طباعه للأبد..

لقد حسبنا المهندس (محمود) أعزب.. الحقيقة التي عرفناها وعرفها القط قبلنا أنه أرمل!



أحلام أحلام

(أحلام) الآن تحلم..

لا توقظوها من فضلكم..

من المصادفة العجيبة أن ينطبق اسم على صاحبه بهذه الدقة، لكنك يا (أحلام) كنت بالفعل تحلمين طيلة حياتك، ولئن كان العلماء يقولون إن المرء يقضي ستة أعوام من حياته في الحلم (بمعدل ساعتين كل ليلة)، فإن عمرك يتلخص في سلسلة من الأحلام تتخللها لحظات تفتحين فيها عينيك..

لسوف تغمضين عينيك، ولسوف لا تعانين أي أرق.. لست من الطراز الذي يتقلب في الفراش عدة ساعات، وبالتأكيد لا تعني كلمات (سهاد) و(مقروح الجفن) أي شيء في قاموسك.. بالنسبة لك كان النوم دومًا هو أن تضغطي على ذلك الزر في وعيك فتغيبين عن الوجود..

زوجك كان يقول إنك متبلدة الحس..بالنسبة له يقترن ذكاء الروح بشيء من العذاب الداخلي.. يقترن بـالأرق.. لكنك في الحقيقة كنت تشعرين أنك أذكى في العالم الآخر..

سوف تغيبين عن الوعي..

وفي هذه اللحظة تستكملين الحلم الذي بدأ منذ أيام.. ها هي ذي الحديقة.. البوابة الصدئة التي تصدر صريرًا مرعبًا.. في كل ليلة تضطرين إلى اجتيازها وسماع الصوت ذاته.. ثم ذلك المر بين الأشجار.. حذار!.. لقد مرت أفعى على قدمك منذ يومين، فمن الخطأ أن يتكرر هذا ثانية..

غصون أشجار تتدلى وتخمش وجهك.. حاولي ألا تجرحك.. أعرف أن هذا حلم، لكن من قال إن بكتريا التيتانوس لا تتسلل للأحلام؟.. ربما كانت الأحلام معقمة وربما لا..

هنا يأتي الجزء الخاص بالقط.. القط الأسود الذي يقف معترضًا المر.. إنه ضخم شرس كما كان في كل ليلة سابقة.. أذناه منتفشتان ويطلق ذات الصوت الأقرب للفحيح.. مخيف هذا الصوت وينذر بالويل.. لكنك سوف تعبرين.. تعرفين أنك سوف تعبرين..

تبحثين حولك عن حجر.. شيء يصلح لقذفه على هذا الشيء، ويبدو أنه يألف هذه الحركة جيدًا لأنه يفر على الفور.. هذا غريب لكنه يحدث كل ليلة..

سوف تواصلين رحلتك في هذا الممر الضيق..

هنا تجدين تلك الفتحة التي تغلقها نافذة عند مستوى الأرض.. نافذة متسخة زجاجها مهشم، تغلفه خيوط العنكبوت..

سوف تنحنين – وأنت لا تفهمين لماذا تفعلين ذلك – لتواربي النافذة... آخر شيء تريدينه هو أن تدفعي جسدك إلى الداخل.. لكنك تفعلين..

الآن صار جسدك في الفراش متوترًا.. إن جفنيك يختلجان، وأصوات غريبة تخرج منك.. إنها مرحلة (حركة العين السريعة REM) التي يتم فيها الحلم.. سألت عنها د. مصطفى الطبيب النفساني فقال لي إن العلم لم يعرفها قبل عام 1952.. اكتشفها العالمان (كلايتمان) و(أرسينسكي)، وزعما أنها مهمة لنمو المخ ولتدعيم ذكريات اليوم.. هنا يرتفع ضغط دمك وتزداد سرعة ضربات القلب.. هذا نوم لا علاقة له بالراحة.. إنه (النوم المتناقض).. وفترته تزداد طولاً كلما كان الكائن اضعف، لذا يكون أغلب نوم الأطفال REM.. من المعتاد أن تفقد العضلات قوتها في هذه المرحلة، وإلا كرر النائم ذات ما يفعله أثناء الحلم..

لهذا تأتين بحركات كأنك تقذفين حجرًا على القط.. كأنك تحشرين جسدك في الكوة الضيقة.. هذه هي اللحظات التي تثير ذعر زوجك... في هذه اللحظات يشعر أنك كائن شيطاني وأنك موشكة على قضم حنجرته...

د. (مصطفى) قال لي إن أدوية الاكتئاب تلغي فترة الـ REM هذه، وهذا يساعد في شفاء الاكتئاب.. لكنك تتعاطين هذه الأدوية وبرغم هذا لم تتخلصي من تلك الفترة الصاخبة.. قال لي د. (مصطفى) كلامًا مهمًا عن مادة DMT التي يفرزها مخك الآن مسببة الحلم ... إنها في ذروتها أثناء الحلم وقبل الموت مباشرة.. فهل الموت ضرب آخر من الحلم إذن؟..

أنت تنزلقين إلى الداخل.. إلى المكان الذي تهابينه والذي تعرفين تفاصيله من كل الليالي السابقة..

ضوء المصباح سوف يقودك.. ضوء المصباح الخافت ورائحة الكيروسين المتصاعدة منه.. والشموع الذابلة المحترقة..

سوف ترينهم هناك.. تلك المنضدة الطويلة العتيقة.. عليها المصباح وعليها الشموع.. وهم هناك ينظرون لك منتظرين قدومك..

- "تعالي يا أحلام.. لماذا تأخرت؟"

طبقك هناك على المنضدة.. ملعقتك.. كوبك..

سوف تعرفين وجوههم جميعًا.. جدتك.. صحيح أن عينيها لم تعودا هناك.. صارتا مجرد فجوتين، لكنك تعرفينها.. أبوك يجلس جوارها وقد تساقط أنفه ولم يتخلص من الأكفان بعد.. سوف تلقين تعليقًا مهذبًا عن أن المرء لا يجلس على مائدة الطعام وهو ملفوف بالأكفان.. البواب العجوز الذي تساقط نصف وجهه هنا..

كلهم هناك وينتظرونك..

كلما حكيت هذا لأحد ارتجف ذعّرا.. معنى الحلم أنهم ينتظرونك لالتهام طعام الأبدية معهم.. هذا الحلم لا ينتظر تفسيرات..

لكن – الغريب – أنت تسحبين مقعدًا وتجلسين وفي نهم تملئين طبقك.. يأكلون البازلاء.. لكنها بازلاء عديمة المذاق... هل لهذا معنى ما؟

في الهند قال أساتذة اليوجا إننا نحلم لسبعة أسباب.. الأحلام هي: ما رأيناه.. ما سمعناه.. ما خبرناه.. ما نتمنى أن نجربه.. ما نحن مرغمون على أن نجربه... ما تخيلناه.. ما هو طبيعة في جسمنا..

السبب الثامن في رأيي هو: أن نحلم بلا سبب يفسر ذلك..

تلتهمين البازلاء.. وزوجك خائف.. لأنك تصدرين في نومك ذات الأصوات التي يصدرها المرء إذا أكل البازلاء..

بعد الأكل ترفعين رأسك عارفة أن اللحظة المرهوبة قد جاءت.. أنت أكلت أكل الموتى فلا غرابة إن صرت منهم..

ترقدين على المنضدة كما في الليالي السابقة.. ترقدين على بقايا الطعام.. لا تريدين أن يحدث هذا.. ولا تعرفين ما الذي سيحدث.. فقط لا تريدين، لكنك عاجزة عن الاعتراض أو قول أي شيء..

في لحظة كهذه كنت تفرين من عالم الكابوس.. كنت تصحين في الليالي السابقة.. تصحين صارخة في الفراش والعرق يغمرك، فيجلب لك زوجك



كوب ماء . . . لكنك لا تصحين هذه الليلة.. إلى متى سيدوم الكابوس؟. . .
لا تريدين الانتظار حتى تعرفي ما ينتظرك . . .

إنهم يرفعون السكين.. دقات قلبك تتعالى وضغط دمك يرتفع.. هذه هي اللحظة التي يموت فيها مرضى القلب أثناء نومهم لأنهم عاشوا في الحلم ما عاشه سواهم في الحقيقة.. في الصباح يجدونهم موتى ويطلقون عليهم Dead in bed.. عبارة مسجوعة جميلة لكنها لن تفيدك في شيء..

أحلام (أحلام) ليست ممتعة دومًا..

هذه هي اللحظة التي أقتحم فيها المكان حاملاً ذلك المشعل العملاق.. ينظرون لي بعيونهم الجوفاء أو المتآكلة في بلاهة.. لكني أهوي بالمشعل على الوجوه وعلى الأكفان..

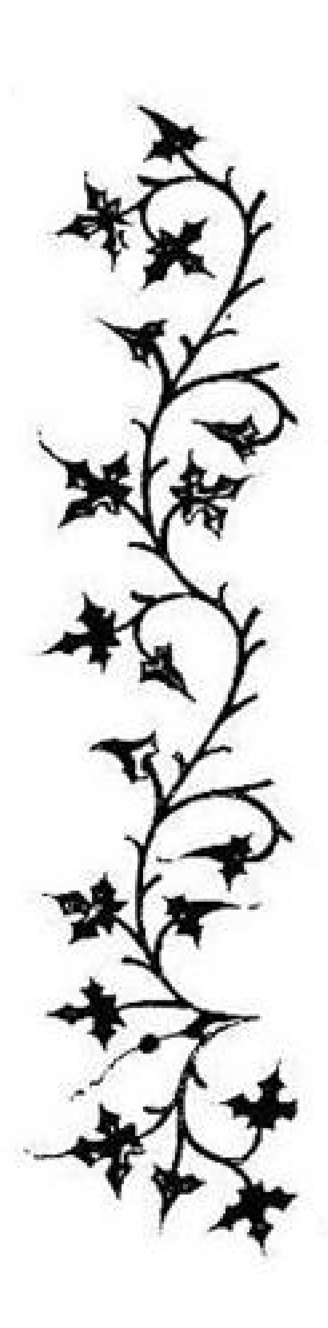
من أين جئت أنا؟.. لا أعرف.. فقط أعرف أنني ظللت وقتًا طويلاً في فراشي أحاول النوم.. لست مثلك يا أحلام.. لابد من أن أتعاطى بعض (هيدرات الكلورال) كي يزورني النعاس.. لابد من كوب لبن.. لابد من موسيقا هادئة.. لابد من كتاب ممل.. وعندما أغلق النور لابد من أن أفكر في شيء رتيب لكنه بهيج.. وبرغم هذا يظل الوسواس يطاردني: انتظار قدوم النوم.. هذه هي الطريقة المثلى لطرد النوم.. لابد من إفراغ مثانتي بعض مرات ،، لابد من أدعية.. لابد من سعال.. في النهاية لا أعرف كيف صرت هناك ولا كيف حملت المشعل..

المهم إنني فعلت هذا ورحت أحرق هؤلاء المحتشدين حولك.. أمس لم اتمكن من إنقاذك لكني لن أفشل اليوم..

زوجتي كذلك تكره هذا الجزء، لأن عيني تبدءان الحركة السريعة.. تعرفها من اهتزاز جفني ومن كلامي أثناء النوم.. ومن الحركات التي أطيح بها بالمشعل في وجوه الموتى..

سوف أنقذك يا أحلام..

سوف أجرك من يدك بينما ينزوي هؤلاء وهم يحترقون والدخان والدهن السائل يسيل منهم.. سوف أجرك إلى ممر جانبي مليء بنسيج العناكب.. سوف تفر الفئران فوق أقدامنا.. من فضلك!.. ليس الوقت



وقت الخوف الهستيري الأنثوي المعتاد من الفئران.. وطايط؟.. لا مشكلة.. لن تضرب وجهك أبدًا صدقيني.. إنها تملك أجهزة رادار متقنة..

سوف نفر من هنا..

لماذا أكلت طعام الموتى يا بلهاء؟.. لقد صرت لهم.. لو أخذوك مني فلن أتمكن من الاعتراض..

ما هذا؟.. لماذا لا تجرين؟.. لم يعد لك قدمان؟.. نعم.. أرى هذا بوضوح.. لقد صرت أقصر قامة وصار ثوبك يجر على الأرض المغبرة.. كلا . قدماك موجودتان لكنهما التحمتا لتتحولا لقطعة من العجين.. هذا يحدث كثيرًا في الحلم.. سوف أحملك.. لا مشكلة.. في الحلم أنت لست ثقيلة على الإطلاق.. إننا نعيش حلمًا لكننا نعرف أنه حلم.. هذه هي الأحلام المتجلية Lucid dreams التي هي أسهل أنواع الحلم على المفسرين...

لماذا يسيل الممر علينا؟.. إنه ليس ممرًا.. إنه كائن حي لزج.. ونحن الآن في بلعومه.. قدماي تغوصان في المادة اللزجة بينما تسيل علينا من أعلى لتبلل قميصي.. تبلل وجهك..

في نهاية الممر أرى الوجوه.. هذا وجه أبي.. هل ترينه؟.. وجه عمتي.. إنهم يعدون لي مأدبة أخرى لكني لن ألتهم منها شيئًا حتى لو كنت أحب البازلاء..

أعرف أن الممر ينهار وأننا لن نبلغ نهايته..

أعرف أن الأرض تذوب تحت قدمي..

لكن كل شيء لم ينته بعد..لا تصرخي.. سنكون هنا غدًا ولسوف نجد مخرجًا من هذه الورطة.. هل تريدين رأيي؟.. ربما ما كان علينا الفرار عبر هذا الممر.. لم يكن هناك مخرج سواه، لكني الآن أسمع صوت الجرس الطويل يمزق اعصابي وأعرف أنه كان هناك ممر آخر واسع يبدو أكثر أمنًا.. لماذا لم نره؟.. لأننا نحلم يا حمقاء..

نحلم..

ترررررن!

وأنا الآن في الفراش أرتجف وأبحث عن زر المنبه اللعين..فليخرس.. فليخرس..

لكن الرنين لم يصمت.. هذا إذن منبهك الخاص.. فلتخرسيه لأنه يزعجني.. فلتنهضي وتعدي الطعام لزوجك.. موعد مدرسة الأطفال . ضفري شعر (مي) و(مها) وابحثي عن حذاء (عمرو)...

لا تنسي أنكم ستزورونا الليلة..

سوف تأتين لدارنا أنت وزوجك والأطفال.. وسوف أراك للمرة الأولى في حياتي.. سوف نجلس في الصالون نثرثر ونشعر بنوع من الحميمية، لكن نظراتك المذهولة لي لا تفارق وجهك.. كلما انشغلت عنك فوجئت بك تنظرين لي.. سوف يحكي الزوج عن الأحلام الغريبة التي تهاجم المدام.. ولسوف نضحك جميعًا..

سوف تدخلين المطبخ مع زوجتي تثرثران، بينما زوجك يسألني عن طبيب نفسي بارع لزوجته.. طبيب يصغي للمريض ولا يكتفي بكتابة (البروزاك)... فأعده بسؤال د. مصطفى..

سوف أنهض للحمام، وبينما أغادره أقابلك خارجة من المطبخ فترتبكين..

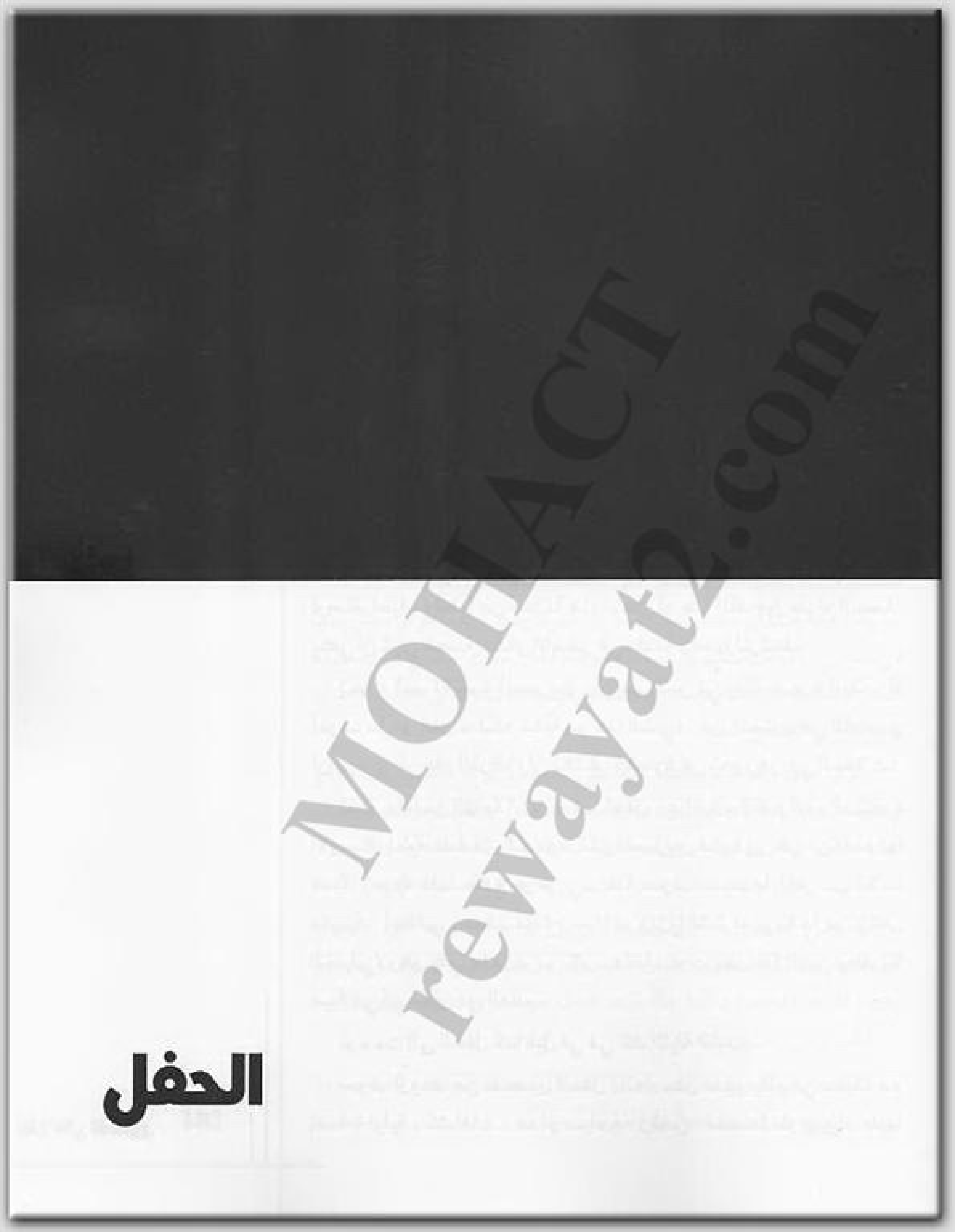
سوف أسألك يا أحلام بصوت هامس:

-"هل أنت جزء من حلمي أم أنا جزء من حلمك؟...و كيف يدخل حلمي إلى حلمك في كل ليلة؟.. ماذا سوف نفعله الليلة عندما ينهار الممر تحت أقدامنا؟"

سوف يحمر وجهك، وتقولين في كبرياء:

-"د. (محفوظ)... أنا امرأة متزوجة ومحترمة.. من فضلك لا تدخل أحلامي أبدًا بعد اليوم.. هذا ليس من حقك حتى إن كنت تنقذ حياتي.. لو رأيتك هذه الليلة في حلمي فلسوف يتصرف زوجي معك.."

***



الحفل

لم أكن راغبًا في ممارسة الاجتماعيات في هذا البلد، فقد كان انطباعي أن هذا يدخل في نطاق اللهو، وأنا لم أدفع مليمًا في رحلتي هذه.. لقد تحملت الدولة نفقات سفري وعلي أن أكون أمينًا مع كل مليم وكل ثانية.. أعرف أن هذا تفكير مثالي جدًا وأن الناس كفت عن التفكير بهذه الطريقة منذ عام 2500 قبل الميلاد، لكني من الطراز العتيق ولا استطيع أن أتغير..

لم يكن هذا حفل تعارف.. بل هو عيد ميلاد يقام في الرابع والعشرين من إبريل..

تلقيت البطاقة الرقيقة الأنيقة من الدكتورة (كرامب) فكان علي أن أجد عذرًا للتملص، إلا أن من كانوا من مصر معي قالوا لي إن هذه قلة ذوق وإن علي أن أكون لطيفًا مهذبًا.. الدكتورة (كرامب) أستاذة الأدب فائقة الشهرة، وتعتبر هي سبب قدومي لهذا البلد..

أولاً لم تكن عندي أية ثياب تصلح... كل ثيابي تبدو كأنني كنت في السوق منذ عشر دقائق قبل أن يجلبوني هنا.. وأنا أعرف أن الدكتورة (كرامب) أرستقراطية ولعلها من سلالة هذا الأمير أو هذا الملك من ملوك النمسا.. يكفي أن ترى خصلة الشعر الأبيض في مقدمة رأسها لترتجف..

تطوع أحد الأخوة المصريين بأن يستأجر لي بذلة سهرة أنيقة.. لا أعرف ما هو الفراك لكنه غالبًا هو هذا الشيء.. من المحتوم في القصص أن يرتدي الرجال الفراك وأن تكشف النسوة عن نحورهن في الحفلات..

ثانيًا: ماذا عن الهدية؟.. لن أذهب لحفل عيد الميلاد لأقدم لهذه الدكتورة الأرستقراطية علبة من الجاتوه، لكن المصريين قالوا إن علي أن أقدم لها هدية رمزية ذات طابع فرعوني.. هذا سوف يسعدها أكثر من قلادة ماسية.. أعطاني أحدهم مفتاح حياة برونزيًا اشتراه يومًا ما من (خان الخليلي) وهو يفي بالغرض وأكثر.. هكذا دعوت للفراعنة الذين يعطوننا هيبة في أي مكان في العالم..

توجهت إلى الحفل كما قيل لي في تلك الليلة الليلاء..

سوف أريحك من تفاصيل الحفل ذاته.. حفل فاخر يقام في حديقة مع إضاءة ليلية.. كشافات.. حمام سباحة.. رقص.. منضدة طويييييلة عليها

أصناف الطعام والكوكتيل.. تذكر حفل الزفاف هذا أو ذاك الذي حضرته لقريبك الثري، ، وأشعرك بالتضاؤل.. يمكنك الآن أن تتصور الحفل الذي كنت فيه، مع ملاحظة أن قريبك الثري ليس ثريًا ولا أرستقراطيًا على الإطلاق إذا قورن بهذا الجو..

موسيقى شتراوس تسمعها للمرة الأولى في الجو الذي كتبت من أجله خصيصًا.... لا أعرف شكل شتراوس لكني لن أندهش لو كان هو الذي يقود الفرقة الآن..

أما عن د. كرامب نفسها، فكانت تمضي هنا وهناك تحيي هذا وذاك.. هزت رأسها لي وألقت على رأسي الكثير من حروف الشين والخاء.. هنأتها على (الرايخشتاج).. لا.. بل على(الجيبورتستاج).. أخلط بين الكلمتين والفارق بينهما مروع!.. وقدمت لها مفتاح الحياة فهشت وبشت، ثم تركتني لتواصل المجاملات..

هكذا شعرت بما يشعر به الموظف المصري عندما يوقع في دفتر الحضور والانصراف، ويصير على استعداد تام للتزويغ..

كان هذا عندما وجدت تلك العجوز.. امرأة عجوز جدًا لم أر أسن منها في حياتي، وقد اندهشت لأنها هنا ولم تنم بعد.. كانت ترتدي ثوب سهرة أحمر أنيقًا جديرًا بملكة جمال، وتقف جوار مائدة الكوكتيل تحاول بعينين لا تريان أن تقتنص شيئًا..

دنوت منها وعرضت عليها بألمانيتي العرجاء أن أساعدها.. شكرتني وطلبت أن أناولها زجاجة الروم!.. الزجاجة التي استقرت وسط عشرات الزجاجات الأخرى في بار هائل يتوسط المائدة.. وقالت الحيزبون:

-"أفضل الروم لأن محتواه من الكحول عال.. الشمبانيا للأطفال!"

أصابني الذهول.. ناولتها ما تريد وتراجعت بينما هي تصوب الزجاجة بيد ترتجف إلى كأس تحملها.. ما زالت هذه المرأة ترغب في بعض الانحراف برغم أنها جثة تتحرك بالزنبرك.. ما أغرب الإنسان!..

قالت وهي تحاول التصويب:

-"لقد انتهى كبدي تمامًا.. يقول الأطباء إنه صار كتلة من الليف.. لهذا لم يعد المزيد من الروم قابلاً لإيذائي..!"

رأتني أحدق فيها فأردفت:

-"أنت تفعل مثل ابني.. جئت معه هنا وأعطيته ألف وعد بألا أمس الخمر، لكنه الآن منهمك في الرقص مع فتاة إلزاسية حسناء.. لن يعرف أبدًا ما لم تخبره أنت"

وانفجرت في الضحك كاشفة عن أسنان جديرة بالساحرات.. أعني فجوات أسنان طبعًا..

هكذا وقفت أراقبها بعض الوقت، ثم تركتها حيث هي واتجهت إلى ذلك الممر الذي يقود إلى الخارج.. سوف أسترد معطفي وأعود للبيت الذي أقيم فيه مع صديق مصري، لأنعم بنوم هادئ حتى الصباح.. لقد قمت كما قلت لك بالتوقيع في كشف الحضور!

مشيت في الممر ، هنا وقعت عيني على ثوب سهرة أحمر يبدو مميزًا..

من الغريب أن يوجد ثوبان من ذات النوع في حفل واحد.. لكن لربما كان الجميع يستأجر ثيابه من ذات المتعهد..

كان ظهر صاحبة الثوب لي.. ربما كانت أجمل من صاحبتنا هذه..

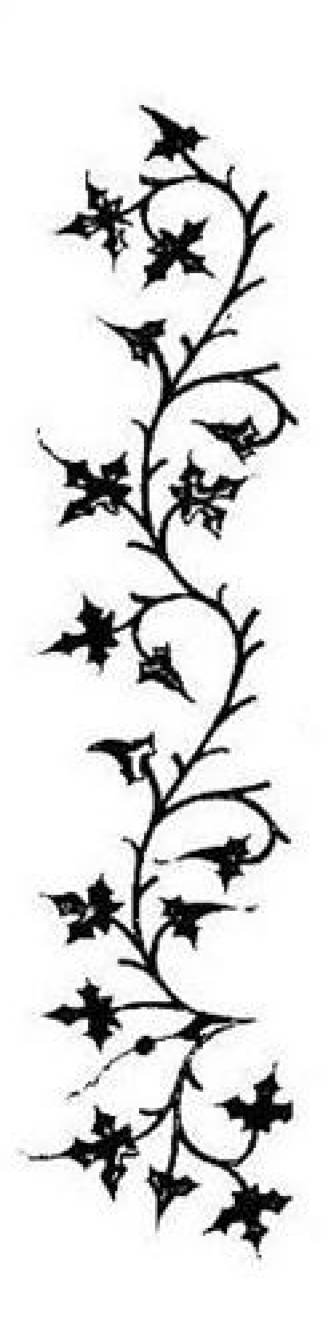
بالفعل استدارت و.. لا.. إنها هي!.. هي ذات العجوز التي كانت تقف جوار المائدة تشرب الروم ..!.. تنظر لي بعينين لا تريان تقريبًا ثم ترفع كأسًا إلى شفتيها بيد ترتجف وترشفها..

كيف استطاعت هذه العجوز بطيئة الحركة أن تسبقني إلى هنا؟.. أنا مسن لكن ليس مثلها.. ثم إن الممر ضيق.. لن يمر اثنان فيه من دون أن يريا بعضهما..

لابد أن هناك طريقة أسرع للوصول إلى هنا من الطريق الذي اتخذته..

على كل حال ليس من شأني أن أعرف كيف جاء كل واحد إلى المكان الذي هو فيه.. هكذا تهيأت للاتجاه إلى الوصيفة التي تحتفظ بالمعاطف ، لكن استوقفني منظر مسل.. هناك رجل مسن يقف في وضع رشيق فاردًا ذراعه وبالذراع الأخرى يبدو كأنه يطوق خصر امرأة هوائية لا وجود لها.. على صوت الموسيقى القادمة من بعيد يرقص.. يرقص برشاقة وجمال لا شك فيهما.. لو كان أصغر سنًا لكان أحد فناني البانتومايم المعدودين في أوروبا كلها..





وقفت أراقبه، ولاحظت أن عددًا من الواقفين التفوا حوله وهم يصاحبون حركاته بالتصفيق والضحك.. كان يرقص ويرقص.. ثم توقف لاهثًا.. بحث بين الوجوه فالتقت عيناه بي..

قال لي وهو يتأبط ذراعي:

-"هل أنت عربي؟.. أعرف هذا النمط من الوجوه.. عربي أو باكستاني.. لكن لا.. شعرك خشن.. لا يوجد باكستاني شعره خشن أبدًا.. أنت عربي.. ما اسمك؟"

-"محفوظ.. أنا مصري.."

-"أنا كنت عندكم في العلمين مع (روميل) منذ.. منذ أكثر من نصف قرن.. هل (مونتجمري) العجوز ما زال حيًا؟"

-"أنت أدرى مني بهذا.. لكنه مات على كل حال.."

-"الكل يموت.. لقد اختلطت الأمور.. لم أعد أعرف من الحي و من الذي مات.."

عرفت أنه في مرحلة خرف الشيخوخة حيث لم يعد يذكر أي شيء على الإطلاق.. لكنه اقتادني عائدًا إلى الحفل، ثم توارى بين الراقصين.. استدرت للناحية الأخرى فوجدته!..

ما هذا؟.. كيف عاد؟... ومتى؟...

كان يمشي وحده وهو يأتي بحركات راقصة ويحك عنقه الذي امتلأ بالنمش والبقع.. رأيته يقترب من تلك العجوز السكيرة ذات الثوب الأحمر، فوقف معها يثرثران..

وقفت أراقب المشهد في حيرة بضع دقائق..

ثم استدرت لأراقب الراقصين، فرأيت العجوز السكيرة ترقص مع هذا الجندي السابق!.. ما الذي يجري هنا؟... أنا لا أشرب الخمر لكن هل أبخرتها يمكن أن تؤثر في عقلي لهذا الحد؟.. لم أسمع عن هذا من قبل..

-"لا تظهر أنك لاحظت!.. هذا أفضل!"

استدرت من جديد لأجد دكتورة (كرامب) تقف خلفي وهي تضع إصبعًا على شفتها..

قلت لها:

-"أنا فقط مندهش من أن...."

قالت في فهم:

-"نعم.. رأيتهما مرتين.. هذا مفهوم.. سوف تقابل هذه التجربة عدة مرات الليلة.."

ثم أضافت وهي ترفع خصلة الشعر الأشيب عن جبينها:

-"اعتدنا هذا لأن عيد ميلادي في الرابع والعشرين من إبريل.. ليلة صيام القديس مارك حسب كل المعتقدات الشعبية.. منتصف الليل هو الوقت الأمثل.. حدث هذا في عامين متتاليين ثم صار قاعدة.. بعدها وجدنا أن اناسًا كثيرين يحضرون عيد ميلادي لهذا الغرض بالذات.. إنها تجربة مخيفة مثيرة.. لكن الفضول البشري لا نهاية له.."

قلت وأنا أهز رأسي في عدم فهم:

-"لا أفهم حرفًا.."

قالت:

-"لأنك لا تعرف ما هو Doppleganger أو القرين.. وهي لفظة ألمانية معناها (السائر المزدوج)... المعتقد الشعبي يقول إن القرين يظهر في هذه الليلة بالذات، أما لماذا في حفل عيد ميلادي فأمر لا يعرفه إلا الله.. في هذه الليلة يأتي الناس الحفل ويرقصون ويسكرون، وهم ينتظرون ما سيرونه عند منتصف الليل.. من ير نفسه في هذا الحفل، يعرف أنه رأى القرين الخاص به، ومعنى هذا أنه سيموت هذا العام!..."

-"هذا . هذا شنيع!"

-"نعم.. لكنه مثير كذلك.. كل الناس تأتي لعيد ميلادي آملة ألا تقابل نفسها ،. والأروع أنك تعرف يقينًا من الذي سيموت!... أنت تعرف دعابة القائد الذي يقول لجنوده المائة أتوقع أن يموت منكم 99 جنديًا في هذه العملية.. عندها ينظر كل جندي لرفاقه ويقول لنفسه: يحزنني فقد الزملاء!.. هذا هو ما يحدث هنا!"

-"لكن هذا يعني أن العجوزين..."

-"كلنا لاحظ هذا.. ليس الأمر قدرة سحرية على التواجد في مكانين.. الأمر يتعلق بأن القرين الخاص بكل منهما موجود في ذات الحفل.. ومن رحمة السماء بهما أنهما ضعيفا البصر.. كل الموجودين رأوا وعرفوا لكنهما لا يعرفان.. هذان البائسان سيموتان هذا العام.. لن يكونا هنا في عيد ميلادي القادم!"

كانت فكرة مروعة ... لا أستطيع تصديق هذا.. لكني بالفعل رأيت العجوزين مرتين، ومن المستحيل أن يكون من رأيته هو الشخص ذاته.. لكن...... هذا لا يدل على شيء... منذ ميلاد البشرية وهناك توائم في كل مكان، وهناك أربعون شخصًا يشبهك كما قال أجدادنا..

قلت لها ضاحكًا:

-"لا اصدق حرفًا من هذا كله يا دكتورة.. أنت تعرفين أن العلم...."

لكنها لم تكن تصغي.. كانت تنظر في ذهول ودهشة إلى شيء خلف ظهري..

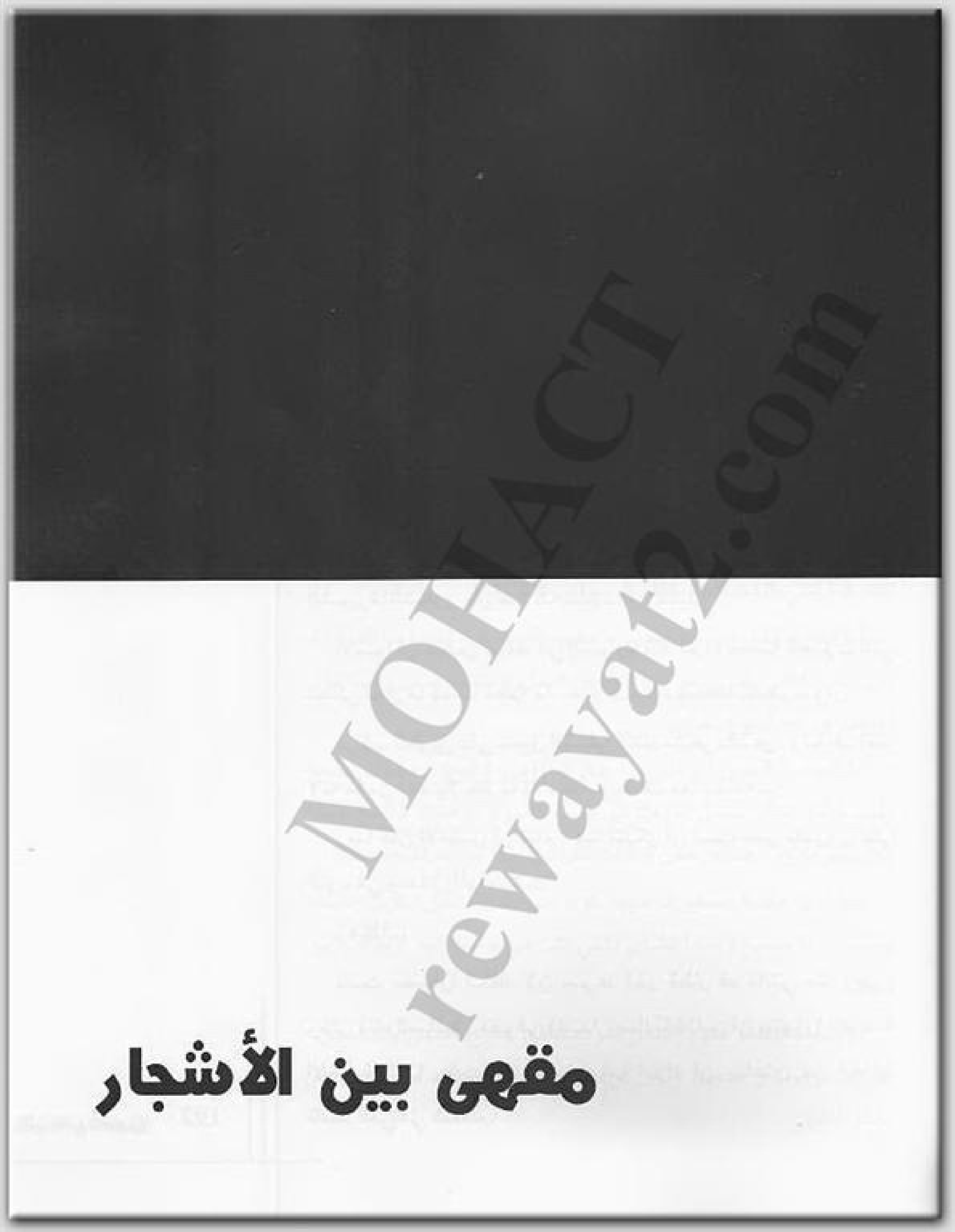
استدرت لأرى ما هنالك فرأيت ذلك الرجل الذي يلبس الفراك ويمشي بين الموائد وقد بدت عليه الحيرة وعدم الارتياح... رجلاً ذا ملامح عربية أو باكستانية.. لا.. هو خشن الشعر.. إنه عربي.. لا شك في هذا..

هو لا يشبهني..

إنه أنا!

ملحوظة ناشر الأوراق: بما أننا نعرف أن د. محفوظ قد توفي بعد هذه الواقعة بأربعة أشهر، فإننا لا نملك تكذيب هذه القصة بقلب مستريح.. صحيح أننا لا نملك تصديقها كذلك، لكنها كالعادة لغز آخر من ألغاز ذلك الصندوق العجيب الذي تركه لنا د. (محفوظ)... الألغاز التي لن نعرف حلها أبدًا...

***


مقهى بين الأشجار

أكره السفر ليلاً بشدة..

عندما يتسلل النعاس إلى عيني وأسند رأسي على المقعد الذي أمامي.. رأسي الذي صار يزن طنين.. رأسي المسكين الذي يدق كجرس من أجراس المعابد البوذية.. أغمض عيني.. عندها فقط أتذكر انني عاجز تمامًا عن النوم في أية وسيلة مواصلات. نعم يمكنني النوم بصعوبة في القطار والطائرة، لكن من المستحيل أن يجد النوم سبيله لبابي في سيارة.. كلما دنا من الباب ومد يده ليفتحه سقطت السيارة في مطب أو دوت الفرملة، وهكذا يتراجع النوم مذعورًا وينتظر على بعد مترين من الباب بانتظار فرصة أخرى.. فرصة لا تأتي أبدًا..

الأضواء تلتمع على الوجوه من حين لآخر.. مبهرة تؤذي العينين وتجعلك تحكهما. الدمع يحتشد في عينيك مع لعنة قصر البصر الشهيرة: الشعور بأن هذا كله حلم.. غير حقيقي..

الأسوأ أن تجلس خلفك في السيارة تلك المرأة حسنة الصوت التي تحكي لجارها همسًا قصة ما.. صوت منوم يجعلك تشعر بدوار..

تراقب الطريق على سبيل التسلية لكنك تشعر بالذعر، وتخاف أكثر لأنه ما من أحد يلاحظ ما تلاحظه، ويخاف مما تخافه...

ربما كان الأفضل أن تنام.. هنا تتذكر أن لست ممن يقدرون على النوم في وسائل المواصلات!

وهكذا...

كنت مضطرًا لذلك لأن موعد آخر قطار قد فاتني منذ زمن.. وكان ذلك السائق يقف في الميدان مناديًا الناس أن ينتهزوا الفرصة الأخيرة. لهذا وثبت مع الناس وأنا أدرك أن ساعتين من العذاب تنتظرانني في شغف..

تنطلق السيارة.. الفاتحة للنبي يا اخواننا نوصل بالسلامة.. رجل ملتح يقول إن دعاء السفر هو الأصح..

جو عام من التوتر والترقب.. السائق يقود بسرعة جنونية فعلاً..

تتلاعب الذكريات في ذهنك.. تتذكر أشياء وتنسى أشياء.. شريط اليوم بكامله يدور في خيالك.. المصرف وذلك الخطأ في الشيك.. المدرس الخصوصي لابنك ومشادة مع أخي زوجتك.. عداد الكهرباء وفاتورة الهاتف..

لا تعرف كيف نمت.. إنها لمعجزة.. لقد نمت..

....

فتحت عيني بعد نوم لا أعرف كم طال..

كنت في حال غريبة بين الإفاقة والنعاس . وبطرف عيني رأيت السيارة التي كنا نركبها واقفة إلى جانب الطريق..

أما المكان الذي أنا فيه فمقهى.. مقهى أقرب إلى تعريف (الغرزة)، من تلك المقاهي التي يعج بها الطريق السريع حيث يدخن السائقون المعسل وربما أشياء أخرى..

مقاعد من الخيرزان متناثرة خارج المقهى الضيق، وهناك نصبة يقف خلفها شاب نحيل منهمك في صنع القهوة.. وهناك ثلاجة عتيقة بها مياه غازية.. هناك بعض نباتات ظل مزروعة في صفائح صدئة..

جواري مائدة صغيرة عليها كوب من شاي ثقيل..كوب متسخ ببصمات الأصابع وبقايا الشاي لكني كنت في حاجة إليه. أريد أن أفيق قليلاً..

الإضاءة خافتة اللهم إلا من كلوب معلق خارج المقهى يلتف حوله الذباب، ويصدر صوت (تش ش ش) المميز.. وهناك مصباح واهن داخل المقهى..

حولنا أشجار كثيفة . فقط ترى السيارة بين فرجة منها.. ولو نظرت لأعلى لرأيت سماء سوداء كالمخمل..

كان ركاب السيارة كلهم من حولي.. متناثرين على الموائد يشربون الشاي أو القهوة أو الحلبة، وبعضهم يدخن الشيشة.. أعني البوري أو الجوزة طبعًا..

جاء الفتى القهوجي الذي يعلق مريولة على خصره ويحمل صينية متسخة مبتلة. فمسح المائدة جواري وسألني بلا اكتراث:

ـ "هل من شيء آخر يا أستاذ؟"

ملت عليه سائلاً:

ـ "ماذا يحدث هنا؟.. متى جئنا؟"

كان سؤالاً غريبًا بالطبع، وقد نظر لي في حيرة واتهام صامت بالخبال، ثم قال:

ـ "مشكلة بسيطة في السيارة.. أرسلوا في طلب ميكانيكي.. لا تقلق.. يبدو أنك نمت طويلاً"

إذن أنا كنت في حالة نوم غريبة لم أعهدها من قبل.. كنت نائمًا عندما تعطلت السيارة وعندما نزلوا منها، وعندما مشوا لهذا المقهى، وعندما جلست وطلبت شايًا..

ـ "وأين نحن بالضبط؟.. "

كنت قد نمت ونحن قرب بنها.. لكنه قال لي:

ـ "نحن في أرض الله الواسعة.. لا تقلق.. هل تنوي الدفع الآن أم ستسحب المزيد؟"

نظرت لكوب الشاي الممتلئ وقلت في غضب:

ـ "أنا لم أشرب أول طلب بعد"

- "كمـا تحب.. لكـن اذكـر الله فـي كل وقت بـدلاً من جلستك الصامتة هذه.."

وانصرف.. بينما ظللت أرمق من حولي.. جاء مجموعة من الناس وألقوا السلام.. واضح أنهم من الريف وأنهم تجار. جلسوا وطلبوا شايًا وشيشة فيما قال أحدهم وهو يرفع الجلباب عن ساقه:

- "لم يكن الأمر صعبًا.. الرحلة سهلة ممتعة . وهناك مقهى كذلك.."

قال آخر:

- "بصراحة كنت أخشى ما سنراه.."

راح الأول يتفحص ساقه المشعرة، ولاحظت أنها مجروحة بعنف.. لكنها لم تكن تنزف.. رفعت عيني فوجدت زميله بجرح بالغ في رأسه.. غريب هذا.. إن تحمل هؤلاء التجار لعال حقًا..

لاحظ أحدهم أنني أطيل النظر فقال بصوت غليظ:

- "لا تقلق يا أستاذ.. لكن هل جرحت أنت؟"

هل يجب أن أكون جريحًا؟.. قلت:

- "لا.."

- "أفضل شيء أن تكون قطعة واحدة.. صحيح أن هذا لا يحدث فارقًا لكن الإنسان يكره أن يرى لحمه ممزقًا أو جريحًا.."

قال آخر:

- "نحمد الله أنه لا يوجد نزف.."

قلت وأنا أبحث عن الهاتف المحمول:

- "ربما كان من الأجدر أن أطلب لكم الإسعاف."

هنا تدخل الفتى القهوجي الذي جلب الشيشة ومعها صينية محملة بأكواب الشاي:

-"لا تتعب نفسك يا أستـاذ.. كله مكتوب.. هم الآن في أمان حقيقي.."

هنا رأيت سائق السيارة التي كنا نركبها يمر أمامي.. صحت أناديه فنظر لي وابتسم ثم واصل مشيه بين الموائد. قلت في عدم فهم:

-"لعله يبحث عن مكان يقضي فيه حاجته.."

قال القهوجي:

-"لا داعي لذلك.. لكنه دفع الحساب وصار حرًا.. سوف يواصل الرحلة"

-"يرحل؟.. هل أصلح السيارة؟.. وأين الباقون؟"

-"سيرحل.. لكن ليس بالسيارة يا أستاذ.. أمثاله لا يحتاجون إلى عجلات.. وأنت.. هل تدفع الآن؟"

-"كم؟"

راح يجمع ويطرح كأنني التهمت عشاء كاملاً، ثم قال في النهاية إن حسابه جنيه واحد.. مددت يدي في جيبي أبحث عن الجنيه وبعض البقشيش.. لم أجد شيئًا.. هناك ورقة بمائة جنيه..

-"ليس معي سوى ورقة بمائة.."

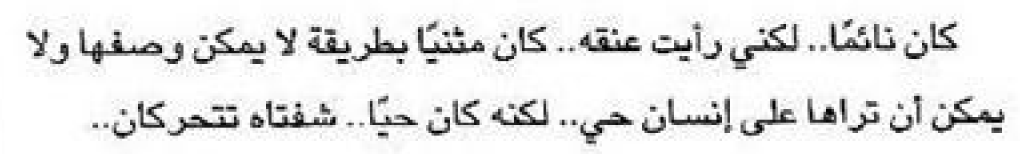
ضحك في خبث وهو يرفع الكوب الفارغ من أمامي:

-"يا بك.. لو كان معي مائة جنيه لاسترحت من هذه المهنة.. لكن يمكنك الانتظار بعض الوقت فلربما وجدت فكة.. هل أحضر لك بعض الحلبة بالحليب؟"

-"ليكن."

وبحثت بعيني في المقهى الذي جلس زبائنه في الضوء الخافت.. ربما كان مع أحدهم فكة.. هذا الرجل كان يجلس جواري في السيارة وكان نائمًا منذ البداية. نهضت نحوه وسألته عن....





كان نائمًا.. لكني رأيت عنقه.. كان مثنيًا بطريقة لا يمكن وصفها ولا يمكن أن تراها على إنسان حي.. لكنه كان حيًا.. شفتاه تتحركان..

بدأت أتراجع للخلف فاصطدمت بالقهوجي الذي كان يقف يراقب المشهد في استمتاع.. قال لي:

- "أنت قلق وحائر يا أستاذ.. لا أدري لماذا لا تقبل الأمر مثل الآخرين؟.. سوف تجلس هنا بعض الوقت وتتبادل الكلام مع الآخرين ثم تدفع الحساب وترحل.. هكذا يفعل الجميع.. كله مكتوب.. صدقني"

نظرت حولي وسألت من جديد:

- "أين السائق؟"

- "قلت لك إنه رحل.. لقد كان أول من رحل.."

- "لم يأخذ السيارة.."

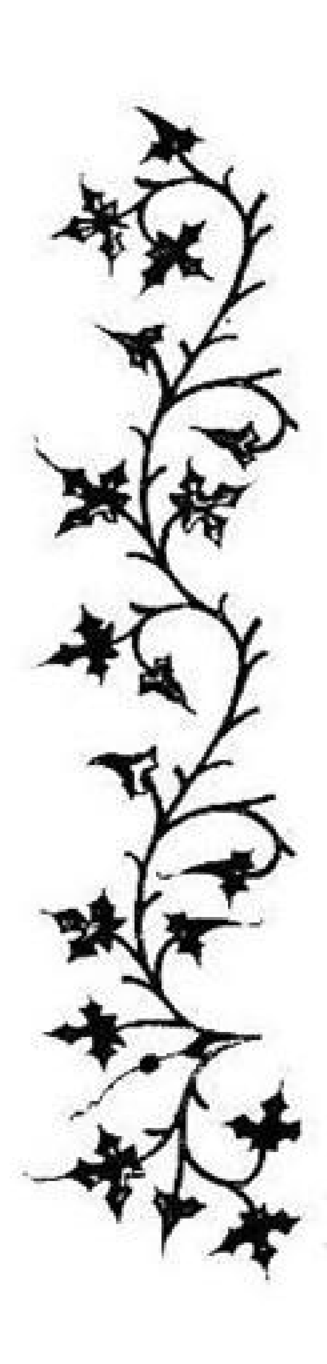
- "لم يعد هناك داع للسيارة!"

هذه المرة تملكني الهلع فأطحت بالصينية التي يحملها وهرعت أجري خارجًا من ذلك المقهى الغامض.. أسمع صوته يصيح (الحساب يا أستاذ.. الحساب!).. أجتاز حزام الأشجار المحيط بي لأرى الحقول المظلمة وفوقها حزام النجوم البكر.. صوت صرصار الحقل ونقيق الضفادع.. السيارة تقف كالشبح في الظلام..

ما معنى هذا؟... هناك معنى لكني أخشى أن أقوله..

تعثرت وسقطت.. وفقدت الوعي..

هـذا أنا.. أفتـح عيني.. هناك من يركع جواري.. هـذا القرص الملون يبعث أضواء مجنـونة في كـل مكـان.. ما هـذا الزحام؟.. ما هذا الصوت المولول بلا توقف؟.. سرينة؟.. هناك من يمسح شيئًا دافئًا عن وجهي..



صوت نقالة تفرد.. رجلان يحملانني ليضعاني فوقها..

أنظر حولي.. هذه جثث.. جثث دامية متناثرة على جانب الطريق، وهناك بقع دم.. هذا هو السائق.. لن يقود سيارة بعد اليوم..

إنهم يضعونني في سيارة الإسعاف.. رجل بشارب كث ينحني علي ويقول:

- "حمدًا الله على السلامة.. كله مكتوب.. لقد نجوت بمعجزة.. السيارة دارت حول نفسها ثلاث مرات ثم اصطدمت بشجرة.."

- "والمقهى؟.. المقهى الذي تحيط به الأشجار؟"

نظر لي في عدم فهم ثم قال:

- "حاول أن تستريح.. أي مقهى؟.. لقد وقع الحادث بين طوخ وبنها.. لا توجد مقاه قريبة.."

نظرت لسقف عربة الإسعاف الذي تركض عليه الأضواء .. لحظات من الشرود ثم سمعت الرجل ينظر من النافذة الخلفية ويقول:

- "ليلة سوداء هي..هذه عربة نصف نقل تنقل بعض تجار الخضر.. ماتوا جميعًا.. زملائي أخبروني على الهاتف.."

كنت أفكر في هذا كله..

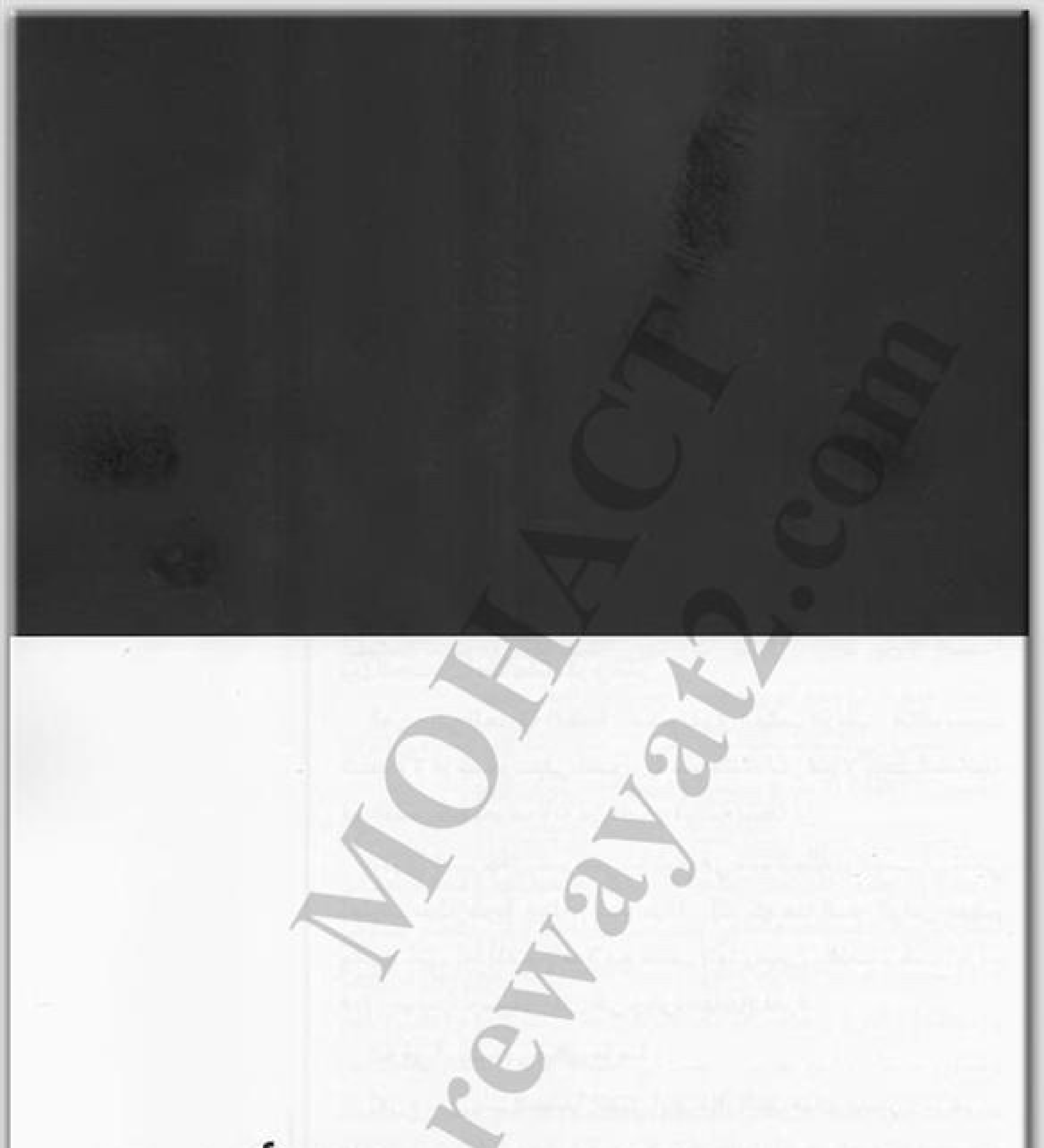
المقهى لا وجود له.. هلاوس زارتني وأنا ملقى على الأسفلت بين الموت والحياة.. لكني أعرف ما هو أفضل.. أعرف يقينًا أنني كنت هناك فعلاً، وأن الآخرين ذهبوا هناك أيضًا.. كله مكتوب.. كلهم شربوا جرعات أخيرة من الشاي.. ثم دفعوا حسابهم ورحلوا..

لماذا أنا حي؟.. ربما لأنني لم أدفع حسابي.. لأن الورقة ذات المائة جنيه عطلت ذلك.. " لكنه دفع الحساب وصار حرًا.. سوف يواصل الرحلة" ، " أمثاله لا يحتاجون إلى عجلات"..

وما زلت حتى اليوم أرتجف هلعًا كلما دنت السيارة من بنها، وبعيني أفتش عن ذلك المقهى بين الأشجار.. أعرف أنه موجود.. أعرف أنني سأزوره يومًا ما وسوف أشرب الشاي..

لكنني في تلك المرة سوف أجد معي ما يكفي لدفع الحساب.. أعرف هذا يقينًا .





نظرية الفتاة الأخيرة

"أنا الفتاة الأخيرة لهذا سأنجو..

أنا فتاة.. هذه نقطة..

أنا بريئة طاهرة.. هذه نقطة أخرى.. لم يمسسني بشر حتى هذه اللحظة، ولم تلمس شفتاي لفافة تبغ ولم أتعاط أي شيء من تلك الأشياء اللعينة.. (نجلاء) كانت تدخن . أعرف هذا يقينًا.. (مها) كانت لا تمانع في شرب البيرة وتزعم أن البيرة ليست حرامًا.. قلت لها إنها تهذي.. البيرة حرام وتحتوي على كحول، فإن أرادت أن تشربها بعد هذا الإنذار فهي مشكلتها..

(عبير) تعرف الكثير من الفتية.. هي لا تريد سوى أن تترك حلمًا لا يتحقق في نفس كل شاب.. تترك جوعًا لا يشبع.. تترك ظمأ لا يرتوي.. هي تتسلى ولهذا هي تستحق ما يحدث..

لا تنس كذلك أن اسمي (عصمت).. اسم غير شائع لكنه يقع بالضبط بين الجنسين.. هذا عامل قوي آخر .

أخرج إلى الحديقة المظلمة.. أمشي فوق العشب الرطب . هناك صمت شديد ولا توجد موسيقى تصويرية متوجسة. لكن هذا لا يبعث الطمأنينة في النفس كما تعرف لأنه من الممكن في أية لحظة أن...

تدوي الصرخة!.. صرختي أنا طبعًا في هذه الحالة، والسبب أن قدمي تعثرت بجثة طرية مبتلة . نعم مبتلة.. إنه كل هذا الدم. الرأس مهشم بشيء ثقيل أما الملامح فملامح فتاة.. إنها (عبير) بالذات.. كنت أعرف هذا.. صمت الموسيقى يدل على وجود مفاجأة قذرة..

إنه في البيت.. في مكان ما هنا..

أهرع نحو باب الحديقة لكنني أرى ذلك الظل هناك. يدخن.. برغم أن هذا يجعل بقعة الضوء مرئية بوضوح ويجعلني أعرف أنه ينتظرني هناك، لكن لابد من التدخين ليضفي عليه ثبات أعصاب..

لا يمكن الخروج من هنا.. سوف أتراجع..

أجري إلى الباب الخلفي الذي يقود للمطبخ. هذا البيت غربي الطابع لذا هناك باب للمطبخ. أفتح الباب لكني أتعثر في شيء طري آخر.. هذا (عادل)!... (عادل) مقتول على باب المطبخ.. هناك من قطع حلقومه. أرى هذا في الضوء الخافت..

(عـادل) أيضـًا لم يكـن نقيًا جدًا.. أعتقد أنه بشكل ما استحق ما حدث له.

أنا الآن في المطبخ المظلم. لا يمكن أن أضيء النور.. سوف أبحث في هذه الخزانة عن سكين.. فقط السكين العملاقة اللامعة سوف تمنحني بعض الطمأنينة. أفتح الخزانة ولكن.. هناك شيء ضخم يندفع نحوي.. يثب في وجهي.. صرخت ووثبت للخلف..

وعندما نظرت إلى الأرض أدركت أنه قط.. قط ضخم يتمسح في ساقي ويبدو أن المسكين مذعور أكثر مني.. لكني أعرف قواعد هذه الأفلام: الخضة الأولى تأتي من القط، لكن ظهور القطط ينذر بالهجمة الحقيقية دائمًا.. فقط تأتي هذه الهجمة عندما يسترخي البطل ويهدأ..

فرصتي في النجاة عالية جدًا على كل حال.. أنا أول اسم في تترات الفيلم، وأنا الفتاة الأخيرة واسمي (عصمت).. سوف أنجو..

رحت أردد بيني وبـين نفسي (كانت فكرة سـوداء.. كانت فكرة سـوداء).. عندما اقترحت (هدى) أن تدعو صديقاتها وأصدقاءها في الكلية إلى عيد ميلادها هنا، في بيت أسرتها المنعزل في المقطم. بدت لي فكرة سخيفة غربية الطابع. ولكن الأمسية كانت ممتعة مع (مها) و(عبير) و(نجلاء) و(مي) وبعض الأولاد المهرجين مثل (شريف) و(عادل). أهل (هدى) لم يكونوا موجودين.. بدت لي الحبكة غربية جدًا وتأكدت من صواب رأيي عندما نزلت (هدى) إلى البدروم لتحضر بعض زجاجات المياه الغازية لتضعها في الثلاجة بدلاً من تلك التي شربناها، هنا دوت صرختها المرعبة.. هرعنا لنرى ما هنالك فوجدناها معلقة من خطاف في البدروم.. خطاف يخترق عنقها. كان الكلب ينبح بقوة في الحديقة فخرج

(ماهر) ليرى ما به.. سمعنا صرخته.. هنا فقط أدركت أننا في فيلم مثل (الصرخة) أو (هالوين) أو (أعرف ما فعلت الصيف الماضي) أو (مذبحة منشار الشريط في تكساس)، وأدركت أن هناك سفاحًا بيننا.. من قواعد أفلام الرعب أن من يذهب ليعرف سبب نباح الكلب لا يعود أبدًا..

تأكد ظني عندما حاولنا طلب الشرطة.. شبكة المحمول معطلة والهاتف العادي مقطوع. فلنفر من البيت يا شباب.. لنركض حتى أقرب بيت للجيران..

لكن الباب موصد (ألم يكن مفتوحًا منذ دقائق؟).. النوافذ موصدة.. هكذا تصرفنا بالحماقة المعهودة في الأفلام وتفرقنا وكل واحد منا يبحث عن طريقة للفرار.. لا أعرف ما فعله الآخرون لكنني أعرف أن (عادل) و(عبير) هلكا.. لقد وجدت سلمًا صغيرًا في القبو استطعت عن طريقه الخروج إلى الحديقة. لكن من الواضح أني لم أفر بعد.. لقد عدت للبيت..

يجب أن أخرج من المطبخ قبل أن تأتي الخضة الثانية.. خضة ما بعد ظهور القط...

خرجت من المطبخ فوجدت جثة على الأرض!.. لقد صار هذا مملاً.. من هو؟... يمكن بشيء من الخيال أن أفترض أنه (شريف)، لكن لن أمر فوق جثته.. لا تمر أبدًا فوق جثة في الأفلام لأنها تصحو فجأة وتمسك بكاحلك. لو حدث هذا لكان (شريف) هو القاتل وهو الآن يتظاهر بأنه ميت..

هكذا وثبت من فوقه.. ونظرت للخلف فأدركت أنه لا يمثل.. لا أحد يمثل وعنقه بهذا الشكل..

درجات السلم تقود لأعلى.. إلى غرف النوم..لكن أولاً لابد من عمل شيء يقطع الطريق على القاتل، وإلا فإن اقتفاء أثري إلى الطابق الثاني عمل شديد السهولة. هرعت إلى الحمام الموجود في أعلى الدرج.. فتحته وبحثت كالمجنونة عن زجاجة الصابون السائل.. خرجت متقطعة الأنفاس إلى أعلى الدرج وأفرغت الزجاجة على الدرجات الرخامية ، ثم عدت وملأت دلوًا من الماء سكبته، في الإضاءة الخافتة سوف يصعد السفاح

السلم دون روية ولسوف يفاجأ بأن قدميه تطيران في الهواء. لا أعتقد أنه سيموت لأن الحياة ليست بهذه السهولة، لكنه قد يصاب إصابة بالغة...

هرعت إلى غرفة النوم.. فتحت الباب.. هنا سقطت جثة كانت مستندة إليه.. هاتان العينان.. إنها (نجلاء).. أطلقت صرخة مكتومة ووثبت فوقها إلى داخل الحجرة.. ماذا أتى بنجلاء إلى غرفة نوم (عبير)؟.. لا شك أنها كانت تحسبها مخبئًا آمنًا.. يبدو إنني أكرر ذات الخطأ..

الهاتف المحمول هنا على الفراش.. فلأجرب مرة أخرى. مصادفة سخيفة أن تتعطل كل هواتفنا المحمولة لكن المشاهد قد يقبل ثغرات كهذه.. إن الهاتف المحمول قد جاء ليفسد نصف سيناريوهات الرعب على الأقل.. سوف يكون مصير نصف أفلام الرعب القديمة هو سلة المهملات، لأن مفتاح الرعب رقم واحد هو العزلة..

الهاتف معطل فعلاً... هذا يشير إلى أن القاتل له صفة خوارقية ما.. ربما هو الشيطان أو شبح سفاح عاد من القبر. فقط أمثال هذين يقدرون على تعطيل شبكات المحمول كلها..

هنا ورقة وقلم.. سأغلق الباب وأجلس وأدون هذه الأحداث لأرتب أفكاري بسرعة...

أنا الفتاة الأخيرة.. الآن صرت واثقة من ذلك.. الفتاة التي تبقى حية بعد هلاك الجميع والتي تواجه القاتل.. هناك ناقدة سينما أمريكية ابتكرت هذا المصطلح بعد ما شاهدت حشدًا من أفلام الرعب، وكتبت كتابًا اسمه (رجال ونساء ومناشير). لاحظت الناقدة أن من ينجو في آخر أفلام الرعب بعد هلاك الجميع هو فتاة.. فتاة طاهرة لم تتلوث.. واسمها يصلح أن يكون لذكر أو أنثى (مثل عفت وعصمت عندنا) . في البدء يشاهد الناس الفيلم بعيني القاتل، وفي تطلع سادي لأن يظفر القاتل بالفتاة، لكنهم في نهاية الفيلم يتوحدون مع الفتاة ويتمنون أن تنجو.. هذا غريب لكنه حقيقي.. أي أن المشاهد يغير جنسه أثناء مشاهدة الفيلم. بطلة الفيلم كذلك عندما تواجه السفاح فإنها تغير

جنسها لأنها تتزود بسلاح وهو رمز ذكري.. سوف تقتل القاتل بسكين أو فأس أو مطرقة...

أنا سأنجو لأنني بلا خطايا ولأن اسمي (عصمت) ولأنني أنثى..

ماسورة الصرف المجاورة للنافذة والقادمة من الحمام. سوف يصعد لي القاتل وعندها سوف أثب وأنزلق على هذه الماسورة إلى الحديقة وأثب فوق السور.. سوف أركض في الشارع ولسوف أجد سيارة أجرة أو سيارة دورية شرطة حتمًا..

عندما يأتي رجال الشرطة سيشرحون لنا لماذا فعل القاتل ذلك...؟.. من هو؟؟

أسمع صوت الارتطام القوي على السلم.. لقد حاول الغبي الصعود، هنا وجد أن الأرض تنزلق تحت قدميه. طار في الهواء فإن كنت سعيدة الحظ لحطم رأسه. لكني أعرف هذا النوع من القتلة. لن يموت بسهولة أبدًا.. سوف أجده أمامي خلال دقائق برأس دامية وجنون أكبر..

نعم.. الآن وقت النزول على الماسورة. لو دخل الغرفة فلن يمنحني الوقت الكافي للفرار. هيا بنا....."

فرغ النقيب (عمر) من قراءة الرسالة فوضعها جانبًا وجرع جرعة من كوب الشاي، ثم أشعل لفافة تبغ ونظر لي قائلاً:

-"ما رأيك يا د. (محفوظ)؟.. دكتورة (عصمت) كما قيل لنا كانت تلميذتك"

قلت له وأنا أسترجع فقرات الخطاب:

-"يقول أوسكار وايلد إن الطبيعة تقلد الفنان.. يبدو أن أفلام الرعب جعلت السفاحين يتصرفون على طريقتها لا على طريقتهم. رأيت أمس عاشقين يقفان في ملل على الشاطئ يرقبان الغروب.. واضح تمامًا أن كليهما لا يرغب في ذلك، لكنهما مجبران لأن السينما علمتهما أنه لا حب دون مشاهدة الغروب.."

قال وهو يضع الخطاب في ملف:

- "على كل حال خابت نظرية الفتاة الأخيرة.. لقد انفصلت ماسورة الصرف وهوت هي من حالق لتهشم رأسها.. ليرحمها الله.. ما رأيك في د. (عصمت)؟"

- "هي عبقرية.. عبقرية حقيقية، ويبدو أن النقد الفني صار طبيعة ثانية لديها.. أحيانًا يعبر العبقري الخط الفاصل فيصير شيئًا آخر."

قال وهو يدفن لفافة التبغ في المطفأة:

- "نعم.. نعم.. كل هذا العالم والحفل والأصدقاء والسفاح لا وجود لهم.. لقد عاشت هذا كله وخلقته وهي وحدها في غرفتها في المصحة النفسية. لم يخطر ببال هؤلاء الأغبياء أن يضعوا قضبانًا لنافذة الغرفة.. ولكن هل تؤمن حقًا بنظرية الفتاة الأخيرة هذه؟"

لذت بالصمت.. ترى متى ينتهي الكابوس ويبدأ الواقع؟.. أليست قصتها الحقيقية هذه نواة ممتازة لفيلم مخيف؟.. فيلم أكثر واقعية وإرعابًا من أفلام (الصرخة) و(كابوس في شارع إلم) و(هالوين)؟.. ربما نحن أبطال في فيلم مرعب طويل جدًا ولا نعرف ذلك ... المشكلة أننا لا نعرف ذلك وبالطبع لا نتقاضى عن تمثيلنا أجرًا...



الفهرس

الآن نفتح الصندوق

2



ما زلنا مع الصندوق العجيب الذي تركه لنا د. محفوظ.. تذكرون أن الرجل مات فقيرًا فلم يترك لنا إلا هذا الصندوق في قبو داره .. الصندوق لم يفرغ بعد فما زالت فيه حكايات وملاحظات عن تلك القصص الغريبة التي مرت به في حياته.. من جديد اقتربوا .. تعالوا نفتح الصندوق الآن.. تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو ونطالع قصة جديدة من تلك القصص ..

الكويت
2009

